محمد مكي نصر الجريسي
[ت١٣١٦هـ] والأصوات اللغوية
دراسة في قضايا الصوت المفرد

إعداد

د. أحمد أبو بكر الصديق أحمد

مدرس بقسم أصول اللغة

كلية اللغة العربية بالقاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ملخص البحث

يهدف البحث إلى دراسة النظرية الصوتية الفوناتيكية عند علم من أعلام الأداء القرآني في القرن الرابع عشر الهجري، وهو محمد مَكِّي نصر الجريسي، وذلك من خلال كتابه " نهاية القول المفيد فيما يتعلق بتجويد القرآن المجيد".

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع؛ أهمية الكتاب بين مصنفات علماء الأداء القرآني، فقد أودع المؤلف كتابه زُبدة أربعة وعشرين كتابا من الكتب المشهورة المرضية، منها: الوقف والابتداء لأبي عمرو الداني (ت.٤٤٤هـ)، فكان – بحق– موسوعة نفيسة ينهل منها المتخصصون والمتعلمون. هذا بالإضافة إلى يقيني الكامل بأن مصنفات علم التجويد تعد مصدرا غنيا وأصيلا من مصادر تراثنا الصوتي، لا يمكن تجاهله أو الاستغناء عنه.

وقد حاولت – قدر الاستطاعة– في صفحات البحث الإجابة على بعض التساؤلات، مثل: هل أولى الشيخ – رحمه الله – مباحث الصوت المفرد من المعالجة والدراسة ما يستحق الإشادة والتقدير، وإلى أي مدى اتسمت نظرته بالدقة والعمق؟ وهل جاءت آراؤه وأفكاره مطابقة لأفكار وآراء المحدثين؛ رغم البون الشاسع في الأدوات والوسائل؟

وقد استعنت بالمنهج الوصفي التحليلي، في محاولة جادة للوصول إلى إجابات شافية وكافية لتلك التساؤلات.

ولتحقيق ما انعقد البحث على معالجته، جاءت هذه الدراسة – بعد المقدمة – في:

تمهيد، وفصلين. أما التمهيد: فعنوانه: التعريف بمحمد مكي نصر، وهدفه من دراسته، وأهميتها في الدراسة الصوتية، وفيه ثلاثة مطالب: المطلب الأول: محمد مكي نصر: حياته، كتابه، وفاته. المطلب الثاني: علم التجويد وعلم الأصوات – الطبيعة، والعلاقة، والمنهج. المطلب الثالث: الدافع إلى دراسة الأصوات اللغوية عند محمد مكي نصر.

وأما الفصلان: الأول بعنوان: العملية النطقية عند محمد مكي نصر، وفيه مبحثان: الأول: الجهاز النطقي. الثاني: إنتاج الصوت اللغوي.

أما الفصل الثاني، فكان بعنوان: الصوت اللغوي مفردا – تأصيل وتحليل، وفيه مبحثان: الأول: مخارج الحروف. الثاني: صفات الحروف. وفيه ثلاثة مطالب: الأول: الصفات المتضادة. الثاني: الصفات غير المتضادة. الثالث: نظرية الأصوات القوية والضعيفة.

وخاتمة فيها أهم ما توصلت إليه الدراسة، ثم ورقة للتوصيات والمقترحات، وثبت للمصادر والمراجع، وثبت للموضوعات، وملخص باللغتين: العربية، والإنجليزية.

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل،،،

Research Summary

The research aims to study the phonetic sound theory in the knowledge of the Quranic intonation scholars in the fourth century AH, namely Mohammed Makki Nasr Al Jeraisy, through his book," " Nihayt al-qawl al-mufid".

It prompted me to choose this subject;The importance of the book between the work of the Qur'anic intonation scholars, the author has deposited his book a summary of twenty-four books of the famous books, was - really - a valuable encyclopedia from which specialists and learners learn. This is in addition to my full conviction that the Tajweed works are a rich and indispensable source of our sound heritage, which can not be ignored or dispensed with.

I tried - as much as possible - in the pages of the search to answer some questions, such as: Did Sheikh - may God have mercy on him -give the issues of the single sound from analysis and study what deserves praise and appreciation, and to what extent was characterized by accuracy and depth? Did his views and ideas match the ideas and opinions of the modernists, despite the vastness of tools and means?

I have used the analytical descriptive approach, in a serious attempt to reach adequate answers to those questions.

In order to achieve this research, this study - after the introduction - came in: Preface, in which there are three demands: First, Mohammed Makki Nasr: his life, his book, his death. The second: the science of Tajweed and phonetics – nature, relationship and methodology. And the third: the motivation to study the linguistic sounds at Mohammed Makki Nasr.

And two chapters, the first entitled: the process of speech at Mohammed Makki Nasr, and includes two sections: First: the vocal tract. Second: linguistic sound Production.

The second chapter, entitled: The single linguistic sound - rooting and analysis, and includes two sections, The first: points of sounds articulation. Second: Characteristics of sunds. It has three demands:

First: the opposite (Contrasting) qualities. Second: non- Contrasting qualities. Third: the theory of strong and weak sounds.

And the conclusion of the most important findings of the study, and then a paper for recommendations and proposals, a catalog of sources and references, and a catalog of topics, and a summary in Arabic and English.

‘‘‘The God of the intent behind a Guide to the way,,,

مقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه ومن والاه ... وبعد.

فقد كان لعلم التجويد معالمه وسماته التي لا تكاد تخرج عن الإطار الصوتي تأصيلا وتطبيقا، ولا ضير في ذلك، فعلم الأداء القرآني ما هو إلا تسجيل حي لكيفية النطق السوي لمكونات النسق القرآني: أصواتا، وبنية، وتركيبا، كما أقرها المصطفى – صلى الله عليه وسلم– قراءة وإقراء.

وقد كان لعلماء هذا الفن عظيم الأثر في تأطير علم أصوات العربية وتشييد بنيانه، وكانت مؤلفاتهم منبعا ثريا ورافدا غنيا لموروثنا الصوتي عبر الأجيال والأزمان، يحفظ بقاءه، ويضمن حياته، ويجدد شبابه، ويبعث في عروقه الحيوية والخصوبة، حتى لا يتسرب الجدب والتصحر إلى بساتينه اليانعة ومرابعه العشباء، أو تتصلب شرايين حياته، فيتجمد ماء المحيا في وجهه، ثم لا يلبث – غير مرغم– أن يذوي أو يفنى.

وأقول – والحق أقول– لقد مثل علم التجويد سياجا منيعا وحصنا حصينا لأصوات فصحانا، فلم يكن لتفتك بغضارتها الأيام – رغم تقادم السنين ومر الأعوام– ولم يكن لتنال منها معاول الهدم الثقافي وأدوات التغريب والتخريب – رغم ضراواتها وشراهتها، وجدة وسائلها وأدواتها– بل بات علم التجويد حارسا أمينا؛ يذود عن حياضها، ويدفع عن حماها. ولم يتهيأ للغة من لغات الدنيا بأسرها ما منَّ الله به على العربية – لغة هذا الدستور الإلهي المعجز الخالد– وصدق الله العظيم: " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " (الحجر:٩).

وقد قرر الرافعي[١] أن من وجوه تأثير القرآن في اللغة: " هو إقامة أدائها على الوجه الذي نطقوا به – ولا سبيل لذلك إلا بعلم التجويد أو فن الأداء القرآني– بحيث لولا هذا الكتاب الكريم لما وجد على الأرض أسود ولا أحمر؛ يعرف اليوم – ولا قبل اليوم– كيف كانت تنطق العرب بألسنتها، وكيف تقيم حروفها، وتحقق مخارجها. وهذا أمر يكون في ذهابه ذهاب البيان العربي جملته أو عامته؛ لأن مبناه على أجراس الحروف واتساقها، ومداره على الوجه الذي تؤدى به الألفاظ"[٢].

" ولم تكن أهمية علم الأداء (التجويد) وفائدة أحكامه مقصورة على النسق القرآني، بل أضفت على الأنساق اللغوية – نثرا ونظما– مسحة من السلاسة، ولمسة من الطراوة في نسيجها؛ إذا ما روعيت أحكام التلاوة القرآنية في أدائها"[٣] .

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، سوري الأصل، مصري المولد، ولد في يناير ١٨٨٠م؛ لأب وأم سوريين، يتصل نسبه بعبد الله بن عمر بن الخطاب، وأبوه هو الشيخ عبد الرازق الرافعي، كان رئيسا للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم، وكان رئيسا لمحكمة طنطا الشرعية، وفيها أقام الرافعي وإخوته، ولم ينل الرافعي من الشهادات العلمية إلا الابتدائية، لكن أباه خلف له مكتبة تجمع أشتاتا من العلوم وأفنانا من المعارف، فنشأ في أحضانها. وألف من الكتب: تاريخ آداب العرب، إعجاز القرآن، ومن رسائله: حديث القمر، رسائل الأحزان، السحاب...إلخ، انتقل إلى جوار ربه في ١٩٣٧/٥/٩م، عن عمر يناهز ٥٧ عاما. بتصرف واختصار من كتاب: محمد سعيد العريان: حياة الرافعي، المكتبة التجارية بمصر، الطبعة الثالثة١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

(٢) مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص٨٠، ٨١، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة١٣٣٩هـ/١٩٧٣م.

(٣) د. عبد المنعم عبد الله محمد: علم الأداء القرانـي – أهميته وموقعه في ميدان الدراسات الفونولوجية، نظرة تطبيقية ص٦٠٢، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، العدد الثاني عشر، عام١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

وقد أدرك المستشرقون القيمة العلمية لمصنفات التجويد أو الأداء القرآني في مجال الصوتيات، فأَوْلَوها عنايتهم ورعايتهم: " فأصدر برافمان[١](M.M Bravmann) سنة ١٩٣٤م كتيبا أسماه: " مواد وبحوث في نظريات العرب الصوتية" (Materialen und Untersuchungen zu den phonetischen Lehren der Araber)، وأورد فيه معلومات جديدة استقاها من كتب التجويد. وفي نفس ذلك الوقت أيضا نشر أوتو برتزل[٢] (Otto. pertzl) في مجلة الإسلاميات Islamica. IV. 1-3" 1933- 3-1 IV) "1934-1933" "1934) سلسلة من الفصول عنوانها: " علم التجويد" (Die Wissenschaft der Koranlesung)، واحتوت هذه

(١) ماكس ماير برافمان، من أعضاء المعهد الفرنسي بالقاهرة، وأستاذ اللغات الشرقية في الولايات المتحدة. من آثاره: علم الصوتية العربية، دراسات عن اللغات السامية- اللهجة العربية، الحياة الروحية في الإسلام، ترجمة أسباب حدوث الحروف لابن سينا- صيغة الأمر بالعربية والعبرية- أبحاث عن اللغة العربية والنحو المقارن ... وغيرها. نجيب العقيقي: المستشرقون٣/١٠١٣، ١٠١٤، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة١٩٦٤م.

(٢) ولد أوتو برتسل في ميونخ في١٨٩٣/٤/٢٠م، درس معظم اللغات السامية: من الأكادية إلى الحبشية، مرورا بالعربية والعبرية والسريانية، واللغة المصرية القديمة والقبطية، والفارسية والتركية، على يد هُمل وزوسهيم وشبيجلبرج. وعين أستاذا للغات السامية بجامعة ميونخ، وعضوا بالمجمع العلمي البافاري، وجمعية المستشرقين الألمان. قام بتحقيق كتابين رئيسين في القرآن من تأليف أبي عمرو الداني، وهما: كتاب التيسير في القراءات السبع. وكتاب المقنع في رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط. وشارك أستاذه برجشتراسر في تحقيق عدد كبير من كتب القراءات، واشتركا في نشر الجزء الثالث من تاريخ النص القرآني لنولدكه، وعاون رفيقه ايزين في نشر فضائل القرآن وآدابه لأبي عبيد القاسم ابن سلام. د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٨٢، ٨٣ بتصرف واختصار، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة١٩٩٣م، د. أمجد يوسف الجنابي: آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية ص١٢٦-١٢٩، مطبوعات مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، الطبعة الثانية١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، وأيضا: المستشرقون٢/٧٥٩، ٧٦٠.

الفصول هي الأخرى على عدد كبير من المعطيات الصوتية المستخرجة من كتب التجويد"[١] . كما نشر الدكتور خليل سمعان[٢]– هو الآخر– بحثا بعنوان: " التجويد كمصدر للبحوث الصوتية" (Tajwld as a Source in Phonetic Research) في مجلة (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, Vol. 58 (1962), pp. (111–119، وقد ضمنه كثيرا من التحريرات الصوتية الدقيقة، التي استخلصها من كتب الأداء القرآني.

ولم يكن الأمر وقفا على المستشرقين، فقد التفت الدكتور غانم قدوري الحمد – من علماء العربية المحدثين، والمشتغلين بدراسة الأصوات اللغوية – إلى كتب علم التجويد التي تتضمن دراسة للأصوات اللغوية؛ لا تقل في أهميتها عن جهود علماء العربية، فأخرج كتابه الماتع " الدراسات الصوتية عند

(١) ينظر: جان كانتينو: دروس في أصوات العربية ص١٣، نقله إلى العربية: صالح القرمادي، نشريات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية١٩٦٦م.

(٢) خليل سمعان، ولد في صافيتا السورية١٩٢٠م، ودرس في مدارسها حتى سافر إلى الولايات١٩٥٠م، ودرس الإنجليزية، وحصل على الدكتوراه في علم اللغات السامية والإسلاميات١٩٥٦م، وأتقن إلى جانب العربية –الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإسبانية– وعمل محاضرا في جامعة نيويورك، هذا إلى جانب تقلده منصبا إدرايا في جامعة الكونجرس الأمريكي. وقد أفنى حياته متخصصا في دراسات الشرق ومقارنا بين اللغات السامية القديمة، فكتب عن السريانية، والآرامية، والأجريتية، والعبرية، والفارسية، وقد تمحورت دراساته في علم اللغويات والصوتيات، توفي بالسويد٢٠١٧م، عن عمر يناهز ٩٧ عاما. ينظر الموقع التالي: http://safita.reefnet.sy/index.php?option=com_content&view=article&id=295:2017-11-05-10-37-33&catid=2:2008-12-18-20-18-23&Itemid=55

علماء التجويد"، وقد حصل به على درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة بغداد[١] .

ولأستاذنا الدكتور عبد الله ربيع[٢] – رحمه الله– بحث في الأصوات عند عَلَمٍ كبير من علماء الأداء القرآني، جعل عنوانه: " أصوات العربية والقرآن الكريم: منهج دراستها وتعليمها عند مكي

بن أبي طالب المتوفى سنة٤٣٧هـ"[٣] . كما أن له مؤلفا ماتعا بعنوان: " من قضايا علم التجويد".

---

(١) ينظر: د. غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية ص٥، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م. وله مؤلفات أخرى ذات صلة وثقى بهذه الفكرة، نحو: أهمية علم الأصوات اللغوية في دراسة علم التجويد، وكتاب: علم التجويد – دراسة صوتية ميسرة، وكتاب: أبحاث جديدة في علم الأصوات والتجويد ...إلخ.

(٢) عبد الله ربيع محمود حسن، ولد في١٩٣٥/٧/١٠م، في قرية دملو، التابعة لمركز بنها بالقليوبية – وكانت من قبل تتبع مركز قويسنا بالمنوفية– عين معيدا بقسم أصول اللغة بعد أن تخرج من كلية اللغة العربية في١٩٦٣/٣/٢٩م، ثم تدرج في السلم الأكاديمي حتى عين أستاذا في ١٩٨٤/١٠/١٠م، ثم عميدا لكلية اللغة العربية بدمنهور سنة١٩٨١م. تلقى العلم على يد أكابر أجلاء، منهم: د. إبراهيم نجا، د. عبد الله العزازي، د. محمد قناوي. وتلقى العلم في مرحلة العالمية على يد الأستاذ بخاطره نصر الشافعي – مدير معمل الصوتيات بكلية الآداب– جامعة الأسكندرية– وشارك في الإشراف الأستاذ عبد الحميد الدواخلي. ومن آثاره العلمية: علم التجويد، الملامح الأدائية عند الجاحظ في البيان والتبيين، عن النبر في نطق العربية الفصحى بالعالم العربي المعاصر ...إلخ، انتقل إلى جوار ربه في٢٠٠٥/١/٢٣، عن عمر يناهز ٦٩ عاما. بتصرف واختصار من: د. علي إبراهيم: من أعلام الأزهر – الأستاذ الدكتور عبد الله ربيع محمود ص٢٧٥–٢٨٨، بحث منشور في الجزء الأول من " علماؤها الخالدون، مطبعة الأقصى، القاهرة، الطبعة الأولى٢٠١١م، وأيضا: إيمان طه صميدة: عبد الله ربيع لغويا ص٢–١٥، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم٧٢٣٤/أصول لغة، لعام١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

(٣) وهو بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالرياض، العدد العاشر، عام١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

وقد ألف أستاذنا الدكتور عبد العزيز علام[١] – حفظه الله– كتابا قيما؛ يعالج ما أنتجته قرائح علماء التجويد من رؤى ونظريات صوتية في ضوء الدرس الصوتي الحديث، وجعل عنوانه: " عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة".

كما حصل أستاذنا الدكتور أبو السعود الفخراني[٢] على درجة الدكتوراه من كلية اللغة العربية بالقاهرة، عن بحث بعنوان: " التجويد القرآني في ضوء علم الصوتيات الحديث".

---

(١) عبد العزيز احمد علام، ولد في١٩٣٥/١١/٩، في قرية زنارة– تلا – المنوفية، عين معيدا بقسم أصول اللغة بعد أن تخرج من كلية اللغة العربية في١٩٦٣/٣/٢٩م، وفي أثناء رحلته العلمية تلقى العلم على يد أكابر أجلاء، منهم: د. حسن عون. و كان أعظم الأساتذة أثرا في تكوينه العلمي: الأستاذ بخاطره نصر الشافعي – مدير معمل الصوتيات بكلية الآداب– جامعة الأسكندرية– الذي أشرف على مشروع بحثه في مرحلة العالمية. ومن منجزاته العلمية: عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، في علم اللغة العام، علم الصوتيات بالاشتراك مع رفيق الدرب وشريك الكفاح د. عبد الله ربيع وغيرها من الأبحاث المنشورة في المجلات والدوريات العلمية، مثل: "الازدواج اللغوي – أسبابه، ومظاهره، وكيفية علاجه قديما وحديثا" و " من ظواهر السياق الصوتي عند علماء التجويد" و " أهمية علم الصوتيات وعلاقته بالعلوم الأخرى". من حديث دار بيني وبينه مشافهة في مجلس قسم أصول اللغة، المنعقد يوم الأحد؛ الموافق٢٠١٩/٤/٧م.

(٢) أبو السعود أحمد محمد الفخراني، ولد في١٩٥٧/٥/٢٩م بمحافظة كفر الشيخ، تخرج من كلية اللغة العربية بالقاهرة١٩٧٨م، ثم عين معيدا في العام نفسه، وترقى في درجات السلم الأكاديمي حتى عين أستاذا١٩٩٤م، وعين عميدا لكلية اللغة العربية بإيتاي البارود٢٠١١م، وألف من الكتب: التجويد القرآني في ضوء علم الصوتيات الحديث – وكانت رسالته للدكتوراه بإشراف شيخه د. عبد الله ربيع– دراسات صوتية في روايات غريب الحديث والأثر، اللطائف المحسنة في مباحث الغنة، ومن أحدث مؤلفاته: علم اللغة التطبيقي، علم اللغة الاجتماعي بالسعودية...إلخ. من الصفحة الرسمية للموقع https://sites.google.com/site/alfkhran/alsyrte-aldhatyte، وقد أكدت تلك البيانات من سعادته في مكالمة هاتفية يوم الجمعة الموافق٢٠١٩/٤/١٩م.

أسباب اختيار الموضوع:

١- العروة الوثقى بين علم الصوتيات وعلم التجويد، ويقيني الكامل بضرورة تماسك العلوم وتلاحمها، عن طريق إفادة كل من العلمين من مباحث الآخر؛ في إطار من التعاون والتكامل الهادف إلى تحقيق أهداف العلم وغاياته، بدل أن يعمل أصحاب كل فن في جزر منعزلة، وسياقات متباينة عن الآخر، فيضيع الوقت سدى، والجهد هباء.

٢- أدى إهمال علماء الأصوات المحدثين – إلا ما ندر- كتب التجويد، وعدم الإفادة منها في أبحاثهم؛ إلى حرمان تلك الأبحاث من الفوائد التي تضمنتها تلك الكتب، كما أدى – أيضا- إلى عدم الدقة في تقويم جهود علماء التجويد في دراسة الأصوات اللغوية، وهم – من وجهة نظري- إن لم يتسنموا درجة أعلى من علماء الأصوات، فلن تقل عنها بحال من الأحوال.

٣- أهمية كتاب القول المفيد بين مصنفات علماء الأداء القرآني، فقد أودع المؤلف كتابه زُبدة أربعة وعشرين كتابا من الكتب المشهورة المرضية، كما صرح بذلك الشيخ(١)- رحمه الله- فجاء الكتاب – بحق- موسوعة نفيسة ينهل منها المتخصصون والمتعلمون.

أما المنهج الذي اعتمدته، فهو المنهج الوصفي التحليلي، حيث قمت بدراسة الظاهرة الصوتية عند محمد مكي نصر، وفقا لمعطيات علماء الأصوات المحدثين؛ لكي تظهر المنزلة التي وصل إليها الشيخ – رحمه الله – في دراسة الأصوات، ونحلها المحل اللائق بها.

وتأتي أهمية الدراسة في:

(١) لنا تعقيب على ذلك في المطلب الأول من التمهيد.

١- أنها تجلي ملامح النظرية الصوتية عند علم من أعلام التجويد على مستوى الصوت المفرد، وتبرز معالمها- ما أمكن -.

٢- تعكس أهمية المصنفات التجويدية في خدمة علم الصوتيات العربية، التي تعد موردا غنيا وأصيلا؛ لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة أصوات العربية.

٣- دعوة للباحثين والمشتغلين بعلم الأصوات أن يستكملوا المسيرة في فضاء تراثنا الرحب؛ مستخرجين كنوزه ودرره، قاطفين يانع أزاهيره وأطايب ثماره؛ بدل أن يحصروا أنفسهم في قمقم ضيق من التصورات والترهات.

أما السؤال الذي ستحاول صفحات البحث الإجابة عليه: هل أولى الشيخ – رحمه الله – مباحث الصوت من المعالجة والدراسة ما يستحق الإشادة والتقدير، وإلى أي مدى اتسمت نظرته بالدقة والعمق؛ الأمر الذي يجعلنا نعتبر كتب التجويد موردا من موارد دراسة أصوات العربية؟ وهل جاءت آراؤه وأفكاره مطابقة لأفكار وآراء المحدثين؛ رغم البون الشاسع في الأدوات والوسائل؟ وما هي موقعية تلك الرؤى والصوى على خارطة الدرس الصوتي الحديث: تقييما وتقويما؟ ومجموع هذه الأسئلة هي ما تكون مضامين البحث.

أما عن صعوبات البحث: فقد تمثلت في غزارة المادة الصوتية، وعمق النظرة، وشمولية المعالجة والتحليل – إن جاز أن نعتبر ذلك صعوبة – الأمر الذي ألزم الباحث الصبر وطول النفس: توصيفا، وتنميطا، وتحليلا؛ حتى يوفي البحث رتبته، ويبلغ به قمته.

ولتحقيق ما انعقد البحث على معالجته، جاءت هذه الدراسة– بعد **المقدمة**– في:

تمهيد، وعنوانه: التعريف بمحمد مكي نصر، وهدفه من دراسته، وأهميتها في الدراسة الصوتية، وفيه ثلاثة مطالب: الأول: محمد مكي نصر: حياته، كتابه، وفاته. والثاني: علم التجويد وعلم الأصوات – الطبيعة والعلاقة. والثالث: الدافع إلى دراسة الأصوات اللغوية عند محمد مكي نصر.

وفصلين، الأول بعنوان: العملية النطقية عند محمد مكي نصر، وفيه مبحثان: الأول: الجهاز النطقي. الثاني: إنتاج الصوت اللغوي.

أما الفصل الثاني، فكان بعنوان: الصوت اللغوي مفردا – تأصيل وتحليل، وفيه مبحثان: الأول: مخارج الحروف. الثاني: صفات الحروف. وفيه ثلاثة مطالب: الأول: الصفات المتضادة. الثاني: الصفات غير المتضادة. الثالث: نظرية الأصوات القوية والضعيفة.

وخاتمة فيها أهم ما توصلت إليه الدراسة، ثم ورقة للتوصيات والمقترحات، **وثبت للمصادر والمراجع، وثبت للموضوعات، وملخص باللغتين: العربية، والإنجليزية.**

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل،،،

تمهيد

التعريف بمحمد مكي نصر، وهدفه من دراسته، وأهميتها في الدراسة الصوتية

المطلب الأول

محمد مكي نصر: حياته، كتابه، وفاته

لم تمدنا المصادر(١) التي تناولت الجريسي بالمعلومات والأخبار؛ التي نتمكن من خلالها التعرف على هذه الشخصية العلمية الكبيرة، فكل ما عثرنا عليه لا يخرج عن ترجمات مقتضبة، فضلا عن إشارات في فهارس كتب التراجم، وكلها – للأسف– مجتمعة لا تشكل مادة كافية للوقوف على ما يتعلق بجوانب حياته المختلفة. وقد حاولت – قدر الاستطاعة– الإفادة من كل ما سنحت به الظروف؛ أملا في الكشف عن شخصيته ومكانته العلمية.

(١) مصادر الترجمة: عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين – تراجم مصنفي الكتب العربية٣/٧٣٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى١٤١٤هـ/١٩٩٣م، اسماعيل باشا بن محمد بن مير سليم البغدادي: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون٢/٦٩٢، تحقيق: محمد شرف الدين، رفعت بليكة الكليسي، مؤسسة التاريخ العربي، بدون تاريخ. فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية١/١١٧،١١٨، جمعه ورتبه مغيرو الكتب العربية بالكتبخانة الخديوية، طبعة ثانية بمصر ١٣١٠هـ، فهرس الخزانة التيمورية١/٢٤٤،٢٦٨، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة١٣٦٧هـ/١٩٤٨م. إدوارد كرنيليوس فانديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص٣١٠، صححه وزاد عليه: السيد محمد علي البلاوي، مطبعة الهلال، مصر١٣١٣هـ/١٩٨٦م، يوسف إليان سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة٢/١٦٩٨، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.

نسبه وحياته

كفانا الشيخ – رحمه الله– مؤنة هذا الأمر، حيث قدم نفسه في بادئة كتابه، قال: " فيقول أسير الشهوات، كثير الهفوات، الراجي من مولاه الفوز والنصر، الفقير محمد مكي نصر، الجريسي مولدا، والشافعي مذهبا، الشاذلي طريقة ومشربا ..."(١) . وأجمعت المصادر – التي بين أيدينا– على أن اسمه: محمد مكي نصر.

يقول عمر رضا كحالة: " محمد مكي نصر الجريسي، الشافعي، مقرئ مجود للقرآن. من آثاره: نهاية القول المفيد في علم التجويد، فرغ من تبييضها في ٤ جمادي الأولى سنة ١٣٠٥هـ"(٢) .

أما الجريسي، فهو نسبة إلى بلدته (جريس)، ذكرها ياقوت في معجمه باسم (الجُرَيْسَات) كأنه جمع تصغير جَرْسة بالسين المهملة: موضع بمصر(٣) . وسماها الشريف الإدريسي (الجريش)، وقال عنها: " وهي في الضفة الشرقية من أشمن (أشمون حاليا)، وهي مدينة حسنة على إقليم جليل كبير، وهي كثيرة التجارات والعمارات والكروم والأشجار"(٤) . وسماها علي مبارك باسمها الحالي: " جريس: قرية من مديرية المنوفية بمركز أشمون؛ موضوعة على جانب البحر الغربي في مقابلة وردان (قرية من القرى

(١) نهاية القول المفيد ص١١.

(٢) معجم المؤلفين – تراجم مصنفي الكتب العربية٣/٧٣٣.

(٣) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان٢/١٣٢، دار صادر، بيروت١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

(٤) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص٣٤١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

التابعة لمحافظة الجيزة، ولا تزال تحتفظ باسمها) ... وبها جامع قديم، مقام الشعائر، وجملة زوايا للصلاة"[١] .

أما تكوينه الثقافي: فيبدو أن الشيخ – رحمه الله– كان – إلى جانب اشتغاله بالقرآن قراءة وإقراء– متفقها مقتديا بمذهب الإمام الشافعي[٢] – رحمه الله– وهو أمر دعته إليه إمامته لمسجد الزاهد بباب البحر بالقاهرة[٣] .

ويبدو – كذلك– أنه كان صوفيا ورعا؛ سالكا الطريق إلى الله – عز وجل– فكما ارتضى مذهب الإمام الشافعي – رحمه الله– في علوم الشريعة (علوم

(١) علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية ٥٨/١٠، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، القاهرة، الطبعة الأولى١٣٠٥هـ/١٨٨٨م.

(٢) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ابن عم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يلتقي معه في عبد مناف. ولد بغزة، ثم حمل إلى مكة وهو ابن سنتين، وتفقه فيها على مسلم بن خالد الزنجي، ثم قدم المدينة، فلزم الإمام مالكا – رضي الله عنه– وقرأ عليه الموطأ حفظا، فأعجبه وقال له: اتق الله، فإنه سيكون لك شأن، ثم رحل إلى اليمن؛ حين تولى عمه القضاء، ثم رحل إلى العراق، وناظر محمد بن الحسن، ونصر السنة. ثم خرج إلى مصر آخر سنة تسع وتسعين ومائة، وأقام بها أربع سنين ونيفا، وصنف كتبه الجديدة بها، ثم توفي بمصر ليلة الجمعة بعد المغرب سنة ٢٠٤هـ، عن عمر يناهز ٥٤ عاما، ومن آثاره: الرسالة في علم أصول الفقه. مختصرا، ينظر: عماد الدين اسماعيل بن كثير: طبقات الفقهاء الشافعيين ٤٨/١٢–٤٨، تحقيق: د. أحمد عمر هاشم، د. محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة١٤١٣هـ/١٩٩٣م. وأيضا: عبد الوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى ٩٣/١–٩٧، تحقيق: د. أحمد عبد الرحيم السايح، المستشار. توفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٣) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ٦٩٢/٢، معجم المطبوعات العربية والمعربة ١٦٩٨/٢.

الظاهر)، فقد تقلد مذهب الإمام أبي الحسن الشاذلي[١] في علوم الحقيقة (علوم الباطن).

والذي يمكن أن أقوله: إن الشيخ – رحمه الله– كان موسوعي الثقافة، يشهد بذلك مُؤَلَّفُه من ناحية – وسيأتي الحديث عنه– ومن ناحية أخرى: فإن إمامته لمسجد الزاهد فرضت عليه أن يكون آخذا من كل فن بطرف؛ فالشأن في الإمام – في ذلك الوقت– أن يكون واسع الدراية. وأقول: إن دعوته إلى الله فوق أعواد المنابر، وإقراءه القرآن في حلقات المساجد، هيأ له من سعة المعرفة، وعمق الثقافة، وصدق التجربة والمشاهدة، وممارسة التعليم والتربية – ما جعله مبرزا في كثير من العلوم؛ تنظيرا وتطبيقا، تعليما وتدريسا.

وقد وصفه صاحب هداية القاري بقوله: " عالم كبير في التجويد والقراءات وغيرها، وله مؤلفات يرجع إليها، ويعول عليها، منها: " نهاية القول المفيد في علم التجويد"[٢].

أما أسرته: فلا نعرف عنها شيئا، ولا عن مركزها الثقافي والاجتماعي، وهل كان متزوجا وله أبناء أم لا؟

---

(١) علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن يوسف أبو الحسن الهذلي الشاذلي؛ نسبة إلى شاذلة – قرية من قرى إفريقية– نزيل الإسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية، صحب الشيخ نجم الدين الأصفهاني، وابن مشيش، وحج مرات، ومات بصحراء عيذاب؛ قاصدا الحج فدفن هناك في ذي القعدة ٦٥٦هـ ، وكان مولده ٥٩١هـ. ينظر: سراج الدين أبو حفص عمر بن علي، الشهير بـ (ابن الملقن): طبقات الأولياء ص٤٥٨،٤٥٩، تحقيق: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية١٤١٥هـ/١٩٩٤م. وأيضا: عبد الوهاب الشعراني: الطبقات الكبرى٢/٨-٢٦.

(٢) عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي: هداية القاري في تجويد كلام الباري ص٧٢٥، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

أما شيوخه: فلم تفصح المصادر – التي بين أيدينا– عن أسماء أحد منهم، فعلى يد من أخذ القراءة، وأجاد التلاوة، ونال الإجازة؟ وعلى يد من سلك الطريق، وأخذ التصوف؟ وكلها علوم تعتمد على التلقي والمشافهة، والأخذ والسماع.

أما مؤلفاته: فليس بين أيدينا ما يفيد عن وجود مؤلفات للشيخ – رحمه الله– سوى هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وإن صرح البعض – كصاحب الهداية– بأن له مؤلفات أخرى، لكن أحدا لم يسمِّ لنا شيئا من ذلك.

وفاته

لم تذكر لنا المصادر شيئا عن تاريخ ميلاده، سوى أنه كان من علماء القرن الرابع عشر الهجري، وأنه كان حيا ١٣٠٥هـ/١٨٨٨م. وهو العام الذي فرغ فيه من تبييض كتابه كما أخبر عن نفسه(١)، وكان ذلك – على وجه التحديد– في الرابع من شهر جمادي الأولى كما تذكر كتب التراجم(٢) . وليس هناك ما يدلنا على تاريخ ولادته دلالة أكيدة، فالمصادر قد أحجمت عن ذكرها.

(١) " وكان الفراغ من تبييضها يوم الثلاثاء المبارك؛ الرابع من شهر جمادى الأولى، سنة١٣٠٥هـ (خمس وثلثمائة بعد الألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف". نهاية القول المفيد ص٣٤٠.

(٢) فهرست الكتبخانة الخديوية١/١١٨، معجم المؤلفين٣/٧٣٣، معجم المطبوعات العربية والمعربة٢/١٦٩٨.

أما وفاته: فقد صرح صاحب فهرس الخزانة التيمورية أنه توفي عام (١٣١٦هـ)، وهو ما بين عامي: ١٩٩٨-١٩٩٩م. وقد وجدت في مقدمة بعض طبعات الكتاب[١] أنه توفي حوالي (عام١٣٢٢هـ/١٩٠٢).

آثاره العلمية، وصف الكتاب، ومصادره

أما آثاره: فلم تذكر لنا كتب التراجم من مصنفات الشيخ العلمية؛ سوى هذا الكتاب الذي عُقِدت عليه هذه الدراسة، وقد أثنى عليه سركيس: " نهاية القول المفيد في علم التجويد – وهو كتاب جامع من تحقيقات هذا الفن". ويظهر كذلك أن علماء عصره قد احتفوا بهذا الكتاب أيما احتفاء، وبالغوا في تقريظه والثناء عليه – كما ذكرت كتب التراجم في وصف الكتاب: " بأخره تقاريظ (وتقريظات) لبعض الفضلاء"[٢]. وقال صاحب هداية القاري: " وهو كتاب مشهور، أجاد فيه وأفاد، وانتفع به طلاب العلم قاطبة في أنحاء البلاد الإسلامية، وطبع كثيرا ..."[٣] .

أما وصف الكتاب: فقد ورد في فهرس الخزانة التيمورية أن الكتاب يقع في جزء أو مجلد، وكان فهرست الخديوية أكثر تفصيلا وتحديدا، حيث ورد فيه أن الكتاب مرتب على مقدمة، وثمانية أبواب، وخاتمة، وصحائفه٢٦٤.

(١) طبعة مكتبة الآداب ص٣، وهي الطبعة التي اعتمدنا عليها في بحثنا، طبعة دار الكتب العلمية ص٢، طبعة دار الصحابة للتراث. ولا أدري من أين وقفوا على هذا التاريخ.

(٢) فهرست الكتبخانة الخديوية١١٨/١، معجم المطبوعات العربية والمعربة١٦٩٨/٢.

(٣) هداية القاري في تجويد كلام الباري ص٧٢٥.

وقد ورد في بعض كتب التراجم[١] أن الكتاب مرتب على مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة، وهو أمر يجافي الصواب، حيث قال المؤلف نفسه: " ورتبتها على مقدمة، وثمانية أبواب، وخاتمة"[٢].

أما طبعات الكتاب: فقد نصت كتب التراجم على أن الكتاب طبع بمطبعة بولاق سنة١٣٠٨هـ، ما بين عامي (١٨٩٠/١٨٩١م)، ثم طبع مرة أخرى١٣٢٣هـ، ما بين عامي (١٩٠٥/١٩٠٦م).

ونظرا لقيمة الكتاب العلمية، ونفاسته عند أهل الفن، فقد تهافتت عليه المكتبات والمطابع، وأعيد طبعه في عصرنا الحديث ما يقرب من ثماني طبعات؛ مرتبة تاريخيا على النحو التالي:

١- طبعة مصطفى الحلبي بمصر، ربيع الثاني١٣٤٩هـ، راجع هذه النسخة وصححها على نسخة المؤلف الشيخ: علي محمد الضباع، تحت عنوان: " نهاية القول المفيد في علم التجويد". وتقع في (٢٥٩ صفحة)، وقد وقفت عليها.

٢- طبعة مكتبة الصفا بمصر، الطبعة الأولى١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، راجعها وقدم لها وعلق عليها: الشيخ طه عبد الرءوف سعد، تحت عنوان: " نهاية القول المفيد في علم التجويد". وتقع في (٣٣٦ صفحة)، وقد وقفت عليها.

---

(١) إيضاح المكنون٢/٦٩٢، معجم المطبوعات العربية والمعربة٢/١٦٩٨.

(٢) نهاية القول المفيد ص١٣، وقد لقب المؤلف – رحمه الله- الأبواب الثمانية، مبينا الفصول التي تتألف منها المقدمة، والفصول التي يتألف منها كل باب على حدة، والتتمة التي ختم بها المقدمة، وكل باب من أبواب كتابه. نهاية القول المفيد ص١٣-١٦.

٣- طبعة مؤسسة قرطبة بالقاهرة، الطبعة الأولى٢٠٠٥م، تحقيق: أبو عاصم الحسن بن عباس بن قطب، تحت عنوان: : " نهاية القول المفيد في علم التجويد". وتقع في (٥٢٣ صفحة)، وقد وقفت عليها.

٤- طبعة دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، تحقيق: جمال الدين محمد شرف، تحت عنوان: : " نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد". وتقع في (٣٧٦ صفحة)، وقد وقفت عليها.

٥- طبعة مكتبة الآداب بمصر، الطبعة الرابعة١٤٣٢هـ/٢٠١١م، دقق هذه الطبعة وضبطها: أحمد علي حسن، وراجعها على النسخة التي صححها على نسخة المؤلف، الشيخ علي محمد الضباع، تحت عنوان: " نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد". وتقع في (٣٤٤ صفحة)، وهي النسخة التي اعتمدت عليها في هذا البحث.

٦- طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، الطبعة الثانية١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، مراجعة وتحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، تحت عنوان: " نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد". وتقع في (٢٦٤صفحة)، وقد وقفت عليها.

٧- طبعة المكتبة التوفيقية بالقاهرة، الطبعة الثالثة٢٠١٤م، تحقيق: محمد هاشم عبد العزيز، تحت عنوان: : " نهاية القول المفيد في علم التجويد". وتقع في (٤٠٨ صفحة)، وقد وقفت عليها.

٨- وهناك طبعة ثامنة للكتاب، أصدرتها دار الكتب العلمية ببيروت، تحت عنوان: سلسلة الدراسات والرسائل الجامعية، تحقيق: د. أحمد خضير خالد الجبوري، الطبعة الأولى ٢٠١٨م، تحت عنوان: " نهاية القول المفيد فيما

يتعلق بتجويد القرآن المجيد "، وتقع في (٦٤٠) صفحة. ولم يتيسر لي – حتى كتابة هذه السطور – الاطلاع عليها.

أما تحرير عنوان الكتاب: فقد كفانا الشيخ – رحمه الله– المؤنة، حيث صرح في المقدمة؛ قائلا: " وسميتها: نهاية القول المفيد فيما يتعلق بتجويد القرآن المجيد"(١). ومن ثم؛ فإن في طبعات العصر الحديث تجوزا في تحرير العنوان، ما عدا الطبعة الثانية الصادرة عن دار الكتب العلمية، والتي لم أقف – للأسف– عليها.

ويبدو أن محققي تلك الطبعات ودور النشر التي أشرفت على إخراجها قد غيرت عنوان الكتاب، لترويجه ونشره بين الباحثين، إغراء لهم باقتنائه.

أما مصادر الكتاب: فقد ذكر الجريسي المصادر التي اعتمد عليها في كتابه، قال: " وشرعت في ذلك مستمدا من أربعة وعشرين كتابا من الكتب المشهورة المرضية ..."(٢) . وهذه الكتب تبلغ عدتها – عند التحقيق– ما يربو على أربعة وعشرين مؤلفا – كما ظهر لي– وقد أحصاها وعدَّدها الأستاذ أحمد علي حسن – مصحح نسخة مكتبة الآداب– فكانت سبعة وعشرين(٣). ولا ضير في ذلك، فقد قال الشيخ – رحمه الله– بعد أن عدد المؤلفات التي اعتمد عليها: " وغير ذلك من كتب الأئمة المعول عليها في هذا الشأن"(٤). وعادة العلماء أن يحصوا في مؤلفاتهم أهم مصادرهم، وأكثر ما عتمدوا عليه.

---

(١) نهاية القول المفيد ص١٦.

(٢) نهاية القول المفيد، مقدمة المؤلف ص١٢،١٣.

(٣) مقدمة المصحح ص٦–٩.

(٤) نهاية القول المفيد ص١٣.

ونظرة فاحصة إلى هذه الكتب؛ تبين قيمة هذا المؤلف ونفاسته في ميدانه، فكلها من عيون أمهات هذا الفن، ومما زاد الكتاب قيمة أن مؤلفه كان على صلة بالحياة الواقعية، وأن ما قرره فيه من ملاحظات وتحذيرات وتنبيهات؛ كانت ثمرة طبيعية لخبرته العلمية، وتجربته العملية، وممارسته لفن الإقراء والآداء الذي قضى فيه معظم حياته، فلقد كان مجودا كما ذكر أصحاب التراجم.

وقد أشار الشيخ – رحمه الله– إلى ذلك؛ حين قال: " سألني كثير من الإخوان المشتغلين بتلاوة القرآن – أصلح الله لي ولهم الحال والشان– أن أجمع رسالة في علم التجويد ... فامتنعت عن ذلك ؛ لعلمي أني لست أهلا لما هنالك، فتكرر منهم السؤال عليَّ المرة بعد المرة، وذلك لحسن ظنهم بي، واعتقادهم أن لي بذلك خبرة"(١).

وعلى هذا: فإن كتاب " نهاية القول المفيد" يقدم مثالا للدرس الصوتي العربي الأصيل، وسوف يكون هذا الكتاب مفيدا ونافعا لكل من المشتغلين بعلم التجويد ودارسي الأصوات العربية، فالمشتغلون بعلم التجويد؛ يجدون فيه ما يشفي غلتهم في تيسير تعليم النطق العربي الفصيح، والباحثون في أصوات العربية يجدون فيه مباحث دقيقة وعميقة في دراسة الأصوات وتنميطها.

(١) نهاية القول المفيد ص١٢.

المطلب الثاني

علم التجويد وعلم الأصوات – الطبيعة، والعلاقة، والمنهج-

فهناك علاقة جدلية لا انفكاك لها بين علم التجويد وعلم الصوتيات ، ذلك أن العناصر الأساسية الثلاثة التي تمثل الميدان الفعلي لعلماء التجويد، وهي: أولا: دراسة مخارج الحروف. ثانيا: معرفة صفاتها. ثالثا: معرفة ما يتجدد لها بسبب التركيب من الأحكام – هي ما نسميه – اليوم- علم الأصوات اللغوية.

وهذا التشابه في المحتوى والمضمون[١] ؛ يؤكد أن الصلة وشيجة، والعلاقة وثيقة بين علمي التجويد والأصوات. وبتعبير أكثر دقة: يبين مقدار اعتماد كل من المختصين بهذين الفنين على جهود الآخر ومعطياته، والاستئناس بنتائجه ومخرجاته، وأن أحدهما لا ينفك عن الآخر بحال من الأحوال.

ويمكننا أن نقول:" إن العلاقة بين العلمين هي علاقة العموم والخصوص، فمجالهما واحد، بيد أن علم الصوتيات يتصف بالعمومية؛ لأنه يعنى بالجانب الصوتي للغة، ويهدف إلى تقنينها، وتقعيد الأداء السليم لهما، بينما

(١) ونظرة فاحصة إلى أوائل الكتب التي ألفت في العلمين بمفهوم التحرير العلمي الدقيق، مثل: سر صناعة الإعراب لابن جني(٣٩٢هـ) والذي يعد – بحق- أول كتاب ألف في علم الأصوات العام، ورعاية مكي (٤٣٧هـ) والذي يعد – بحق- أول كتاب ألف في علم التجويد أو علم الأصوات القرآني- كما يحلو لبعض الباحثين أن يسميه- أو تحديد الداني (٤٤٤هـ) في التجويد، توضح مدى الاتفاق بين الكتب الثلاثة في الموضوعات ومنهج ترتيبها، مما يحتاج – من وجهة نظري- إلى بحث علمي مقارن؛ أملا في استجلاء الصورة، ووصولا إلى دقائق أوجه الاتفاق والافتراق، وملامح التشابه والتمايز بين العلمين، وساعتئذ يمكن للبحث العلمي أن يجيب على كثير من التساؤلات، التي باتت الإجابة عنها ضرورة وفريضة على أهل العلم؛ قياما بحق العلم وواجب الوقت.

يتصف علم التجويد بالخصوصية؛ لأنه يعنى بالجانب الصوتي لكتاب الله، ويهدف إلى تقنين وتقعيد الأداء السليم للتلاوة القرآنية"[١] .

وقد خلص بعض الباحثين إلى حقيقة مفادها: ريادة علم الأداء القرآني للدراسات الصوتية، ووقوعها منها موقع القمة؛ بعد أن بين – متسما بالمعيارية، ومتشحا بالموضوعية– العروة الوثقى بين هذا العلم وفروع علم الصوتيات قاطبة، وأنهما خرجا من مشكاة واحدة، وأوثر أن أنقل النص – على طوله– كي تتضح الصورة في ذهن القارئ.

يقول: " ومما يؤكد قوة العلاقة بين علم الأداء القرآني وساحة الدراسة الصوتية، احتواء مباحثه على شتى فروع علم الأصوات ... إذ يمت إلى علم الأصوات النطقي بصلة؛ حينما يدرس قضية مخارج الحروف وصفاتها، ويتصل بعلم الأصوات الفيزيائي؛ حينما يدرس قضية المد ودواعيه وأنماطه المتنوعة، ناهيك عن بعض الصفات الخاصة بالحروف؛ كالجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والحركة والحرف ...إلخ، وهو في دراسته للصوت حالة إفراده بعيدا عن السياق، لا يخرج عن الأطر العامة والملامح المنهجية لعلم الصوات الفوناتيكي، وحالة دراسته للصوت في بنيته لا يكون بمبعد عن علم الأصوات الفونولوجي، وحينما يعتمد على وصف الظاهرة وتحليلها؛ مبينا دواعيها وثمرتها الأدائية، يندرج تحت ما يسمى بعلم الأصوات الوصفي، أما حالة استدلاله على الظاهرة المدروسة في ضوء التطبيق العملي على

(١) د. أبو السعود الفخراني: التجويد القرآني في ضوء علم الصوتيات الحديث ص٥٥، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم٢٣٣٩/أصول لغة، لعام١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

النماذج المتنوعة من رحاب النص القرآني، فهو وثيق الصلة بعلم الأصوات التطبيقي"[١] .

وهذا يعني: أن علم التجويد من علم الصوتيات القلب النابض ، والمدد الذي لا يجف، والمعين الذي لا ينضب، بل لست مبالغا إن قلت: إنه له كالهواء والماء.

ولو رمت أمارة على ذلك:" فدراسة الأصوات العربية كان يتقاسمها علماء العربية وعلماء التجويد، وكان كل فريق يأخذ من الآخر، والفرق بينهما: أن علماء العربية لم يخصصوا للموضوع كتبا مستقلة، وكانت دراستهم الصوتية مرتبطة بقضايا صرفية. أما علماء التجويد فقد جعلوا دراستهم مستقلة في كتب خاصة، كما أنها كانت عندهم على نحو أشمل استغرق جميع المباحث المتعلقة بعلم الأصوات النطقي..."[٢] .

وقد ثمن المحدثون جهود علماء هذا الفن في دراسة صوتيات العربية، فقال أحدهم وهو يتحدث عن جهود اللغويين العرب في دراسة الأصوات: " وأسهم علماء التجويد والقراءات القرآنية بقدر لا يجحد في هذا الميدان"[٣] . وهو ما عبر عنه آخر بقوله: " ولأهل القراءات والتجويد حظ وافر في دراسة الأصوات العربية، وأصنافها وأحكامها؛ من حيث: الإدغام، والإظهار،

(١) علم الأداء القراني – أهميته وموقعه في ميدان الدراسات الفونولوجية، نظرة تطبيقية ص٦٠٤،٦٠٥.

(٢) ينظر: د. غانم قدوري الحمد: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٧٧، وأيضا ص٥٧، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

(٣) د. أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب – مع دراسة لقضية التأثير والتأثر– ص٩٥، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة السادسة١٩٨٨م.

والإخفاء، والوقف، والابتداء، والمد اللفظي، والمد المنفصل، والمد الساكن العارض، وأحكام الهمز والتسهيل، والروم، والإشمام، وترقيق الأصوات وتغليظها. وإذا كان علم الأصوات – في بدايته– جزءا من أجزاء النحو، فإنه سرعان ما انزوى عند أهل القراءات والتجويد، وزاد فيه هؤلاء الكثير من المباحث مستوحاة من الكتاب العزيز "[١] .

وقال ثالث: " وقد كان علماء القراءات (ولا يخفى أن علم القراءات أول العلوم وأكثرها ارتباطا بعلم التجويد، فعلم التجويد هو تمثيل للجانب الأدائي لعلم القراءات القرآنية) من أكثر القوم حرصا على تناول المباحث الصوتية في مؤلفاتهم ، بل أضافوا إليها كثيرا من التفصيلات، وسجلوا في ضوء ذلك كثيرا من الخصائص الأدائية"[٢] .

ولم تكن تلك الحقيقة بغائبة عن أذهان غير العرب والمسلمين من المستشرقين المنصفين، الذين أفنوا حياتهم بحثا وتحقيقا، ودرسا وتنقيبا في أمهات تراثنا الحضاري التليد، أشار إلى ذلك المستشرق الألماني برجشتراسر (G.Bergstrasser)[٣] بقوله: " وقد كان علم الأصوات في بدايته جزءا

(١) د. خليل إبراهيم العطية: في البحث الصوتي عند العرب ص٤،٥، منشورات دار الجاحظ، العراق١٩٨٣م.

(٢)علم الأداء القرانـي – أهميتـه وموقعـه فـي ميـدان الدراسـات الفونولوجيـة، نظـرة تطبيقيـة ص٦٠٤.

(٣) جوتهليف برجشتراسر، ولد في ١٨٨٦/٤/٥م بألمانيا، تعلم في ليبزج الفلسفة وعلم اللغة، والفيلولوجيا اليونانية واللاتينية، ثم درس اللغات السامية بعامة، والعبرية بخاصة، وكان أستاذه فيها المستشرق الكبير أوجست فيشر، وعمل أستاذا في جامعات برلين وميونخ وهيدلبرج بألمانيا، واستقدمته الجامعة المصرية في١٩٢٩–١٩٣١م؛ لإلقاء محاضرات في فقه اللغة، والنحو المقارن بين اللغات السامية. ومن آثاره العلمية: حُنين بن إسحاق ومدرسته، المدخل إلى اللغات السامية، حكايات باللغة الآرامية الحديثة ونصوص أخرى من لهجة معلولا". وفي

من أجزاء النحو، ثم استعاره أهل الأداء والمقرئون، وزادوا فيه تفصيلات كثيرة؛ مأخوذة من القرآن الكريم"[١] .

ولعل أنفس تلك الزيادات، وأعظم تلك الإسهامات قيمة – من وجهة نظري– أنهم لم يقفوا في أفكارهم الصوتية عند حد التحريرات المعيارية الدقيقة والتقريرات النظرية العميقة – ولو فعلوا لكان ما سجلوه فخرا يكفيهم– وإنما قدموها مشفوعة بتطبيقات عملية وتنبيهات فعلية، لا تقل في جودتها ودقتها عن سابقتها.

ولا يمتري منصف في أن نجاح العملية العلمية التعليمية يتوقف على مدى تعانق الجانب النظري البحت، بالجانب العملي المحض. كما أن النتيجة المرجوة من هذا العلم – جودة الأداء وسلامة اللسان من اللحن في أصوات القرآن– لن تكون إلا في ضوء التطبيق الواقعي لضوابطه ومعطياته.

ومن ثم، فإنه يمكننا أن نقول: إن علم التجويد قد قدم للدراسات الصوتية خدمة جُلَّى ويدا عُظمى لا تنسى، وكيف لا؟! وهي حصاد إشراقاته وإشاراته، ونتاج إلماحاته وتنبيهاته، وثمار تقريراته وتحريراته؛ فهو أثر رائع من آثار العقل الإسلامي، بما له من دقة في الملاحظة، ومن نشاط في

==

القراءات: قراءة الحسن البصري، قراءة القرآن في القاهرة، كما نشر كتاب ابن خالويه في القراءات الشاذة، وكتاب ابن الجزري طبقات القراء، وتوفي في ١٩٣٣/٨/١٦م. المستشرقون ٢/٧٤٧،٧٤٨، موسوعة المستشرقين ص٨٥–٨٧، رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص٥٠،٥١، ترجمة: مصطفى ماهر، من إصدارات المركز القومي للترجمة، القاهرة، سلسلة ميراث الترجمة، العدد١٧٨٤ لعام٢٠١١م.

(١) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية ص١١، أخرجه وصححه وعلق عليه: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

جمع ما تفرق، وهو أثر عظيم يرغم الناظر فيه على تقديره، ويحق للمسلمين أن يفخروا به.

وقد ألمح الشيخ – رحمه الله– إلى هذا الترابط القوي بين التجويد والأصوات، وهو يقدم تعريفا لهذا العلم في ضوء وظيفته بأنه: " إعطاء كل حرف حقه؛ أي من كل صفة ثابتة له من الصفات الآتية، ومستحَقَّه – بفتح الحاء– أي ما ينشأ عن تلك الصفات، كترقيق المستفل، وتفخيم المستعلي، ونحوهما، مع بلوغ الغاية والنهاية في إتقان الحروف وتحسينها، وخلوها من الزيادة والنقص، وبراءتها من الرداة في النطق، والإدمان في تحرير مخارجها وبيان صفاتها، بحيث يصير ذلك للقارئ سجية وطبيعة، سواء كانت تلك الحروف أصلية أو فرعية، مركبة أو مفردة"(١).

وتأسيسا على هذا: فإنه يمكن أن نقول: إن التجويد والأصوات وجهان لعملة واحدة، أحدهما: نظري معياري، والثاني: عملي تطبيقي. وبيان ذلك: أن قارئ القرآن الكريم يتوجب عليه البحث في أصوات العربية، والتعمق في كل ما دار بشأنها من مباحث وأفكار، موقنا بأن الإحاطة بكل هذا مما لا يمكن الاستغناء عنه، ثم لا يقف به الحال عند حد المعرفة النظرية العميقة، حتى يردف ذلك بالتدريب والتطبيق الدقيق، بحيث يصير الإتقان والتجويد له سليقة وطبيعة لا يمكن أن تخونه أو تنفك عنه، وحينئذ – وحينئذ فقط– يمكن أن يبلغ الغاية في التحسين، ويصل إلى النهاية في التصحيح.

ومن هذا المنطلق؛ اكتنزت نهاية مكي بالتحليلات الفوناتيكية، ورأينا كما موفورا من الفصول التي تعالج معطيات حقوق الحروف ومستحقاتها؛ وما

(١) نهاية القول المفيد ص٢٢،٢٣.

يلزم ذلك من تحليل لمخارج الأصوات: فسيولوجيا وإدراكيا وأدائيا، وكذلك صفات الحروف مع التفريق بينها، وتنميطها إلى قوية وضعيفة، وتوزيعها على موصوفاتها، ودراسة الحرف في ضوء ذلك دراسة تحليلية – وسنبسط القول في ذلك، كل في موضعه– ولم تكن طبيعة البحث أو التحليل في هذا المضمار مختصرة أو موجزة، إنما كثرت التعليلات والتحليلات، والتفسيرات والتفصيلات. كما كان شديد الحرص على التذكير بالعيوب، والتحذير من الأخطاء، والدعوة إلى معالجة ما يقع من ذلك عن ظريق التدريب والتمرين.

ولعل من المناسب أن نختم حديثنا في هذا المطلب؛ بإلقاء الضوء على المناهج التي استخدمها أهل كل فن في الوصول إلى غايته، والتي ستكشف لنا – بطبيعة الحال– الاتصال الوثيق بين العلمين. حيث اعتمد كل من الفريقين على المنهج التزامني (الوصفي) (Descriptive or synchronic) في دراسة الحقيقة الصوتية بأبعادها الثلاثة – فسيولوجيا– إدراكيا– فيزيائيا– مع ملاحظة أن علماء التجويد قد خلت أبحاثهم الصوتية من الملاحظات الفيزيائية إلا ما ندر[١].

كما اعتمدوا – أيضا– على المنهج المقارن (Comparative)، لكن علماء التجويد اقتصرت مقارناتهم، ليظهروا الأصوات التي انفرد باستعمالها العرب والقرآن، أو استعملها بكثرة[٢]. أما الأصواتيون فقد وسعوا مجالات ومستويات المقارنة بين العربية وغيرها من لغات الفصيلة السامية (Semitic Family Language).

(١) من ذلك إشارة مكي إلى التموجات التي تحدث للصوت في الوسط الناقل. نهاية القول المفيد ص٤٤.

(٢) من ذلك إشارة مكي إلى أن عدد الحروف الأصلية تسعة وعشرون، ولم يكمل عددها إلا في لغة العرب؛ إذ لا همزة في لغة العجم إلا في الابتداء، ولا ضاد إلا في العربية. نهاية القول المفيد ص٤٤.

ثم ألقت النهضة العلمية في مطلع القرن المنصرم بظلالها على الصوتيات، فأحرزت تقدما هائلا في المنهجية، معتمدة على وسائل وأدوات التمكين الصوتي من معامل ومختبرات، وظهر من ثمار ذلك المنهج التجريبي أو الآلي أو المعملي أو (Experimental or Laboratory–).

كما أحرز – أيضا– طفرة واضحة على مستوى المناهج النظرية، حين اعتمد على المنهج التاريخي (Diachronic)؛ بمعاونة الوصفي والمقارن، وكل ذلك مما لم نلمح له آثارا واضحة عند علماء الأداء القرآني، وإنما اعتمدوا أكثر ما اعتمدوا على المنهج الوصفي، ووجدوا فيه خير معين للوصول إلى مبتغاهم، ونهاية مكي أصدق دليل على ذلك.

ويبقى للمنهج التجويدي خصوصية لم نر لها أثرا عند علماء الصوتيات، وهي فكرة التلقي والمشافهة، والممارسة والدربة والتكرار، أو بعبارة أخرى: الجمع بين المنحى المعياري، والمنحى التطبيقي، أو بين التوصيف أو التقعيد النظري، والتنفيذ الفعلي أو العملي التعليمي.

وبناء على هذه المعطيات؛ وفي ضوء هذه الحقائق أقول: إن كلا من العلمين – التجويد والأصوات– في حاجة ماسة إلى التعاون والانفتاح على بعضهما، في إطار من التكامل الهادف والشراكة المثمرة؛ لأن المسائل والقضايا واحدة، والوسائل والمناهج متشابهة إلى حد ما، والفجوة بين العلمين مفتعلة وزائفة، وناتجة من جهل كل فريق بما عند الآخر، فإن كانوا مما لا دراية لهم بكتب التجويد والتراث، استبد بهم العجز، ولم يتمكنوا من فك رموز الدرس الصوتي عند علماء التجويد، وإن كانوا من أهل التجويد خلدوا إلى الراحة، ولم يجشموا أنفسهم عناء مواكبة الدرس الصوتي الحديث بمعامله ومختبراته.

المطلب الثالث

الدافع إلى دراسة الأصوات اللغوية عند محمد مكي نصر

ارتبطت المباحث الصوتية عند الشيخ – رحمه الله – بالقرآن الكريم تلاوة وآداء، وكان الباعث الأصيل إلى معالجة تلك القضايا الصوتية – هو صيانة القرآن الكريم من الخطأ، وحفظه من اللحن.

وقد شغلت ظاهرة اللحن في قراءة كتاب الله اهتمام الشيخ – رحمه الله– فذكر تعريفه، وفصل أقسامه؛ معرفا كل قسم، ومفصلا أنواعه، قال: " ... ثم إن اللحن يأتي في لغة العرب على معان، والمراد به ها هنا الخطأ والميل عن الصواب، وهو نوعان: جلي، وخفي ... فأما الجلي: فهو خطأ يطرأ على الألفاظ فيخل بالعُرف – أعني عرف القراءة – سواء أخل بالمعنى أم لم يخل، وهو يكون في المبنى أو الحركة أو السكون، والمراد من المبنى: حروف الكلمة (أي: أصواتها)، ومن الخطأ فيه: تبديل حرف بآخر، كتبديل الطاء دالا بترك إطباقها واستعلائها، أو تاء بتركهما، أو بإعطائهما همسا. والمراد من الحركة: ما يعم حركة الأول والوسط والآخر. والمراد من السكون: ما يعم سكون الوسط والآخر... وأما اللحن الخفي: فهو خطأ يطرأ على اللفظ فيخل بالعرف ولا يخل بالمعنى، وهو يكون في صفات الحروف ... ثم اعلم أن اللحن الخفي ينقسم إلى قسمين: أحدهما لا يعرفه إلا علماء القراءة: كترك الإخفاء والقلب والإظهار والإدغام والغنة، وكترقيق المفخم وعكسه، ومد المقصور، وقصر الممدود ... والثاني لا يعرفه إلا مهرة القرَّاء: كتكرير الراءات، وتطنين النونات، وتغليظ اللامات ..."[١] .

(١) نهاية القول المفيد ص٣٥-٣٧ بتصرف في النقل.

وهكذا كانت فكرة اللحن – جليا كان أم خفيا– شاخصة في وعيه وهو يخط بقلمه، وماثلة في عقله وهو يرتب أفكاره ومادة كتابه، ومن ثَمَّ رأيناه يعالج مباحث أصوات فصحانا – مفردة أم مركبة – لتكون رِدْءا وحصنا لقارئ الذكر الحكيم.

وقد صرح الشيخ – رحمه الله– بمراده أكثر من مرَّة؛ حين قال معقبا على نص صاحب النشر: " ولا شك أن الأمة كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده، كذلك هم متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية التي لا يجوز مخالفتها ولا العدول إلى غيرها"(١) .

قال الشيخ – رحمه الله– معلقا على هذا النص: " فيجب على القارئ مراعاة ما أجمع عليه القراء من إخراج الحروف من مخارجها، وتوفية صفاتها؛ من ترقيق المرقق، وتفخيم المفخم، وإدغام المدغم، وإظهار المظهر، وإخفاء المخفى، ومد الممدود، وقصر المقصور، وغير ذلك مما هو لازم في كلامهم"(٢) .

ثم نراه مرة أخرى يعد معرفة اللحن شرطا رئيسا لا بد أن يتوافر في قارئ آيات الذكر الحكيم؛ ليكون متقنا ماهرا. قال – رحمه الله–: " ... فينبغي

(١) أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي: النشر في القراءات العشر ١٦٧/١، تقديم: الشيخ علي محمد الضباع، تخريج: الشيخ زكريا عميرات، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٠.

للقارئ أن يعرف اللحن ليجتنبه، وهذا كمعرفة نحو السحر ليُجتنب. وقد أشار إلى ذلك الخاقاني[١] بقوله:

فأوَّلُ عِلمِ الذِّكرِ إتقانُ حِفظِه ... ومَعرفَةٌ باللَّحنِ مِن فِيكَ إذ يجري

فكُن عارفًا باللَّحنِ كَيما تُزيلَه ... وَما لِلّذي لا يَعرِفُ اللَّحنَ مِن عُذرِ[٢]

---

(١) موسى بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان أبو مزاحم الخاقاني البغدادي، إمام مقرئ، مجود محدث، أخذ القراءة عن الحسن بن عبد الوهاب، ومحمد بن الفرج. قال الداني: كان إماما في قراءة الكسائي ضابطا لها مضطلعا بها، قرأ عليه غير واحد من الحذاق. ترك أبو مزاحم الدنيا، وأعمل نفسه في رواية الحديث، وأقرأ الناس، وتمسك بالسنة، وكان بصيرا بالعربية شاعرا مجودا. قلت (ابن الجزري): هو أول من صنف في التجويد – فيما أعلم– وقصيدته الرائية مشهورة، وشرحها الحافظ أبو عمرو (يقصد الداني). وقد ولد في ٢٤٨هـ /٨٦٢م، ومات في الحجة سنة ٣٢٥هـ/٩٣٧م" مختصرا: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار٢/٥٥٤، تحقيق: د. طيار آلتي قولاج، استانبول١٤١٦هـ/١٩٩٥م. وأيضا: ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء٢/٢٧٩، ٢٨٠، عني بنشره: برجشتراسر١٩٣٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، وأيضا: د. فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي١/٤٤، ترجمة: د. محمود فهمي حجازي، مراجعة: د.عرفة مصطفى، د. سعيد عبد الرحيم، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية١٤٤١هـ/١٩٩١م، وأيضا: خير الدين الزركلي: الأعلام٧/٣٢٤، ٣٢٥، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر٢٠٠٢م.

(٢) البيتان من قصيدته الرائية المشهورة، وهي أول ما ألف في علم التجويد، وتتألف من واحد وخمسين بيتا، ونظمت في بحر الطويل، وبادئتها:

أَقولُ مَقالًا مُعجِبًا لأُولي الحِجرِ ... وَلا فَخرَ إنَّ الفَخرَ يَدعُو إلَى الكِبرِ

وخاتمتها: أَجابَكَ فينا رَبُّنا وأَجابنا ... أخي فِيكَ بالغُفرانِ منه وبالنَّصرِ.

تاريخ التراث العربي١/٤٥، وقد أقام الدكتور غانم قدوري الحمد دراسة قيمة حول تلك القصيدة في كتابه النفيس: أبحاث في علم التجويد ص١٧–٤٧، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

فإذا تحلى القارئ بهذين الوصفين، وبرئ من اللحنين (وهو يقصد اللحن الجلي والخفي بنَوعَيْه)، عُدَّ من أولي الإتقان، ونُظِم في سلك أهل القرآن"[١].

ومعرفة اللحن وأماراته تستلزم – بالضرورة– دراية عميقة ومعرفة دقيقة بعلوم اللغة بعامة، وعلم الأصوات بخاصة[٢]، " فاللحن الخفي استعمل للدلالة على نوع محدد من الأخطاء اللغوية، وهو المتعلق بنطق الأصوات، والانحراف الدقيق عن توفية الأصوات صفاتها الصوتية كاملة في عملية النطق"[٣].

ولست مبالغا إذا قلت: إن فكرة عناية علماء التجويد بمباحث الأصوات العربية، ومحاولتهم الجادة والدؤوب في تقنين النظم الأدائية للغتنا العربية – قد ارتبط منذ نشأة علم التجويد بظاهرة اللحن الخفي – الذي هو انحراف ناتج عن تطور الأصوات بشكل لا تقره قواعد اللغة– ويؤكد هذا الافتراض العلمي أمران: الأول: أن أقدم نص ورد فيه مصطلح التجويد بمعنى يقرب من معناها الاصطلاحي؛ جاء في سياق حديث ابن مجاهد[٤]عن أنواع

---

(١) نهاية القول المفيد ص٣٥.

(٢) اللحن الجلي في الحركات والسكنات (لحن الإعراب)، وهو ميدان عمل النحاة والصرفيين، أما اللحن الخفي فهو ما يطرأ على الأصوات من جراء عدم توفيتها حقوقها في المخارج أو الصفات، أو ما يعرض لها من الأحكام عند تجاورها مع غيرها في السياق، هو ميدان علم التجويد؛ الذي هو علم صوتي في أصوله وفروعه ومقرراته. يراجع: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٤٧،٤٨.

(٣) أبحاث في علم التجويد ص١٧٢.

(٤) أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد، ولد سنة٢٤٥هـ ببغداد، وسمع الحديث من سعدان بن نصر، وقرأ القرآن على أبي الزعراء بن عبدوس، وتلا على قنبل بمكة، وشهد له الشيوخ بالعلم والفضل، حتى قال الداني: " فاق ابن مجاهد في عصره سائر نظرائه من أهل صناعته، مع اتساع علمه، وبراعة فهمه، وصدق لهجته، وظهور نسكه". ومن آثاره العلمية: ==

اللحن، وقد نقله أبو عمرو الداني[١] تحت عنوان: " باب ذكر الحروف التي يلزم استعمال تجويدها وتعمُّل بيانها وتلخيصها؛ لتنفصل بذلك من مشبهها على مخارجها"، قال: " حدثني الحسين بن شاكر السمسار، قال: حدثنا أحمد بن نصر، قال: سمعت ابن مجاهد يقول: اللحن في القرآن لحنان: جلي وخفي، فالجلي: لحن الإعراب، والخفي: ترك إعطاء الحرف حقه من تجويد لفظه"[٢].

الثاني: أن أقدم كتاب مستقل ظهر في علم التجويد بعد القصيدة الخاقانية، حمل عنوان: " التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي"[٣]، وقد ألفه أبو الحسن علي بن جعفر بن محمد الرازي السعيدي[٤]. " وعنوان الكتاب ينبئ

==

كتاب القراءات الكبير، وكتاب القراءات الصغير، وكتاب الياءات، وكتاب في مفردات السبعة ...إلخ، وكانت وفاته يوم٢٤من شعبان، لسنة٣٢٤هـ. معرفة القراء الكبار على الطبقات٢/٥٣٣-٥٣٨، غاية النهاية١/١٢٨-١٣٠.

(١) أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر القرطبي الداني، ولد بقرطبة٣٧١هـ ، درس الداني على شيوخ قرطبة الأكابر، كأبي بكر التجيبي، وأبي عثمان القزاز، وشهد له الشيوخ بالعلم والفضل، حتى قال ابن الجرزي: " ومن نظر إلى كتبه علم مقدار الرجل، وما وهبه الله تعالى". ومن آثاره العلمية: المحكم في نقط المصاحف، التحديد في الإتقان والتجويد، المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، التيسير في القراءات السبع ...إلخ، وكانت وفاته بدانية يوم الإثنين، من منتصف شوال، لسنة٤٤٤هـ، عن عمر يناهز ٧٢سنة. معرفة القراء الكبار٢/٧٧٣-٧٨١، غاية النهاية١/٤٤٧-٤٤٩.

(٢) أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني: التحديد في الإتقان والتجويد ص١١٦، دراسة وتحقيق: د. غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى١٤٢١هـ،٢٠٠٠م.

(٣) الكتاب منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد السادس والثلاثون، الجزء الثاني، لعام١٩٨٥م، دراسة وتحقيق: د. غانم قدوري الحمد، وقد قاربت صفحاته (٤٨) ثمانية وأربعين صفحة، بدأت من: ٢٤٠ إلى٢٨٧.

(٤) علي بن جعفر بن سعيد أبو الحسن السعيدي الرازي الحذاء، نزيل شيراز، أستاذ معروف، ==

عن موضوعه، فهو يعالج موضوعا دقيقا يتعلق بنطق الأصوات العربية، ويكشف عن الانحرافات النطقية الخفية – أيا كان مصدرها– التي يمكن أن يقع فيها المتكلم، لاسيما قارئ القرآن الكريم، حيث يتطلب الأمر عناية خاصة بأداء الأصوات"[١]. والكتاب على هذا النحو يقدم مادة قيمة لا غنى عنها لدراسي أصوات العربية.

والذي أود أن أؤكد عليه: أن نظرة الشيخ – رحمه الله– الواسعة والعميقة – معا – لقضية اللحن، وسمت معالجته لقضايا الصوت في لغتنا الغراء بالشمولية والدقة والعمق " فعلم التجويد يلتقي – بصورة علمية ومنهجية دقيقة – مع علم الصوتيات، فإذا كان هذا الأخير يهدف إلى تقنين الأداء اللغوي، وفي سبيل هذا الهدف يدرس الأصوات اللغوية، من حيث: عددها، ومن حيث مخارجها، ومن حيث صفاتها الجوهرية أو الأساسية، ومن حيث الظواهر الصوتية، والصفات الناجمة عن انخراط الأصوات اللغوية في السياقات المتنوعة مما يسمى (الجوار الصوتي) – إذا كان علم الصوتيات يدور حول ذلك– فإن علم التجويد يهدف هو الآخر إلى تقنين الأداء القرآني (أو التلاوة) الذي يتمثل في القراءة المثل التي ورثت عن رسول الله –

==

قرأ على: أبي بكر النقاش، وأحمد بن نصر الشذائي، وغيرهم، قرأ عليه: محمد بن علي النوشجاني، ونصر بن عبد العزيز الشيرازي في سنة٤٠٢هـ، وله مصنف في القراءات الثمان وقفت عليه، وجزءا في التجويد رويناه (ولعله الكتاب الموسوم بالتنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي). قال الذهبي: مات بعد الأربعمائة، وقال ابن الجزري: لا أدري متى مات، إلا انه بقي إلى حدود العشر وأربعمائة. معرفة القراء الكبار٢/٥٩٩،٦٠٠، غاية النهاية١/٤٦٨.

(١) من مقدمة المحقق ص٢٤٤.

صلى الله عليه وسلم- وفي سبيل هذه الغاية الكبرى والهدف النبيل، يدرس الأصوات بالنظرة الشمولية المذكورة"[١].

وكأني بالشيخ – رحمه الله إذ فعل ذلك، يعيد للدرس الصوتي رونقه، ويربطه مرة أخرى بالهدف الأسمى الذي من أجله نشأ، ومن أجله يجب أن يستمر كغيره من علوم الإسلام الأخرى، ذلك أن الدرس الصوتي قد بدأ – في تصوري- يوم نزل قوله – سبحانه وتعالى-: " اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ " (العلق١-٥)[٢] .

ويمكن أن أقول: إن جهود الشيخ – رحمه الله- وغيره من علماء الأداء القرآني- في دراسة أصوات العربية، كانت عبادة ربانية، واستجابة لأوامر إلهية، من مثل قوله: " وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا "(المزمل٤)، وقوله تعالى: " لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ " (القيامة١٦). وهل الترتيل إلا تجويد الحروف ومعرفة الوقوف؟! وبهذا الامتثال العملي الجيد للأمر الرباني، والابتعاد أو التجنب الفعلي للتحذير السماوي – يصل القارئ إلى ملامح الاكتمال ومعالم الاستواء للأداء القرآني (Quranic Intonation)[٣] .

---

(١) د. عبد العزيز علام: عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ص٢٧، الطبعة الأولى، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) د. عبد الله ربيع: أصوات العربية والقرآن الكريم: منهج دراستها وتعليمها عند مكي بن أبي طالب المتوفى سنة٤٣٧هـ ص٢٣٠، بتصرف يسير، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالرياض، العدد العاشر، عام١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(3) Semaan, Khalil: Tajwīd as a Source in Phonetic Research, PP.113, Wiener Zeitschrift, Vol. 58 (1962), Vienna .

وهل المكث المراد في قوله تعالى: " وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ" (الإسراء١٠٦)، أقول: وهل هذا المكث – في أبسط معانيه– إلا التأني والتمهل والترسل؛ الناجم عن مراعاة أحكام التلاوة وضوابط القراءة.

ومن ثم؛ لم تكن ملاحظاته ورؤاه لأصوات العربية وقفا على جانب من جوانبها، بل شملت جميع المستويات: مفردة ومركبة، وصفا وتنظيما – وسيكشف البحث عن ذلك في موضعه(١) – وقد أعانه على ذلك تنوع موارد المادة العلمية التي استقاها مما يقارب نيفا وعشرين مصنفا، كلها من عيون أمهات هذا الفن، مما جعل لكتابه مكانا عليا يشار إليه بالبنان، ومنبعا ثريا وغنيا يغني عن غيره، وإن كان متأخرا.

ويكفينا في الاستدلال على تلك الشمولية والمنهجية في الطرح والتناول، والمعالجة والتحليل–

إشارة الشيخ محمد مكي نصر – في مقدمة كتابه(٢) – إلى الركائز الأساسية الثلاثة (دراسة المخارج– الصفات– الأحكام التركيبية) التي سيبني عليها رؤيته ونظريته الصوتية القرآنية، وكل هذا أساس للدراسة الصوتية بمفهومها

(١) اقتصر الباحث هنا على دراسة الصوت فوناتيكيا، وما أظن أني خرجت من نهاية مكي بالنزر اليسير، وإن بقي فيه من النفيس الكثير، ولكن آن للذهن أن يستروح يسيرا بعد هذا الجهد الشاق، ليستأنف المسير في دراسة الصوت فونولوجيا في بحث آخر مستقل، أسأل الله – جل وعز– الإعانة على ما قصدت من الإبانة.

(٢) ينظر: الشيخ محمد مكي نصر الجريسي: نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد ص٢٥، تصحيح ومراجعة: الشيخ علي محمد الضباع، تدقيق وضبط: أحمد علي حسن، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الرابعة١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

القديم والحديث. وقد أضاف إليها أمرا رابعا، وهو: رياضة اللسان وكثرة التكرار.

ويُلاحظ أن العنصرين (الأول والثاني) يمثلان – ما يسمى في الدرس الصوتي الحديث– دراسة الأصوات اللغوية مفردة، بينما يمثل الأمر الثالث دراسة الأصوات مركبة، ويتعلق الأمر الرابع بالناحية التربوية والتعليمية(Educative)–Pedagogical لتلك الأصوات، وفي هذا دلالة واضحة على أن الشيخ – رحمه الله– قد وضع يده على مكونات ومقومات النسيج الصوتي للغتنا الغراء تنظيرا وتطبيقا، كما يدل – من ناحية أخرى– على شمولية المنهج الذي اعتمده في دراسة الأصوات، حيث لا يتسنى إجراء بحث علمي جاد للظواهر الصوتية في أي لغة؛ دون توصيف دقيق لكل صوت من أصوات اللغة، من حيث المخرج، ومن حيث الصفة، ومن حيث التفاعل بينه وبين الأصوات الأخرى في السياقات الصوتية المختلفة.

وبهذا تبدو لنا المعالم الرئيسة لرؤية الشيخ الصوتية القرآنية؛ والتي تعتمد على محورين لا يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر: الأول: المعرفة النظرية العميقة، والثقافة العلمية الدقيقة. والثاني: القدرة على التطبيق المتقن ، والمران الجيد " ذلك أنه كان يرى أن تحقيق هدفه؛ في الوصول إلى إجادة النطق وتصويب الأداء– محال أن يتم دون الربط بين أساس قوي من العلم والمعرفة النظرية، وأساس متين من التطبيق والتدريب"[١].

(١) أصوات العربية القرآن الكريم: منهج دراستها وتعليمها عند مكي بن أبي طالب ص٢٤٦، وأيضا ص٢٧٢.

ولله در ابن الجزري[١] إذ يقول: " ولا أعلم سببا لبلوغ نهاية الإتقان والتجويد، ووصول غاية التصحيح والتسديد، مثل: رياضة الألسن، والتكرار على اللفظ المتلقي من فم المحسن، وأنت ترى تجويد حروف الكتابة، كيف يبلغ الكاتب بالرياضة وتوقيف الأستاذ، ولله در الحافظ أبي عمرو الداني – رحمه الله– حيث يقول: ليس بين التجويد وتركه إلا رياضة لمن تدبره بفكه، فلقد صدق وبصر، وأوجز في القول وما قصر"[٢].

(١) أبو الخير محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري، ولد بدمشق في٢٥ رمضان٧٥١هـ/١٣٥٠م، أخذ القراءات إفرادا على الشيخ أحمد بن رجب، والشيخ أبو محمد السلار، ثم جمع للسبعة على الشيخ إبراهيم الحموي، ورحل إلى مصر٧٦٩هـ، وقرأ الحديث والفقه والمعاني والأصول والبيان على الشيخ ضياء الدين القزويني، وأجازه بالإفتاء شيخ الإسلام أبو الفداء بن كثير، وولي قضاء الشام سنة٧٩٣هـ، وتوفي بشيراز، يوم الجمعة ٥ من ربيع الأول٨٣٣هـ/١٤٢٩م، عن عمر يناهز ٨٢ سنة. ومن آثاره: النشر في القراءات العشر، التمهيد في علم التجويد، وتحبير التيسير في القراءات العشر...إلخ. الأعلام٧/٤٥.

(٢) النشر ١/١٦٩.

الفصل الأول

العملية النطقية عند محمد مكي نصر

المبحث الأول: الجهاز النطقي

تشكل أعضاء النطق الإنسانية – أو ما يسمي في الدرس الصوتي الحديث (Organs of speech – Mechanisms of speech) – الأساس في عملية إنتاج الأصوات اللغوية. ومن ثم نجد معظم اللغويين الذين درسوا الأصوات اللغوية يحرصون على كتابة مقدمة في وصف أعضاء النطق(١).

ولم يفت الشيخ – وهو يدرس أصوات العربية – أن ينبه على ذلك، وقد تجلى ذلك في ثلاثة ملامح:

---

(١) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص١٧–٢١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، بدون تاريخ، د. كمال بشر: علم الأصوات ص١٣١–١٤٥، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة٢٠٠٠م، د. أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص٩٩–١١٠، عالم الكتب، القاهرة١٤١٨هـ/١٩٩٧م، د. محمد حسن حسن جبل: المختصر في أصوات اللغة العربية – دراسة نظرية وتطبيقية ص٣٠–٤٤، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثامنة١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، د. عبد العزيز علام، د. عبد الله ربيع: علم الصوتيات ص٩٧–١٢٥، مكتبة الرشد ناشرون، المملكة العربية السعودية، الرياض الطبعة الثالثة١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ، د. عبد الغفار هلال: أصوات اللغة العربية ص٤٤–٥٩، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، الطبعة الثانية١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، د. صلاح الدين قناوي، د. أحمد سلطان: دراسات في علم الأصوات اللغوية ص٤٩–٦٨، الطبعة الثانية١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، د. غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية ص٤٥–٦٠، د. عصام نور الدين: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٥٠–٧٣، دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٢م، د. منصور بن محمد الغامدي: الصوتيات العربية ص٢٩–٤٦، دار التوبة، الرياض، الطبعة الأولى١٤٢١هـ/٢٠٠١م، د. عبد العزيز سعيد الصيغ: المصطلح الصوتي في الدراسات العربية ص٢٣–٥٠، دار الفكر، دمشق، الإعادة الأولى١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

١- ذكر أعضاء النطق[١] إجمالا: قال – رحمه الله- " ... فاعلم أن المخارج يجمعها خمسة مواضع: الجوف، والحلق، واللسان، والشفتان، والخيشوم"[٢].

٢- قدم تعريفا وتقسيما لبعض أعضاء النطق:

(أ) الجوف (The Oral cavity)

وقد شرحه بقوله: " أي: جوف الحلق والفم، وهو الخلاء الداخل فيهما"[٣]. " وليس الجوف نقطة محددة، بل هو – على ما يبدو – التجويف الممتد من فوق الحنجرة إلى الشفتين، المسامت للحلق واللسان، عندما يفتح الناطق فاه"[٤].

وهو ما سماه المحدثون بـ (تجويف الفم The mouth cavity)، وهو أحد تجاويف ما فوق المزمار (Supraglottal cavities)[٥] . " ويضم تجويف الفم أكثر أعضاء آلة النطق، فهو يبدأ من نهاية تجويف الحلق العليا عند

(١) يرى بعض اللغويين المعاصرين أن تسمية أعضاء معينة أعضاء نطق تسمية مجازية؛ لأن إصدار الأصوات الكلامية (Speech function)، لا يمثل إلا وظيفة ثانوية (Marginal function) من الوظائف الكثيرة التي تقوم بها هذه الأعضاء. ينظر في تفصيلات هذه القضية: د. سمير شريف استيتية: الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية ص١١-١٧، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى٢٠٠٣م.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٨،٤٩، وأيضا: ص٦١.

(٣) السابق ص٤٩.

(٤) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٩٤.

(٥) دراسة الصوت اللغوي ص١٠٤.

مؤخرة اللسان المقابلة للهاة، وينتهي بالشفتين، ويشمل اللسان والأسنان واللثة وسقف الفم والشفتين"[١] .

(ب) الرئة[٢] (Lung)

وهي التي تقوم بدفع الهواء الذي هو مادة الصوت، وهي: " جسم مطاط، قابل للتمدد والتقلص، ولكنه ليس ذاتي الحركة؛ لأنه بحاجة إلى مساعدة الحجاب الحاجز (Diaphragm)، والقفص الصدري (Cage thoracique)؛ كي يقوم بوظيفته"[٣].

" يكون عمل الرئتين بأن يضغط الحجاب الحاجز عليهما بمساعدة القفص الصدري، فيدفع الهواء خارجا منهما؛ مارا بأعضاء النطق، وبفعل الاحتكاك والانسداد تتم الأصوات"[٤].

(ج) الحلق[٥] (Pharynx)

وهو التجويف الذي يقع بين الحنجرة وأقصى الفم[٦]، وهذا هو المفهوم الحديث لمنطقة الحلق. وقد قسمه إلى ثلاثة أقسام: أقصى الحلق– وسط الحلق– أدنى الحلق، ونسب لكل قسم صوتين من أصوات العربية.

---

(١) المدخل إلى علم أصوات العربية ص٥٧، وقارن بـ الصوتيات العربية ص٤١.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٩.

(٣) علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٥٢، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص٥٣،٥٤، في البحث الصوتي عند العرب١٣،١٤.

(٤) المصطلح الصوتي ص٢٤.

(٥) نهاية القول المفيد ص٥٠.

(٦) الأصوات اللغوية ص١٩، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٦٥، لمزيد من الإيضاح والتفصيل، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص٦٢،٦٣.

أما المحدثون فقد قسموه – أيضا– إلى ثلاثة أقسام على أساس فسيولوجي: الحلق العلوي (ويعرف بالحلق الأنفي Nosopharynx)، الحلق الأوسط (ويعرف بالحلق الفمي Oropharynx)، الحلق

السفلى (ويعرف بالحلق الحنجري Laryngopharynx)[١] .

ويفهم من قوله: " أقصى الحلق: يعني أبعده مما يلي الصدر، ويخرج منه حرفان؛ وهما: همز وهاء[٢] أنها جعل الحنجرة جزءا من الحلق. وهذا يعني أن الحلق عنده يمتد من جزء من الحنجرة، وهو الوتران الصوتيان، ثم الحلق بالمفهوم الحديث، ثم أقصى الحنك، وهي مساحة واسعة مقارنة بالمساحة التي يعنيها الفهم المعاصر للحلق؛ الذي هو موضع لإنتاج صوتين اثنين، هما: الحاء، والعين (وهذا يفيد أن منطقة الحلق هي ما بعد الحنجرة وما قبل اللهاة، وهي المنطقة التي يطلق عليها أيضا البلعوم). فوسط الحلق عنده هو كل الحلق عند المحدثين[٣].

(د) اللهاة (uvula)

وقد عرفها بقوله: " وهي لحمة مشتبكة بآخر اللسان"[٤]. ولم يزد المحدثون شيئا جوهريا على هذا التوصيف: " أما اللهاة: فهي لحمة مسترخية في آخر

---

(١) دراسات في علم الأصوات ص٦٢، الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية ص٥٢.

(٢) نهاية القول المفيد ص٥٠.

(٣) المصطلح الصوتي ص٢٧، بتصرف يسير. ينظر في تفصيل الخلاف الدائر بين القدماء والمحدثين في تحديد منطقة الحلق، وتعيين الأصوات المنسوبة إليها المصلح الصوتي ص٥٨–٦٨.

(٤) السابق ص٥١.

سقف الفم تقابل أقصى اللسان، ولها القابلية على التصعد والانخفاض، مع ما يحيط بها من الحنك اللين، فتسد مجرى النفس إلى الأنف أو تفتحه"[١].

" ووظيفتها ليست وظيفة مباشرة، بل غير مباشرة؛ حيث إن لها دخلا في نطق القاف العربية، كما أن لها دخلا أيضا في في إغلاق وفتح الفراغ الأنفي"[٢]. وعلى هذا الأساس يتحدد الصوت فمويا

أم أنفيا.

(هـ) الحنك (palate)

وقد أشار الشيخ – رحمه الله – إلى بعض الأجزاء التي تشكل هذا العضو، مثل: (النِّطع)، وعرفه بقوله: " جلد غار الحنك الأعلى، وهو سقفه"[٣].

" وترجع أهمية سقف الحنك الصوتية؛ إلى أنه بالتعاون مع اللسان يضيق أو يوسع فراغ الفم، كما أنه يمكن أن يكون مرتكزا للسان عندما يسد مخرج الهواء بالفم، أو عندما يضيقه، بحيث يحدث خروج الهواء احتكاكا مسموعا"[٤].

" والحنك: هو العضو الذي يتصل به اللسان في أوضاعه المختلفة. ومع كل وضع من أوضاع اللسان بالنسبة لجزء من أجزاء الحنك الأعلى تتكون مخارج كثير من الأصوات. وينقسم الحنك الأعلى إلى أقسام عدة، هي:

---

(١) المدخل إلى علم أصوات العربية ص٥٧، دراسة الصوت اللغوي ص١٠٥، في البحث الصوتي ص١٨.

(٢) المصطلح الصوتي ص٣٠، وقارن بـ دراسات في علم الأصوات ص٦٥،٦٦.

(٣) نهاية القول المفيد ص٥٤.

(٤) د. عبد الرحمن أيوب: أصوات اللغة ص٨٤، مطبعة الكيلاني، القاهرة، الطبعة الثانية١٩٨٦م .

الأسنان، ثم أصولها (Alveole)، ثم وسط الحنك أو الجزء الصلب منه (الغار)Hard palate ، ثم أقصى الحنك او الجزء اللين منه (الطبق)Soft palate، ثم اللهاة (uvula)"[١].

" وهذا التقسيم وظيفي؛ لأنه يرتبط – أكثر من غيره[٢]– بوصف الأصوات. وبيان ذلك: أن هذا التقسيم يستدعي – وبالضرورة– التفريق بين أصوات مخرجها في منطقة اللثة، فتعد أصواتا لثوية. وأصوات يتم إنتاجها في منطقة الحنك الصلب، فتعد أصواتا غارية. وأصوات مخرجها من منطقة الحنك اللين (الطبق) فتصير طبقية. وأصوات لهوية؛ لأنه يتم إنتاجها في منطقة اللهاة. وهذا وحده كاف للدلالة على وظيفية هذا التقسيم"[٣].

ولعل من نافلة القول أن نقول: " إن سقف الحنك الرخو واللهاة – دون سواهما– هما الجزاءن القابلان للحركة من بين أجزاء سقف الحنك. ويمكن أن يتحركا إلى أسفل، وترتفع مؤخرة اللسان في الوقت نفسه، فيضيق مخرج الهواء أو ينسد، مما يكون ذا أثر كبير في إنتاج عدد كبير من الأصوات"[٤].

(و) اللثة (أصول الثنايا) (Teeth–ridge)

وقد عرفها بقوله: " واللثة: وهي اللحم المركب فيه الأسنان"[٥]. وكان أكثر توضيحا وتحديدا بقوله: " اللثة؛ أي لحمة الأسنان العليا، وهي لثة

---

(١) الأصوات اللغوية ص١٩،٢٠.

(٢) حيث اقتصر د. كمال بشر، د. عبد العزيز الصيغ على تقسيم الحنك إلى ثلاثة أقسام، هي الأقسام المذكورة – سالفا– دون اللهاة. (الأصوات ص١٣٩، المصطلح الصوتي ص٣٦).

(٣)الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية ص٤٤.

(٤) أصوات اللغة ص٨٥.

(٥) السابق ص٥٢.

الضَّاحِكَيْن والنابَيْن والرباعيتين والثنِيَّتَيْن"[١]. وتارة أخرى أطلق عليها أصول الثنايا العليا[٢]. " وتقع اللثة خلف الأسنان الأمامية مباشرة، وتشكل الجزء البارز من الطبق خلف وفوق الأسنان الموجودة في الفك الأعلى"[٣].

وقد جعلها المحدثون جزءا من الحنك الأعلى أو سقف الفم[٤]. وهذا يعني أن مفهوم المحدثين لمنطقة الحنك يشمل مساحة أوسع من مفهوم علماء التجويد لها؛ حيث نصوا على أن اللثة ليست من الحنك[٥]، إلا أن مفهوم اللثة لدى الفريقين هو نفسه[٦].

" ويمكن تقسيم هذه المنطقة – على صغرها وضيقها- إلى منطقتين، أولاهما: منطقة مقدمة اللثة (Prealveoli). وثانيتهما: منطقة اللثة المتأخرة (Postalveoli). وفائدة تقسيم هذه المنطقة إلى منطقتين فائدة وظيفية، تبرز في التمييز بين الأصوات التي تنتج في مقدمة اللثة، والأصوات التي يكون موضع نطقها في مؤخرة اللثة"[٧].

---

(١) السابق ص٥٢.

(٢) السابق ص٥٣.

(٣) دراسة الصوت اللغوي ص١٠٥.

(٤) الأصوات اللغوية ص١٩، ٢٠، المدخل إلى علم أصوات العربية ص٥٧، دراسة الصوت اللغوي ص١٠٥، د. محمود السعران: علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي- ص١٣٣، دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.

(٥) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ٩٠. أما الشيخ – رحمه الله- فلم ينص على شيء من ذلك.

(٦) المصطلح الصوتي ص٣٨.

(٧) الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية- ص٤٨.

ولا يخفى أن اللثة تساعد في إنتاج عشرة أصوات؛ اللام والراء، والنون بمساعدة التجويف الأنفي، والضاد والطاء والدال والتاء والزاي والصاد والسين بمساعدة الأسنان.

وقد ذهب الشيخ – رحمه الله– إلى أبعد من ذلك، وذلك حين قسم مخرج اللثة – التي تخرج منه الطاء، والدال، والتاء– إلى ثلاثة أقسام، حيث جعل لكل صوت منها مخرجا: " ... فظهر أن أصليهما (يقصد: أصل الثنيتين العُلييين) ينقسمان إلى ثلاثة مواضع؛ فما يلي اللثة منهما يخرج منه الطاء، ومن بعيده الدال، ومن بعيده، التاء؛ فالمراد من أصليهما ليس أقصى نهايتهما من جانب اللثة لاستحالة الانقسام حينئذ، بل المراد ما يلي اللثة من نصفيهما"[(١)].

(ز) اللسان (Tongue)

من أهم أعضاء النطق؛ ولأهميته سميت اللغات به[(٢)]" وهو عضو مرن، معقد التركيب، ومكون من مجموعة العضلات التي تمنحه مقدرة على

(١) نهاية القول المفيد ص٥٣.

(٢) وقد أطلقه القرآن بمعنى اللغة في مواضع عديدة، منها قوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ" إبراهيم٤، وقوله:" وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ " النحل١٠٣. ينظر حصر تلك المواضع عند محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٦٤٧، دار الحديث، القاهرة، مصورة من طبعة دار الكتب المصرية١٣٦٤هـ. ثم إني رأيت ابن خلدون يعده – لأهميته– العضو الفاعل للعملية النطقية، فيعرف اللغة بأنها: " عبارة المتكلم عن مقصوده، وتلك العبارة فعل لساني، فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها، وهو اللسان". وتارة أخرى يقول: إن اللغة ملكة لسانية. عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: مقدمة ابن خلدون١١٢٨/١، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة٢٠٠٦م.

الحركة باتجاهات مختلفة، مما يجعله يساهم بدور كبير في إنتاج الأصوات اللغوية"[١].

" وله وظيفته اللغوية؛ فهو الذي يتحكم – عن طريق حركته– في تغيير شكل وحجم تجويف الحلق وتجويف الفم، وكلاهما من غرف الرنين التي تكيف الأصوات، هذا فضلا عن أنه يشارك أجزاء الفم الأخرى في إخراج عدد كبير من الأصوات"[٢].

وقد قسمه الشيخ – رحمه الله – إلى عشرة مخارج، يجمعها أربعة: أقصى اللسان، ووسطه، وحافته، وطرفه[٣]. في حين أن تقسيم المحدثين للسان يختلف عما ذكره الشيخ، حيث قسمه بعض المحدثين إلى ثلاثة أقسام، يقول الدكتور أنيس: " ... وقد قسمه علماء الأصوات إلى ثلاثة أقسام: الأول منها: أول اللسان بما في ذلك طرفه، والثاني: وسطه، والثالث: أقصاه"[٤].

(١) المدخل إلى علم أصوات العربية ص٥٧، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٦٦، في البحث الصوتي عند العرب ص١٦، وقارن بـ د. رمضان عبد التواب: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي ص٢٦، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٢) دراسات في علم الأصوات ص٦٣.

(٣) نهاية القول المفيد ص٥١–٥٤. وهو متأثر في هذا التقسيم؛ بما سبق إليه سيبويه – من قبل– حيث ذكر الأقسام الأربعة المذكورة، وكان هذا التقسيم أساسا لمن أتى بعده من العلماء. الكتاب٤/٤٣٣، تحقيق: الأستاذ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. ابن جني: سر صناعة الإعراب١/٤٧، دراسة وتحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ابن الجزري: النشر١/١٥٩.

(٤) الأصوات اللغوية ص١٩.

والمحدثون بذلك دمجوا القسم الرابع – وهو طرف اللسان – بأوله، في حين اعتبره الشيخ مخرجا مستقلا بذاته. بينما قسمه البعض الآخر إلى خمسة أقسام: " ... وقد قسمه علماء الأصوات إلى أقسام، وهي:

(أ) نهاية اللسان، أو حده، أو الذولق (Point (Fronted) of the tongue)، وهو رأسه الأمامي.

(ب) طرف اللسان (Blade of the tongue)، وهو الجزء الذي يقابل اللثة، ويتحرك باتجاه الأسنان، أو اللثة، أو الطبق.

(ج) وسط اللسان (Center of the tongue)، وهو الجزء الذي يقابل الصلب، أو ما يسمى بوسط الحنك.

(د) مؤخر اللسان أو أقصاه ((Back of the tongue (Dorsum)، وهو الجزء المقابل للحنك اللين، أو ما يسمى بأقصى الحنك.

(هـ) الأصل أو الجذر (Root (Radical) of the tongue)، وهو الذي يشكل الحائط الأمامي للحلق[١].

والبعض الآخر يقسمه إلى أربعة أقسام: أقصاه، ووسطه، ومقدمته – وهو الذي يلي طرفه الدقيق– وذلقه؛ وهو الجزء المقابل للثة[٢].

وقد ذكر عدة مصطلحات تتعلق باللسان، تنم عن فهم عميق وتشريح دقيق لطبيعة هذا العضو الفسيولوجية والنطقية، كما أنها تتسم بالدقة إلى حد كبير، نوجز القول فيها فيما يلي:

---

(١) علم الأصوات ص١٣٨، دراسة الصوت اللغوي ص١٠٧، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٦٧، دراسات في علم الأصوات ص٦٤.

(٢) في البحث الصوتي عند العرب ص١٦.

(أ) شجر الفم، قال: " شجر الفم – بسكون الجيم– وهو منفتح ما بين اللحيين، وقيل: هو ما بين وسط اللسان وما يقابله من الحنك الأعلى"[١].

(ب)ظهر اللسان، قال: " والمراد من ظهر اللسان: ظهره مما يلي رأسه، وظهره: صفحته التي تلي الحنك الأعلى"[٢].

(ج) ذلق اللسان، قال: " ذلق اللسان، أي: طرفه"[٣].

(د) أسلة اللسان، قال: " أسلة اللسان، أي: ما دق منه"[٤].

(هـ) حافة اللسان، ولم يقدم لها تعريفا، ولكنه جعلها مخرجا لصوتي اللام والضاد[٥].

وهو – في ما قدمه من تعريفات لأجزاء اللسان – متأثر بالخليل[٦]، ومتفق مع توصل إليه علم اللغة الحديث، وإن لم نلمح مصطلح " ظهر اللسان" عند علمائنا الأوائل – وهو مصطلح عام يشمل العضو كله بأجزائه السابقة– " كما أن المحدثين لا يولون حافة اللسان ذكرا، ولعل ذلك عائد

(١) نهاية القول المفيد ص٥٢.

(٢) نهاية القول المفيد ص٥٣.

(٣) نهاية القول المفيد ص٥٣.

(٤) نهاية القول المفيد ص٥٤.

(٥) نهاية القول المفيد ص٥٢.

(٦) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين١/٥٨، ، تحقيق: د. إبراهيم المخزومي، د. فاضل السامرائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

إلى تغير نطق صوتي " اللام" و " الضاد"، وعدم اشتراك الحافة في مخرجهما الآن"[١].

(ح) الشفتان (Lips)

وهما من أعضاء النطقة المهمة؛ لأنهما كثيرتا الحركة، وتتخذان أوضاعا عدة عند النطق؛ مما يؤثر

في صفات الأصوات وأنواعها. وقد عرفها د. الصيغ بأنها: " ثِنْيتان لحميتان (Fleshy folds) تغطيان – عند انطباقهما– الفم من فوق ومن تحت"[٢].

وقد اكتفى الشيخ – رحمه الله – ببيان دور الشفتين في إنتاج الأصوات اللغوية، وقسمها إلى ما يخرج من باطن الشفة (الفاء) بمعونة الأسنان، وما يخرج من الشفتين (الباء والميم والواو)[٣].

وهو تقسيم تقطيعي لهذا العضو لا يختلف – في مضمونه عما ذكره المحدثون، حيث قسموا " كل واحدة من الشفتين إلى حقلين (Zones): داخلي، ويسمى باطن الشفة، وآخر خارجي، ويسمى ظاهر الشفة. وما ينسب إلى الحقل الأول من أصوات، يسمى شفويا باطنا (Endolabial). وما ينسب إلى الحقل الآخر، يسمى شفويا خارجيا (Exolabial)"[٤] .

(١) المصطلح الصوتي ص٤٣.

(٢) المصطلح الصوتي ص١٩.

(٣) نهاية القول المفيد ص٥٤،٥٥.

(٤) المصطلح الصوتي ص١٩.

وتلك الوظيفة الظاهرية التي أشار إليها الشيخ – رحمه الله – لدور الشفتين أشار إليها المحدثون(١)، حيث إن بروز الشفتين جعل علماء الأصوات المحدثين يكتفون ببيان الوظيفة التي تؤديانها في إنتاج الأصوات، ويمكن إجمالها فيما يأتي:

١- تغيير شكل وحجم صندوق الرنين الفموي أثناء النطق.

٢- إخراج بعض الأصوات اللغوية؛ كالميم، والباء، والفاء في اللغة العربية.

٣- القيام بدور أساسي في نطق الصوائت، وهي: الفتحة، والضمة، والكسرة، فتستديران مع الضمة، وتنفرجان مع الكسرة، وتنفتحان مع الفتحة(٢).

(ط) الخياشيم (Nasal cavity- Nasal chambers)

وقد عرفه بقوله: " وهو أقصى الأنف"(٣)، وهو تحديد صحيح لوضع الخيشوم. وقد أسماه المحدثون بـ " الفراغ الأنفي" أو " التجويف الأنفي"، وعرفوه: " بأنه تجويف يندفع النفس من خلاله إلى الخارج عند نطق بعض الأصوات؛ كالميم والنون العربيين. ويستغل الفراغ الأنفي عند الكلام كفراغ رنان يضخم بعض الأصوات المنطوقة أثناء الأداء، وفي إخراج بعض الأصوات، مثل: الميم والنون في اللغة العربية "(٤).

---

(١) علم الأصوات ص١٤٠، علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي- ص١٣٩،١٤٠، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٧٠.

(٢) دراسات في علم الأصوات ص٦٧، وقارن بـ المصطلح الصوتي ص٤٨-٥٠

(٣) نهاية القول المفيد ص٥٥.

(٤) الأصوات اللغوية ص٢٠، علم الأصوات ص١٤٠، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٧٠، في البحث الصوتي عند العرب ص١٨، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص٦٨، ==

(ك) الفم[١] (The mouth)

وقد استعمله مرادفا للجهاز النطقي، أو آلة التصويت عامة.

٣- تخصيص فصل مستقل لوصف بعض أعضاء النطق

تؤدي الأسنان (Teeth) وظيفتها اللغوية التي تتمثل في إخراج بعض الأصوات اللغوية بمشاركة اللسان أو الشفة، مثل: أصوات الصفير – السين والزاي والصاد– ومثل الفاء، هذا فضلا عن أن مقدمة الأسنان الأمامية تعمل مع باطن الشفتين كفراغ رنان مع بعض الأصوات، كما أن الفراغات الصغيرة في جسم الأضراس تستغل كصناديق رنين صغيرة جدا أثناء النطق"[٢].

ويحسن بدارس الأصوات اللغوية وقارئ القرآن الكريم معرفتها؛ حتى يتمكن من تحديد مخارج الأصوات التي تشترك الأسنان في إنتاجها، حتى يتمكن من إتقان القراءة وإحكام التلاوة. ومن ثم رأينا الشيخ – رحمه الله – يفرد بابا مستقلا للأسنان، وجعل عنوانه معبرا عن الغرض من عقده: " في بيان ما يحتاج إلى معرفته طالب فن التجويد، وهو معرفة أسنان الفم"[٣]. ثم قال بعد أن قسمها وذكر أنواعها: " ... فاجتهد – يا أخي – في حفظ هذا؛ لأنه ينفعك في معرفة المخارج، ولا سيما مخرج الضاد واللام وأخواتها"[٤]. ولعله

==

المصطلح الصوتي ص٤٥،٤٦.

(١) نهاية القول المفيد ص٤٩.

(٢) دراسات في علم الأصوات اللغوية ص٦٦،٦٧، وقارن بـ المصطلح الصوتي ص٣٧-٣٩.

(٣) نهاية القول المفيد ص٥٧،٥٨.

(٤) نهاية القول المفيد ص٥٩.

يقصد بلفظ (أخواتها): الصوامت التي تشترك الأسنان مع غيرها في إنتاجها.

وقد ذكر – رحمه الله– أن جملتها اثنتان وثلاثون، ستة عشر في الفك العلوي، وستة عشر في الفك السفلي، وقسمها إلى مجموعات على النحو التالي:

١– الثنايا: وهي الأسنان الأربعة المتقدمة؛ اثنتان فوق، واثنتان تحت. وأطلق عليها الأصواتيون المحدثون مصطلح القواطع المركزية الأمامية(١). وقد جعلها الشيخ – رحمه الله– موضعا لخمسة مخارج تنتج أحد عشر صوتا، بمعاونة طرف اللسان في أربعة، وهي: مخرج النون، ومخرج الظاء والذال والثاء، ومخرج الزاي والسين والصاد، ومخرج الطاء والدال والتاء، وبمعاونة باطن الشفة السفلى في مخرج واحد، وهو الفاء.

٢– الرَّباعيات – بفتح الراء، وتخفيف الياء – وهي الأربعة خلف الثنايا، اثنان علويان، واثنان سفليان، وهي ما اصطلح عليه الدرس الصوتي الحديث بالقواطع الجانبية(٢). وقد دمج بعض المحدثين الثنايا والرباعيات معا وأطلق عليها اسم القواطع الثمانية(٣).

ولم يذكر الشيخ – رحمه الله– الرباعية في حديثه عن المخارج إلا مرة واحدة، عندما وصف صوت اللام مخرجيا – وسنفرد لها حديثا في باب

(١) الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية ص٣٩.
(٢) الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية ص٤٠.
(٣) دراسات في علم الأصوات اللغوية ص٦٦، علم الصوتيات ص١٢٢.

المخارج. " ونظرا لموقع الرباعيات في الجزء الجانبي الأمامي من الفم بين الثنايا والأنياب، فهي لم تحتل مكانا بارزا في مخارج الأصوات"(١).

٣- الأنياب؛ وهي أربعة أخرى خلف الرباعيات، اثنان علويان، واثنان سفليان. وقد ذكرها أيضا في ثنايا حديثه عن صوت اللام.

٤- الأضراس؛ وجملتها: عشرون ضرسا، من كل جانب عشرة. وقد قسمها إلى:

(أ) الضواحك؛ وهي أربعة من الجانبين تلي الأنياب، اثنان علويان، واثنان سفليان. وقد ذكرها أيضا في ثنايا حديثه عن صوت اللام. وقد جعلها بعض المحدثين ثمانية، منها أربعة تلي الأنياب في الفك العلوي، وأربعة تلي الأنياب في الفك السفلي(٢). وسماها آخرون: " الأضراس الأمامية"(٣).

(ب) ثم الطواحين – ويقال فيها أيضا الطواحن بغير ياء – وهي اثنا عشر طاحنا من الجانبين خلف الضواحك، ستة من فوق، في كل جانب ثلاثة، وستة من تحت كذلك.

(ت) ثم النواجذ – بالذال المعجمة – وهي الأربعة الأواخر، من كل جانب اثنتان؛ واحدة من أعلى، وأخرى من أسفل، ويقال له: ضرس الحلم وضرس العقل، وهي أقصى الأضراس، وهي قد لا تنبت لبعض الناس، وقد ينبت لبعضهم بعضها، وللبعض كلها.

---

(١) المصطلح الصوتي ص٤٠.

(٢) الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية ص٤٠.

(٣) دراسات في علم الأصوات اللغوية ص٦٦.

ومن هذا العرض، يتبين أن الدراسات الصوتية الحديثة – بأدواتها الفسيولوجية والتشريحية– لم تتجاوز ما قدمه الشيخ – رحمه الله – في وصف الأسنان وتقسيمها وتحديد مواضعها(١). وأن الخلاف بينهما لا يعدو أن يكون خلافا في الاصطلاح فحسب. بل يمكننا القول: إن حديث الشيخ – رحمه الله– عن الأضراس كان أكثر تفصيلا، وأدق توزيعا. وبيان ذلك: أن المحدثين جعلوا عدة الأضراس ثنتي عشر ضرسا، بعد إخراج الضواحك الثمانية، ولكن الشيخ – رحمه الله– قسم الباقي إلى مجموعتين: الطواحين، والنواجذ، وهو ما لم أر له ذكرا في كتب المحدثين.

ومبلغ القول: إن الشيخ – رحمه الله – وقف على جهاز النطق لدى الإنسان وقفة الباحث المتدبر المتعمق في كل عضو من أعضاء الجهاز النطقي؛ مبرزا أهميته في إنتاج الأصوات اللغوية، أو بعبارة أدق: محددا الأصوات اللغوية التي تنطق من كل عضو. وكانت الحنجرة (Larynx) وما تشتمل عليه من الأوتار الصوتية ("Vocal Cords –Folds–"bands هي العضو الذي لم يتمكن الشيخ من وصفه وصفا كاملا؛ لأنها لا تقع تحت النظر، وإن أدرك تأثيرها في إنتاج الأصوات، بدليل أنه جعلها جزءا من الحلق تخرج منه الهمز والهاء. ويعزز هذا الاستنتاج أن الشيخ – رحمه الله– لم يعرف عن الحنجرة – وهي من أهم أعضاء الآلة النطقية– إلا ما نقله صاحب المصباح: " الحنجرة: فَنْعَلة مجرى النفس، والحُنجُور: فُنعُول– بضم الفاء: الحلق"(٢).

---

(١) علم الأصوات ص ١٤٠،١٤١، علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي ص١٤٠، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٧٢.

(٢) وكان ذلك تعقيبا على حديث المصطفى – صلى الله عليه وسلم– سيأتي أقوام من بعدي يُرجِّعون القرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنوح، لا يجاوز حناجرهم ...". نهاية القول المفيد ص١٩،٢٠.

أقول إن معرفته بهذا العضو لم تتجاوز هذا الحد؛ على الرغم من أنه – وما يشتمل عليه من أعضاء أخر؛ كالقصبة، والوترين، ولسان المزمار – يشكل الأداة الأساسية للصوت الإنساني.

ولم تكن معرفته بتلك الأعضاء نظرية، بل كانت مقترنة بإدراك تام لعملية إنتاج الأصوات وتمايزها، رغم أن معرفته بعلم وظائف الأعضاء (Physiology)، وعلم التشريح (Anatomy) جِدُّ ضئيلة، وهما العلمان اللذان أفاد الأصواتيون من منجزاتهم في خدمة الصوتيات، وخصوصا فيما يتعلق بالجهاز الصوتي (Vocal Tract)، والجهاز التنفسي (Respiratory System).

ويظهر أن الشيخ – رحمه الله – اقتصر على أهم الأعضاء التي تؤدي دورا مباشرا في عملية النطق، وإلا فهناك أعضاء أخرى ضرورية للعملية النطقية؛ بيد أنها تلعب دورا غير مباشر، وقد وقف عليها الدرس الصوتي الحديث، مثل: القفص الصدري، الحجاب الحاجز، القصبة الهوائية (Wind pipe or Trachea) ...إلخ.

ومن ثم؛ فإنه لا بد من الإفادة مما أحرزه التقدم العلمي، وكشف عنه من حقائق تتعلق بجهاز النطق وطريقة عمله؛ وذلك لأن الدراسين المعاصرين أكثر دراية بجسم الإنسان وجهازه الصوتي، بفضل استعانتهم بالأجهزة الحديثة التي يتقاسم العمل فيها أهل التشريح، وأطباء الأنف والأذن والحنجرة، ومن ورائهم أهل الأصوات.

المبحث الثاني: إنتاج الصوت اللغوي[١]

فطن الشيخ – رحمه الله– إلى أن العملية النطقية ترتبط ارتباطا وثيقا بخروج الهواء من الجهاز النطقي عند الإنسان، وهو ما يسمى بهواء الزفير. وقد صرح أن هذا الهواء هو مادة إنتاج الصوت اللغوي، قال: " ولما كانت مادة الحرف الصوت الذي هو الهواء الخارج من داخل الرئة متصعدا إلى الفم، رتب العلماء مخارج الحروف باعتبار الصوت"[٢]. وقال في موضع آخر: " ثم اعلم أن النفس الذي هو الهواء الخارج من داخل فم الإنسان إن كان مسموعا فهو صوت، وإلا فلا"[٣].

" ومعنى هذا: أن العملية الكلامية تتم في شكلها الأساسي عن طريق التحكم في هواء الزفير الصاعد من الرئتين. ولا نعلم لغة تعتمد على هواء الشهيق في إنتاج الصوت، وإن أمكن أن تنتج أصوات خلال عملية الشهيق أيضا، ولكن هذا إن حدث يكون استثناء فقط. ومثل هذه الأصوات تسمع بين الأطفال، ونحن نستعملها في حالة النشيج أو الانتحاب"[٤].

وإشارة الشيخ – وإن كانت من المسلمات – تنبئ بوضوح عن فهم صحيح للبدايات الأولى لعملية إنتاج الصوت اللغوي، وإذا صحت البدايات صحت النهايات. ولقد كان الشيخ – رحمه الله– على درجة عالية من الدقة والعمق،

---

(١) الصوت اللغوي: هو الذي يصدر عن جهاز النطق الإنساني؛ أو آلته، وموضوعه علم الأصوات والأداء القرآني. أما الصوت الذي يحدث في العالم الطبيعي؛ نتيجة لقرع جسم بجسم، أو احتكاك جسم بآخر، أو نفخ في جسم خاص أو لغير ذلك، فموضوعه: علم الطبيعة. باختصار من علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي ص٩٩.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٩.

(٣) السابق ص٤٣.

(٤) دراسة الصوت اللغوي ص١١٢.

عندما أدرك أن عملية النطق عملية مركبة، لا تتم إلا بعدة عمليات متكاملة، وذلك عندما قال: " ومادة الحرف: الصوت؛ وهو هواء متموج بتصادم جسمين"(١).

وإذا أنعمنا النظر في هذا التعريف، أمكن أن نقف على العناصر (العمليات) الثلاثة التي تستدعيها عملية التصويت (Phonation)، كما أشار إليها الأصواتيون المحدثون. فقد أشار الشيخ – رحمه الله– إلى أن عملية التصويت – بعد أن أشار أن مادة الصوت هي الهواء، وهي ثابتة أشار إليها من قبل– لا تتم إلا بتصادم جسمين، وهنا يمكننا أن نقف على بُعدين من أبعاد الحقيقة الصوتية:

١– جسم يتذبذب، وتمثله الأعضاء النطقية الثابتة من الحنجرة إلى الشفتين والأنف، والتي تكون الممر الضيق لخروج التيار الهوائي (الزفير)، ثم تقوم أعضاء النطق المتحركة، وأهمها: اللسان، ثم اللهاة، ثم الوتران الصوتيان – باعتراض تيار الهواء الخارج بكيفيات مختلفة، وينتج عن وجود هذا التوتر وعدم وجوده تمييز بين الأصوات اللغوية.

٢–أما الجسم الآخر، فهو الذي يتلقى هذه الذبذبات، ويتمثل في أذن المستمع.

والفرق بينهما في التصادم: أن الجسم الأول (أعضاء النطق): يصدمه تيار الهواء (مادة الصوت) الخارج من الرئتين. أما الجسم الثاني (أذن المُستقبِل): فتصدمه الحزم أو الترددات الذبذبية الناتجة عن تموج الهواء. وعليه يمكن أن نقول: إن التصادم الأول داخلي، بينما الثاني خارجي.

(١) نهاية القول المفيد ص٤٤.

٣-أما البعد الثالث فيتمثل في الوسط الناقل للذبذبات الناتجة عن الجسم المتذبذب، وهو ما عبر عنه الشيخ – رحمه الله- بالتموج الذي يحدث للصوت أثناء مروره في الهواء.

وبمراعاة هذه الأبعاد الثلاثة (فسيولوجيا، فيزيائيا، إدراكيا)، والتي تشكل – في مجموعها- الحقيقة الصوتية (Phonetic Relevant)، نشأ لدينا ثلاثة فروع من علم الصوتيات، تمثل – في حقيقتها- المداخل الثلاثة لدراسة الصوت اللغوي، وهي: علم الأصوات النطقي (الفسيولوجي أو التشريحي) Physiological or Articulatory phonetics، علم الأصوات الفيزيائي أو الأكوستيكي (physical or phonetics Acoustical)، علم الأصوات السمعي أو الإدراكي (Auditory or Perceptnal phonetics)[١] .

وباختصار يحتمه المقام أقول: إن تصور الجريسي لمفهوم الصوت[٢] يتفق تماما مع ما قال به المحدثون، فالهواء يندفع من الداخل، ويمر على أعضاء النطق، وينتقل مسموعا إلى الأذن." فعند اندفاع النَّفَس من الرئتين يمر

(١) أفدنا في توضيح تلك الفكرة من الكتب الآتية: في البحث الصوتي عند العرب ص٦، علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي ص٩٩،١٠٠، علم الصوتيات ص٣١،٣٢، د. محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة ص٣٣-٣٥، دار قباء، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) لم يفت الجربسي وهو يحرر مفهوم الصوت، أن يفتح نافذة يتعرف منها على ما قدمه الآخرون، فقدم تعريفين للصوت اللغوي، أحدهما منسوب للفلاسفة، وهو: كيفية تحدث في الهواء، بسبب التموج المعلول للقرع؛ الذي هو إمساس بعنف، أو القلع الذي هو انفصال بعنف، بشرط مقاومة المقروع للقارع، والمقلوع للقالع. والآخر للفقهاء، وهو: كيفية تحدث بمحض خلق الله – تعالى- من غير تأثير لتموج الهواء والقرع والقلع. النهاية ص٤٤.

بالحنجرة، فيحدث تلك الاهتزازات التي بعد صدورها من الفم والأنف؛ تنتقل من خلال الهواء الخارجي على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن"(١).

ويطيب للبحث أن ينقل نصا للشيخ – رحمه الله- يوضح فيه العناصر التي تتضافر لإنتاج الصوت اللغوي، وهذا النص – على طوله- يجلّي رؤية الشيخ في إنتاج الصوت اللغوي التي تعد من أكثر العمليات الكلامية تعقيدا، والتي تعد الأساس لما بعدها في علم الأصوات بعامة، ولنظرية المخارج والصفات بخاصة.

أولا: الفرق بين الصوت والنفس

●قال: " ... وتحقيق ذلك: أن الهواء الخارج من داخل الرئة – وهو موضع النفس، وللقلب كالغشاء – إن خرج بدفع الطبع من غير أن يسمع، يسمى نفسا؛ بفتح الفاء، وإن خرج بالإرادة وعرض له تموج يسمع بسبب تصادم جسمين، سمي صوتا"(٢).

ويفهم من هذا النص:

١- أن النفس – وهو الهواء الخارج من الرئتين – هو مادة الصوت، وأنه لا يسمى صوتا حتى يتوافر فيه أمران: أولا: أن يكون خارجا بالإرادة لا بالطبع، ويقصد بالطبع هنا: " عملية التنفس المشتملة على شهيق وزفير، يقوم بها الإنسان بفطرته لا بإرادته، وإن كان بإمكانه التحكم فيها إلى حد ما"(٣). ثانيا: أن يكون مسموعا، وهو أمر يتعلق بالأثر السمعي أو الإدراكي

(١) الأصوات اللغوية ص٧.
(٢) السابق ص٦١.
(٣) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص١٠٦.

للصوت، وهو يوافق ما قرره الأصواتيون؛ من أن: " الصوت اللغوي: أثر سمعي يصدر – طواعية واختيارا – عن تلك الأعضاء المسماة – تجاوزا – أعضاء النطق"(١).

٢- أن الصوت لا يظهر إلا إذا تعرض في جزء من أجزاء آلة النطق إلى تموج، نتيجة حبس كامل أو تضييق لمجراه. وهذا الذي أشار إليه الشيخ – رحمه الله- يلتقي مع الدراسات الصوتية المعاصرة: والتي تؤكد على أن:" العملية الكلامية تختلف عن التنفس العادي: في أن الثاني يتم بصورة صامتة في العادة لتحرك تيار الهواء دون عوائق. أما العملية النطقية فلا يمر الهواء معها حرا طليقا – كما يحدث في حالة التنفس- وإنما يصادف الهواء في اندفاعه إلى الخارج أنواعا من الضغط والكبح والتعويق. والهواء حين يكبح يولد صوتا noise"(٢).

ويستنبط من كلام الشيخ – رحمه الله – أن إنتاج الصوت يتوقف على أمرين، هما: أولا: النفس. ثانيا: وجود العائق، وهو ما عبر عنه المستشرق الألماني أرتور شاده (Schaade, A.) (٣) بقوله: " إن الأصوات اللغوية هي

(١)علم الأصوات ص١١٩.

(٢) دراسة الصوت اللغوي ص١١٢.

(٣) أرتور شاده: ولد في ١٨٨٣/٨/١٩ بمدينة تورن غرب روسيا، وحصل منها على الشهادة الثانوية، واصل دراسته في جامعات ميونيخ، ليبزج، وبرلين، وتعلم الفرنسية والإنجليزية، وتخرج باللغات الشرقية على فيشير من ليبزج، وبإشرافه كتب بحثه الموسوم بـ: " تعليقات السهيلي وأبي ذر على قصائد أُحُد في سيرة ابن هشام"، وكتب أطروحته للأستاذية، تحت عنوان: " الأصوات عند سيبويه"، وعين أستاذا في هامبورج، وفي الجامعة المصرية، ثم مديرا لدار الكتب بالقاهرة. من آثاره: جملة الاسم الموصول في اللغتين العربية والسريانية، الجنس في اللغات السامية، الحركات في الكلمة العربية في اللغة التركية العثمانية، اللغات السامية – أعمال في الصوتيات ... إلخ، توفي١٩٥٢م. المستشرقون٢/٧٧٥. وأيضا: د. صبيح حمود ==

ظواهر سمعية، تحدث بأن تيار النفس الخارج من الرئة يعرض له في الحنجرة، أو في الفم، أو بين الشفتين – عارض يضيق طريقه، فلا يحدث صوت إلا بعاملين: أحدهما: النفس. وثانيهما: العارض"(١).

وقد عبّر الشيخ – رحمه الله – عن ذلك بطريقة أوجز وأوضح؛ حين قال: " ومادة الحرف: الصوت، وهو هواء متموج بتصادم جسمين"(٢).

ويظهر من هذا: أن الشيخ – رحمه الله – أخضع المادة الصوتية للمراقبة التحليل والتدقيق فيها مع إدامة النظر؛ للكشف عن حقيقتها وقوانينها، وقد جاءت تحليلاته وأحكامه موافقة – غالبا – لما قررته الأبحاث الصوتية الحديثة.

ثانيا: توصيف المخرج والمقطع والحرف والصفة

●وقال: " وإن عرض للصوت كيفيات مخصوصة بسبب اعتماده على مقطع – أي: مخرج محقق – وهو الذي ينقطع فيه الصوت كجزء من الحلق أو اللسان أو الخيشوم، أو مخرج مقدر وهو الذي لم ينقطع فيه الصوت، بل قدروا له جوف الحلق والفم، سمِّي ذلك الصوت حروفا"(٣).

ونخلص من هذا النص بعدة نقاط مهمة؛ توضح رؤية الشيخ – رحمه الله– في محاور العملية الإنتاجية للصوت:

==

التميمي: علم الأصوات عند سيبويه للمستشرق الألماني أرتور شاده – محاضرة برؤية استشراقية، ومراجعة حديثة ص٨–١٠، بحث منشور بمجلة آداب الرافدين، كلية آداب الموصل، العراق، العدد٥٨، ١٤٣٢هـ/٢٠١٠م

(١) علم الأصوات عند سيبويه ص١٤.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٤.

(٣) نهاية القول المفيد ص٦١.

فقد عبر – بادئ ذي بدء– بمصطلح " كيفيات مخصوصة"، واستعمله مرادفا لما اصطلح عليه الأصواتيون بـ " هيئة النطق"، ويقصدون به: الكيفية التي تتحدد بها الملامح المميزة لكل صوت، والتي يؤدي اختلافها إلى تمايز الصوت عن نظيره، حيث يختلف كل صوت عن أقرب نظير له – من الناحية النطقية– بملمح واحد على الأقل(١).

١– التفات الشيخ الواعي لحقيقة كل من: المخرج ، والمقطع ، والحرف، والصفة، ووضع حدودا جامعة ومانعة لكل منها.

•وإذا أردنا أن نتبين موقف الشيخ – رحمه الله – من هذه القضية، فلا بد أن نقرر أن المخرج والمقطع مترادفان وأنهما مسميان لشيئ واحد، وقد نبَّه الشيخ على ذلك(٢)، وقد جاءت التسميتان باعتبارين، فالمخرج: لأنه المكان الذي يخرج منه الصوت، وهو موضع ظهوره وتمييزه، وهو ما سماه الدرس الصوتي الحديث (Point of articulation) أو Place of) (articulation(٣). أما تسميته مقطعا، فنظرا لأن الصوت ينتهي أو ينقطع في المخرج(٤).

(١) الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ص١٢٣.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٣.

(٣) دراسة الصوت اللغوي ص١١٣، وأيضا: ماريوباي: أسس علم اللغة ص٧٨، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثامنة١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

(٤) وهناك مصطلحات أخرى:" وما عدا المخرج والمنفذ، يوجد عند سيبويه اصطلاحان يردافهما في بعض الأحوال، وهما: الموضع والمعتمد، والمقصود منهما: الموضع الذي يضيق طريق النفس(مع الأصوات الرخوة)، أو يقطع (مع الأصوات الشديدة)" الأصوات عند سيبويه ص٢٤.

وقد قدم الشيخ – رحمه الله – تعريفين للمخرج، حيث قال: " والمخارج: جمع مخرج ... وهو اسم لموضع خروج الحرف ... وقد فسر بعضهم المخرج: بأنه عبارة عن الحيز المولد للحرف، وهو قريب من الأول"(١).

وهذان التعريفان لم يختلفا – قِيدَ أنملة– مع ما ذكره المحدثون، فقد قدم برجشتراسر تحديدا لمصطلح المخرج، يتطابق مع تعريف الشيخ الأول نصا ومعنى، فقال: " والمَخرج أو المُخرج: هو الموضع من الفم ونواحيه الّذي يَخرج أو يُخرج منه الحرف"(٢) . كما اقترح ماريوباي (Mario Pei) (٣)تعريفا آخر، لا يختلف – في جوهره– عن التعريف الثاني للشيخ، وإن اختلفت العبارات إلى حد ما: " وإنّ التمييز بين أصوات اللغة، سواء منها الأنفي أو الفموي يعتمد على استمرار الصوت ودرجة إسماعه، وقوة إنتاجه،

(١) نهاية القول المفيد ص٤٣.

(٢) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية ص١١.

(٣) مستشرق إيطالي أمريكي، ولد١٩٠١/٢/١٦م، هاجر إلى الولايات سنة١٩٠٨م، وأتقن إلى جانب لغته الأم (الإيطالية) الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، الروسية، البرتغالية، واليونانية، واللاتينية. حصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا الأمريكية سنة ١٩٣٧م، وكانت في اللغة السنسكريتية والفرنسية والسلافية القديمة، ثم عمل أستاذا للسانيات والفيلولوجيا عام١٩٥٢م، وصدر أول إنتاج علمي له عام١٩٤١م، تحت عنوان: " اللغة الإيطالية"، وله من الكتب: لغة واحدة للعالَم، معجم اللسانيات، معجم المصطلحات الأجنبية، قصة اللغة ...إلخ، وتوفي بالولايات١٩٧٨/٣/٢م. من ترجمة الباحث من على الشبكة العنكبوتية، موقع ويكبيديا– النسخة الإنجليزية المعتمدة (https://en.wikipedia.org/wiki/Mario_Pei)، وموقع بريطانيات (https://www.britannica.com/biography/Mario-Andrew-Pei).

وفوق كلّ هذا على المخرج. وكلمة المخرج تشير إلى النُّقطةِ المحدّدة في الجهاز النطقي الّتي يَتِمُّ عندها تعديل وضعه"(١) .

●ومن الإشراقات الرائعة لمحمد مكي نصر في هذا النص: التفاته إلى الفرق الدقيق بين المخرج المحقق والمخرج المقدر؛ مما ينم عن إدراك صحيح وعميق لعملية إنتاج الصوت اللغوي، وقد أشار إلى ذلك في مواضع متفرقة من كتابه، منها – إضافة إلى النص الذي بين أيدينا– قوله في تعريفه للحرف: " والحرف معناه في اللغة: الطَّرف. وفي الاصطلاح: صوت اعتمد على مقطع؛ أي: مخرج محقق: وهو أن يكون اعتماده على جزء معين من أجزاء الحلق، واللسان، والشفتين، أو مقطع مقدر: وهو هواء الفم؛ إذ الألف لا معتمد له في شيء من أجزاء الفم، بحيث إنه ينقطع في ذلك الجزء. والمراد بالحرف: حرف المبنى من الحروف الهجائية، لا حرف المعنى مما هو مذكور في كتب العربية "(٢).

وقد طبق ذلك عمليا على حروف المد الثلاثة (الألف – الياء – الواو) إذا كانت ساكنة مسبوقة بحركة من جنسها، وهو ما يسمى – في عرف الدراسات التجويدية – بحروف المد واللين؛ مبينا حقيقتها النطقية، وكيفية تقدير المخرج حال النطق بها، وهذا النص – على طوله – يوضح ذلك: " وتسمى هذه الحروف الثلاثة حروف مد ولين؛ لأنها تخرج بامتداد ولين من غير كلفة على اللسان لاتساع مخرجها، فإن المخرج إذا اتسع انتشر الصوت فيه وامتد ولان، وإذا ضاق انضغط فيه الصوت وصلُب. ويقال لها أيضا: الحروف الجوفية والهوائية؛ لأن مبدأ أصواتها مبدأ الحلق، يمتد ويمر

(١) أسس علم اللغة ص٧٨.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٤.

على كل جوف الفم والحلق – وهو الخلاء الداخل فيه – فليس لهن حيز محقق ينتهين إليه كما كان لسائر الحروف، بل ينتهين بانتهاء الهواء – أعني هواء الفم وهو الصوت – ولذا يقبلن الزيادة والنقصان في مراتبها"(١).

ومن الزيادات المتميزة التي تحسب للشيخ – رحمه الله- في تحقيق معنى المخرج المحقق والمقدر: تفريقه بين مخرج الحروف الثلاثة إذا كانت مدية أو غير مدية، واهتداؤه إلى تحقيق المخرج حال مديتها، وتقديره في غير ذلك، قال: " وحيث لزمت الألف هذه الطريقة المعتادة – أي: من كونها ساكنة، وحركة ما قبلها من جنسها، وهي الفتحة – لم يختلف حالها من أنها تكون دائما هوائية، بخلاف أختيها؛ فإنهما إذا فارقتاها في صفة المشابهة (أن تكونا مسبوقتين بحركة مجانسة) صار لهما حيز محقق، ومن ثم كان لهما مخرجان: مخرج حال كونهما مديتين، ومخرج حال كونهما غير مديتين"(٢).

ونعود إلى النص الأول الذي اقتصر فيه الشيخ – رحمه الله – على ذكر الألف، باعتبار مخرجها مقدرا أبدا، فيكشف لنا أصالة فكره الصوتي، وعمق مادته العلمية، ودقته في الاستشهاد، حيث اقتصر على ذكر الألف دون أختيها – الواو والياء إذا سكنتا وسبقتا بحركة من جنسيهما- وذلك لأن الألف لا تكون إلا ساكنة مسبوقة بحركة من جنسها (يعني مدية أبدا)، فيتعين أن يكون مخرجها مقدرا، ويستحيل أن يكون لها مخرج محقق، بخلاف الواو والياء، حيث يتنوع تحقيق المخرج وتقديره معهما طبقا لحالتهما من حيث المدية وعدمها – كما هو موضح في النص السابق.

(١) السابق ص٤٩.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٩، ٥٠.

والأمر الآخر الذي يدعونا إلى مزيد من التأمل والنظر في فكر الشيخ الصوتي، هو: أن الألف تعد أوسع حروف المد الثلاثة وأخفاها؛ لاتساع مخرجها – كما ذكر سيبويه[١] – ومن ثم؛ فإن قضية تقدير المخرج حال النطق بها أظهر من غيرها وأوضح، وقد وضَّح المرعشي[٢] تلك الحقيقة الصوتية على هذا النحو: " الألف حرف يتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الواو والياء المدِّيَّيْن؛ لأنك قد تضم شفتيك في الواو، وقد ترفع في الياء لسانك قبل الحنك فيحصل فيهما عمل عضو، ولا كذلك الألف، فإنك تجد فيه الحلق والفم منفتحين غير معترضين على الصوت بضغط، ولا يحصل فيه عمل عضو"[٣].

ومن ثم؛ لم يكن بدعا أو غفلا أن يبدأ شيوخنا – أول ما يبدأون – في تعليم الناشئة في الكتاتيب التي انتشرت في ريف مصر وصعيدها قراءة المفردات والكلمات ثلاثية مضبوطة بحركة الفتح (أعني على وزن فَعَلَ) معتلة الوسط

---

(١) الكتاب ٤/٤٣٦.

(٢) محمد بن أبي بكر المرعشي؛ المعروف بساجَقْلي زاده – فقيه حنفي من أهل مرعش – بلدة بين الثغور وبلاد الشام– مشارك في معارف أهل عصره، رحل إلى دمشق ودرس التفسير والحديث، وأخذ التصوف على يد الشيخ عبد الغني النابلسي، كما أخذ عن الشيخ حسن المرعشي، وحمزة أفندي الدراندي، ترك للمكتبة العربية والإسلامية ما يربو على ٣٠ مؤلفا، منها: جهد المقل وشرحه بيان جهد المقل في التجويد. رسالة في علم البلاغة، رسالة في علم الكلام، رسالة الفرح والسرور في والدي الرسول ... إلخ، وتوفي بمرعش ودفن في قبليها١١٤٥هـ، وقيل:١١٥٠هـ. مختصرا من الأعلام٦/٦٠، اسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين٢/٣٢٢،٣٢٣، مؤسسة التاريخ الإسلامي، بدون تاريخ.

(٣) جهد المقل ص١٢٢، دراسة وتحقيق: د. سالم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

بالألف (نحو: قال، كال، جال، صال ...إلخ) – وعلى هذا النحو سرنا – تيسيرا للقراءة. فإن ذلك مما توارثوه كابرا عن كابر، وأحسوا به ولاحظوه، وإن لم يدرك الكثير منهم التحريرات والتعليلات العلمية التي اصطلحت عليها الصناعة الصوتية في عصرنا الحاضر، وإنما اعتمدوا على التلقي والمشافهة والممارسة، التي هي عدة الطالب المثلى في رحلته مع آي الذكر الحكيم؛ تجويدا وترتيلا، تعليما وتعلما.

خلاصة رؤية

وبعد هذا التحليل يمكننا أن نقول: إن الحرف – في رؤية الشيخ – لا بد أن تتوافر فيه مجموعة من الشروط، حتى يصح أن يطلق عليه مصطلح الحرف، وهذه الشروط تتلخص في: أن يكون صوتا (النفس + القصد(الإرادة) + العائق (كليا أم جزئيا) + الاعتماد على مقطع (محققا أم مقدرا) + الأثر السمعي).

والسؤال الذي يرد على الذهن، هل كان الشيخ – رحمه الله – يعتبر الأصوات هي الحروف، والعكس صحيح؟ والإجابة على هذا السؤال تقتضي أن نقرر: أن علماء العربية الأول كانوا يطلقون تسمية الحروف على الأصوات – كما فعل سيبويه وابن جني[١] – وهذا يعني أنهم عبروا عن

(١) من ذلك قول سيبويه أثناء حديثه عن صفات الأصوات: " ... فالمجهورة: حرف أشبع الاعتماد في موضعه ... وأما المهموس: فحرف ... ومنها المنحرف: وهو حرف ... ومنها المكرر: وهو حرف ... ومنها الهاوي: وهو حرف ..." الكتاب٤/٤٣٤،٤٣٥. وقصده في مثل هذا: الصوت. وابن جني يقول: " ... وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها ... وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف ان تأتي به ساكنا لا متحركا". سر صناعة الإعراب١/٦. وقصده – أيضا – في مثل هذا: الصوت.

الصوت المنطوق المسموع، وعن علامته المخطوطة المرئية بلفظ واحد، وهو الحرف – وهذا ما سار عليه الشيخ محمد مكي نصر[١]– : " ولكن هذا التقصير هو خلل في الاصطلاح أكثر من كونه خللا في الإدراك، ويقتضي الإنصاف أن نعترف بأن كثيرين من العلماء الغربيين لم يعتادوا في هذه النطقة تعبيرا واضحا إلى الآن، حتى تجد غير واحد منهم يتكلم عن: (Pronunciation of letters) أو (Pronunciation des letters)، وإنما الصحيح: (Pronunciation of sounds) أو (Pronunciation des sons)"[٢] .

والمصطلحان الأولان هما المقابل الأجنبي (الإنجليزي والفرنسي) للمصطلح العربي نطق الحروف، بينما المصطلحان الآخران هما المقابل الأجنبي (الإنجليزي والفرنسي) للمصطلح العربي نطق الأصوات.

والذي يجب التنبه إليه: أن الحروف (الرموز الكتابية Written symbols) إنما هي صور للأصوات (الحقائق المسموعة Spoken facts)، وأن إطلاق أحدهما على الآخر من باب التوسع والمسامحة في التعبير، ولا أدل على ذلك من تعدد الصور النطقية للصوت واتحاد الصورة الكتابية؛ كما هو الشأن في الألف الممالة، والألف المفخمة، والألف المدية ... الخ. وإذا كان الحرف في مفهوم السابقين له عدة معان، من أهمها: الصوت المنطوق، والرمز المكتوب، والعربي عندما يتحدث عن الحرف فإنه يعني الصوت

(١) من ذلك قوله: " ثم اعلم أن الحروف الهجائية قسمان: أصلية وفرعية. أما الأصلية: فهي تسعة وعشرون حرفا على ما هو المشهور ...". نهاية القول المفيد ص٤٤، وقصده في مثل هذا: الصوت، فهو لا يبتعد كثيرا عن السابقين.

(٢) الأصوات عند سيبويه ص٢١.

اللغوي، فإنه ينبغي تحرير المصطلحات العلمية، وأن يقيد مصطلح الصوت للحقيقة المسموعة، بينما يخصص مصطلح الحرف للصورة الكتابية؛ حتى لا يؤدي هذا الخلط إلى الغلط.

" والفرق بين الصوت وبين الحرف: هو فرق ما بين العمل والنظر، أو بين المثال والباب، أو بين أحد المفردات والقسم الذي يقع فيه. فالصوت عملية نطقية تدخل في تجارب الحواس – وعلى الأخص حاستي السمع والبصر – يؤديه الجهاز النطقي حركة، وتسمعه الأذن، وترى العين بعض حركات الجهاز النطقي حين أدائه. أما الحرف: فهو عنوان مجموعة من الأصوات يجمعها نسب معين، فهو فكرة عقلية؛ لا عملية عضلية. وإذا كان الصوت مما يوجده المتكلم، فإن الحرف مما يوجده الباحث"(١) .

●قال: " وإن عرض للحروف كيفيات أُخَر في الواقع بسبب، نحو: جري الصوت وعدمه، وقوة الاعتماد على المخرج وعدمها – سميت تلك الكيفيات صفات"(٢).

ومن إشراقاته الرائعة – أيضا – في هذا الكتاب: التفاته إلى الكيفيات المصاحبة لتكون الصوت في مخرجه، وهو مايسمى بالصفات (Manners of artculation). وقد قدم تعريفا وافيا للصفات على هذا النحو: " كيفية

(١) د. تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية ص١٢٩، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة١٤٢١هـ/٢٠٠١م، وقارن بـ عن علم التجويد القرآني ص٢٩-٣١. حيث فرق بين المصطلحين (الصوت- الحرف) على النحو السابق، وأضاف مصطلحا ثالثا وهو الرمز، ويُقصد به كل ما يرمز ويشير إلى حقيقة صوتية، وعلى هذا فالرمز أعم، ويشمل الحرف والصوت؛ لأن كلا منهما رمز لحقيقة صوتية، سواء أكانت رسما، أم كتابة، أم صوتا ...إلخ. ص٣١- بتصرف.

(٢) نهاية القول المفيد ص٦١.

عارضة للحرف عند حصوله في المخرج، من الجهر، والرخاوة، والهمس، والشدة، ونحوها. وبذلك يتميز بعض الحروف المتحدة في المخرج عن بعض، فهي لفظ يدل على معنى في موصوفه؛ إما باعتبار محله أو باعتبار ذاته؛ فالأول: كالجوفية، والحلقية، واللهوية، إلى آخره. والثاني: كالجهر، والهمس، وأمثالهما من كل صفة لازمة للحرف في جميع أحواله؛ أي: سواء كان ساكنا، أو محركا بأي حركة"(١).

وهو تعريف شاف واف لمفهوم الصفة، يدل على ملاحظة دقيقة ومنهجية وصفية في الدراسة، لم نر له مثيلا عند كثير من دراسي أصوات العربية وعلماء التجويد، وهو تصور تدعمه الصوتيات الحديثة، يقول برجشتراسر: " وعلى ذلك؛ فلا يكفي لمعرفة الحرف وتمييزه تحديد المخرج وحده، دون علامة ثانية، هي: صفة الحرف"(٢) .

وقد أشار إلى أن لهذه الصفات ثلاث فوائد: الفائدة الأولى: تمييز الحروف المشتركة في المخرج. الفائدة الثانية: معرفة القوي من الضعيف؛ ليعلم ما يجوز أن يدغم وما لا يجوز. الفائدة الثالثة: تحسين لفظ الحروف المختلفة المخارج. قال – رحمه الله –: " فقد اتضح لك بهذا أن ثمرات معرفة الصفات : التمييز، والتحسين، ومعرفة القوة والضعف، فسبحان من دقت حكمته في كل شيء!"(٣) .

(١) نهاية القول المفيد ص٦٣.

(٢) التطور النحوي للغة العربية ص١٣.

(٣) نهاية القول المفيد ص٦٢.

" فصفات الحروف – إذن – هي كيفيات مصاحبة لتكون الحروف في المخرج، سواء كانت تبين مرور الهواء في نقطة المخرج، أم توضح عملية نطقية ثانوية تشكل جزءا مهما في تكون الصوت وتميزه عن غيره"(١) .

وقد أشار الشيخ – رحمه الله – إلى أهم الصفات الفارقة في العملية الإنتاجية للصوت، وهما:

ثالثا: الجهر والهمس

●قال: " ثم إن النفس الخارج الذي هو صفة حروف، إن تكيف بكيفية الصوت حتى يحصل صوت قوي: كان الحرف مجهورا، وإن بقي بعضه بلا صوت يجري مع الحرف: كان الحرف مهموسا"(٢).

حظيت هذه الظاهرة بعناية الشيخ – رحمه الله – لما لها من شأن كبير في تمييز الأصوات اللغوية، والتفريق بين الأصوات المتحدة في المخرج، وسوف نفرد لها الحديث في مبحث الصفات.

رابعا: الشدة والرخاوة

●قال: " ... وأيضا إذا انحصر صوت الحرف في مخرجه انحصارا تاما، فلا يجري جريانا أصلا، يسمى شديدا، فإنلك لو وقفت على قولك: الحج، وجدت صوتك راكدا محصورا، حتى لو أردت مد صوتك لم يمكنك، وأما إذا جرى الصوت جريانا تاما ولم ينحصر أصلا، فإنه يسمى رخوا كما في الطش، فإنك لو وقفت عليه وجدت صوت الشين جاريا تمده إن شئت، وأما إذا لم يتم الانحصار ولا الجري، فيكون متوسطا بين الشدة والرخاوة كما في

(١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص١٠٩.

(٢) نهاية القول المفيد ص٦١.

الظل، فإنك لو وقفت عليه وجدت الصوت لا يجري مثل جري الطش، ولا ينحصر مثل انحصار الحج، بل يخرج عن حد الاعتدال بينهما"[١].

أدرك الشيخ – رحمه الله – في هذا النص: أن تحديد درجة انفتاح المخرج عند مرور الهواء به؛ من الجوانب الأساسية في عملية إنتاج الصوت اللغوي، وأنه من العوامل المؤثرة في تنوع الأصوات واختلاف جرسها، وقد قسم الأصوات – تبعا لهذا الاعتبار – إلى ثلاثة أقسام:

١- الصوت الشديد: ويسميه المحدثون الانفجاري (Explosive)، ومنهم من سماها " انسدادية" (Occlusive)، ومنهم من سماها " الوقفات" (Stops)، ومنهم من سماها " آنية"[٢]. وهو الذي يتكون من: انحباس النفس عند النطق بالصوت لتمام قوته، وذلك لتمام قوة الاعتماد على مخرجه. وبيان ذلك: " أن الأصوات الانفجارية تتكون بأن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبسا تاما في موضع من المواضع (المخرج) ، وينتج عن هذا الحبس أو الوقف، أن يضغط الهواء؛ ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة، فيندفع الهواء محدثا صوتا انفجاريا"[٣].

وهذا يعني أن الصوت الانفجاري يمر بثلاث مراحل: ١- حبس الهواء. ٢- إطلاق الهواء. ٣- الصوت الذي يتبع الإطلاق.

---

(١) نهاية القول المفيد ص٦٢،٦١.

(٢) علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢٢٤.

(٣) علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي- ص١٥٣.

٢- الصوت الرخو: ويسميه المحدثون الاحتكاكي (Fricative- Spirant). ويتكون " بأن يضيق مجرى الهواء الخارج من الرئتين في موضع من المواضع، بحيث يحدث الهواء في خروجه احتكاكا مسموعا"[(١)].

وهذا يعني أن الصوت الرخو أو الاحتكاكي يمر – أيضا – بثلاث مراحل: ١- حدوث تقارب شديد بين عضوي النطق. ٢- ينتج عنه تضييق لمجرى الهواء الخارج من الرئتين. ٣- يؤدي إلى حدوث احتكاك أو حفيف مسموع عند خروج الصوت.

الصوت المتوسط: ويسميه المحدثون المائع (Liquide). وهي التي بين الشدة والرخاوة، حيث لا يتم انطلاق الصوت انطلاقا حرا، ولا يتم حبسه حبسا تاما – كما ذكر الشيخ[(٢)]– بل يخرج عن حد الاعتدال بينهما. وهي وجهة نظر تتفق مع ما ألمح إليه المحدثون.

وملاحظة الشيخ لامتداد الصوت في الرخو وعدم امتداده مع الشديدة ملاحظة صحيحة تنسجم مع وجهة النظر الصوتي الحديث، حيث وصف علماء الأصوات المحدثون الأصوات – على أساسها – الأصوات الشديدة بأنها آنية (وهي تقابل عندهم المصطلح الأجنبي Momentary sounds، وترجمته: الأصوات اللحظية)، والأصوات الرخوة بأنها متمادة

(١) السابق ص١٧٢.

(٢) قال: " ... والتي بين الرخوة والشديدة: إذا نطق بها لم يجر الصوت معها جريانه مع الرخوة، ولم ينحبس انحباسه مع الشديدة. وتسمى هذه الحروف بينية؛ أي: بين الشديدة والرخوة؛ لجري بعض الصوت معها وانحصار بعضه، فنسبت إلى بين بين، وهو محل التوسط بين الشيئين". نهاية القول المفيد ص٦٨.

(وهي تقابل عندهم المصطلح الأجنبي Continuant sounds، وترجمته: الأصوات المستمرة [١].

ولم يكن هذا المصطلح الصوتي الحديث (آنية، متمادة " زمانية") بعيدا عن ذهن الشيخ – رحمه الله – فقد نقل – عن حق – ما يفيد وعيه التام وإدراكه الكامل لحقيقة العملية النطقية؛ عند التلفظ بالصوت الشديد والرخو على حد سواء [٢].

ونخلص من هذا العرض والتحليل إلى حقيقة مفادها: أن الشيخ – رحمه الله – كان ملما بحقيقة العملية النطقية؛ مدركا للعناصر الأساسية المكونة للصوت اللغوي، محيطا بالفروق الدقيقة بين تلك العناصر، منطلقا من رؤية تتفق مع ما قرره الدرس الصوتي الحديث. وقد انبثقت تلك الرؤية من نظرة متكاملة– إدراكا منه بأن عملية إنتاج الصوت عملية مركبة ومعقدة– وقد عولجت فيها تلك العملية معالجة علمية دقيقة، تحقق لها الاطراد والشمول.

ولست مبالغا إن قلت: إن إشارات الشيخ – رحمه الله– وإلماحاته الواعية في هذا الباب، تنبئ عن دقة في الملحظ، وعمق في التفكير، ورغبة صادقة في تجويد أصوات القرآن الكريم؛ " حيث يعتمد تصنيف الأصوات اللغوية – من

(١) علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٢٢٤، علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي – ص١٥٣.

(٢) قال المرعشي في شرح المواقف: " إن الحروف الشديدة آنية لا توجد إلا في آن حبس النفس، وما عداها زمانية يجري فيه الصوت زمانا، وهي متفاوتة في الجريان؛ إذ الحروف الرخوة أتم جريانا من الحروف البينية، وحروف المد أطول زمانا من سائر الحروف الرخوة". نهاية القول المفيد ص٦٨.

الناحية الفسيولوجية أو النطقية- على المعرفة الدقيقة بأعضاء النطق، وعلى الفهم العلمي للعملية الكلامية"[١].

ويمكن أن أقول: إن الشيخ – بصنيعه هذا- قد وضع قدمه على المسار الصحيح في مثل هذه الدراسات؛ لأن معالجة الصامت – مخرجا وصفة- ليتحقق المبتغى من فن الأداء القرآني- جودة القراءة، وجمال التلاوة- لن تتم – وأقول لن تتم- إلا بعد الوقوف على حقيقة الصوت، وكيفية إنتاجه، والجزئيات المرتبطة باندفاع الهواء أثناء عملية التنفس، والأعضاء التي تشارك في إتمام تلك العملية.

(١) مدخل إلى علم اللغة ص٣٣.

الفصل الثاني: الصوت اللغوي مفردا – تأصيل وتحليل -

المبحث الأول: مخارج الحروف

درس الشيخ – رحمه الله– المخارج دراسة عميقة ومستفيضة، وكان في تعامله مع تلك القضية حريصا على وضع أسس واضحة ومحددة، فنراه يتأمل كل جزئية من جزئياتها، محاولا سبر غورها، والكشف عن حقيقتها. ولا أعدو الحقيقة – إذا قلت– أنه كان على وعي بأن للمخارج دورا بالغا في تكوين منظومة الصفات، وهما معا يشكلان الأساس الذي يقوم عليه بناء التطريز اللغوي في منهج التشكيل الصوتي، وفي سبيل ذلك عالج عددا من القضايا المتعلقة بالمخارج:

أولا: عدد المخارج

تعرض الشيخ – رحمه الله – إلى عدد مخارج الحروف، وعرض فيها ثلاثة مذاهب، على النحو التالي:

١– مذهب الخليل بن أحمد وأكثر النحويين وأكثر القراء، ومنهم ابن الجزري: أنها سبعة عشر مخرجا.

٢– مذهب سيبويه ومن تابعه، ومنهم الشاطبي: أنها ستة عشر مخرجا.

٣– مذهب قطرب والجرمي وابن كيسان والفراء: أنها أربعة عشر مخرجا[١].

(١) نهاية القول المفيد ص٤٨.

أساس الاختلاف

أوضح الشيخ – رحمه الله – سبب اختلاف علماء اللغة والقراءات في عدد مخارج الحروف، حيث قال: " أما من جعلها سبعة عشر، فجعل في الجوف مخرجا، وفي الحلق ثلاثة مخارج، وفي اللسان عشرة، وفي الشفتين اثنين، وفي الخيشوم واحدا. ومن جعلها ستة عشر أسقط الجوف وفرق حروفه؛ فجعل الألف من أقصى الحلق، والياء من وسط اللسان، والواو من الشفتين. ومن جعلها أربعة عشر أسقط الجوف كسيبويه، وجعل مخارج اللسان ثمانية؛ بجعل مخرج اللام والنون والراء مخرجا واحدا"(١).

ويبدو أن أساس الاختلاف بين العلماء: هو التفصيل وتقسيم المخرج الواحد إلى عدة مخارج، ويؤيد ذلك ما فعله سيبويه والجمهور، حيث جعل لكل حرف من الحروف الثلاثة (اللام، والنون، والراء) – وهن موضع الخلاف – مخرجا مستقلا ومتمايزا في اللسان(٢)، بينما جعل لها قطرب ومن تابعه مخرجا واحدا منقسما إلى ثلاثة مخارج جزئية، وهو طرف اللسان. كما أن الخليل جعل للحروف المدية معتمدا ومخرجا مستقلا في الجوف(٣)، بينما وزعها سيبويه وقطرب على المخارج الأخرى، فجعلوا مخرج الألف من أقصى الحلق مع الهمزة والهاء، والواو المدية من مخرج غير المدية (الشفتين)، وكذلك الياء (من وسط اللسان)(٤).

(١) نهاية القول المفيد ص٤٨.
(٢) سيبويه: الكتاب ٤/٤٣٣.
(٣) معجم العين ١/٥٧.
(٤) الكتاب ٤/٤٣٣.

مذهب الشيخ – رحمه الله–

اعتمد الشيخ مذهب الخليل بن أحمد في عدد المخارج، حيث قال بعد أن ذكر مذاهب علماء العربية: " وأنا أتبع في هذه الرسالة – إن شاء الله تعالى– مذهب الخليل بن أحمد؛ تبعا لابن الجزري"(١). ولم يبدِ سببا لاعتماده مذهب الخليل؛ سوى تأثره بابن الجزري(٢) – شيخ الجماعة، وأستاذ الصناعة–.

ويعني ذلك – في مضمونه – أنه اعتمد مذهب التقسيم وتجزئة المخرج الواحد إلى عدة مخارج، فقد اعتمد مخرجا مستقلا لحروف المد، كما وضع حدودا فاصلة بين الراء واللام والنون في المخرج، فكانت ثلاثة.

ثانيا: طريقة تحديد المخارج

قال – رحمه الله –: " ... فإذا أردت أن تعرف مخرج حرف فسكِّنه أو شدده – وهو الأظهر – ملاحظا فيه صفات ذلك الحرف، وأدخل عليه همزة الوصل بأي حركة كانت، وأصغ إليه السمع، فحيث انقطع الصوت – كان مخرجه المحقق، وحيث يمكن انقطاع الصوت في الجملة – كان مخرجه المقدر "(٣).

---

(١) نهاية القول المفيد ص٤٨.

(٢) قال ابن الجزري: " أما مخارج الحروف: فقد اختلفوا في عددها، فالصحيح المختار عندنا وعند من تقدمنا من المحققين؛ كالخليل بن أحمد، ومكي بن أبي طالب، وأبي القاسم الهذلي، وأبي الحسن بن شريح وغيرهم – سبعة عشر، وهذا الذي يظهر من حيث الاختبار، وهو الذي أثبته أبو علي بن سينا في مؤلف أفرده في مخارج الحروف وصفاتها ..." النشر في القراءات العشر ١٥٨/١ .

(٣) نهاية القول المفيد ص٤٩.

وضح الشيخ – رحمه الله – في هذا النص الكيفية التي يتم بها التوصل إلى مخرج الصوت، وقد قدم آلية بسيطة الاستعمال لمعرفة ذلك، وهي تنحصر في أربعة أمور:

١- تسكين الحرف أو تشديده، وهذا أظهر في تحديد المخرج، وهي التفاتة ذكية من الشيخ – رحمه الله – وذلك أن ضغط المخرج في السكون أقوى منه في الحركة، وفي التشديد أقوى منه في السكون. وإنما اختير السكون أو التشديد في معرفة المخرج؛ لأن المخرج موضع الانضغاط، فما لم يكن الانضغاط قويا لا يظهر محله

٢- إدخال همزة الوصل عليه؛ محركة بأي حركة كانت: وتنحصر وظيفة همزة الوصل في التوصل إلى النطق بالساكن، حيث لا تبدأ العرب بالساكن؛ سواء أكان خفيفا أم مثقلا (مشددا)، ومن ثم؛ فلا يضر كونها محركة بأي حركة كانت.

٣- ملاحظة صفات الحرف المراد تحديد مخرجه: وذلك للتمييز بين الحروف التي تتحد في المخرج أو تتقارب، ولا تتمايز عن بعضها إلا بإحدى صفات الأضداد، مثل: السين والصاد والزاي ...

٤- الإصغاء: وهذا يعني الملاحظة الذاتية الدقيقة؛ حيث لا تتوافر وسائل التمكين الصوتي؛ أدوات القياس، وأجهزة التحليل، والمعامل والمختبرات الصوتية؛ لتحديد نقطة انقطاع الصوت.

ثم يكون من نتائج هذه العملية الصوتية الدقيقة التي أشار إليها الشيخ – رحمه الله – استقرار اللسان في موضعه، وهي صورة نهائية لحركة عضو

النطق، وبها يتم معرفة مخرج الصوت، فيقال: مخرجه من الحلق، أو اللسان، أو الشفتين ...إلخ.

وهذه العملية الصوتية (الديناميكية) التي قدمها الشيخ – رحمه الله – في تحديد المخرج؛ تدل على عمق في دراسته للصوت اللغوي، كما أنها تدل على معرفة عملية دقيقة بكيفية تحديد موضع الصوت، وقد سماها الخليل – من قبل – بـ " تذوق الحروف[١].

وكان ابن جني أكثر تفصيلا وتوضيحا لتلك الآلية – وإن كنا لا نجد مبررا صوتيا في تخصيصه همزة الوصل محركة بالكسر دون غيره؛ لأن حركة الهمزة الداخلة على الصوت المراد تحديد مخرجه – سواء أكانت فتحة أم كسرة أم ضمة – ليست ذا بال؛ لأن المعول عليه: انقطاع الصوت، وهذا ما يتفق مع وجهة نظر الأصوات الحديثة[٢]. ومع ذلك فقد قدم مبررا صوتيا وجيها لتسكين الحرف المراد تحديد مخرجه – حين قال: " وسبيلك إذا أردت اعتبار صدى الحرف (مخرجه) أن تأتي به ساكنا لا متحركا؛ لأن الحركة تقلق الحرف عن موضعه ومستقره، وتجتذبه إلى جهة الحرف الذي هي بعضه، ثم تدخل عليه همزة الوصل مكسورة من قبله؛ لأن الساكن لا يمكن الابتداء به، فتقول: اكْ، اقْ، اجْ، وكذلك سائر الحروف"[٣].

---

(١) العين ٤٧/١.

(٢) هذا الأمر يحتاج – من وجهة نظري – إلى إجراء تحليل معملي للصوائت القصيرة؛ متبوعة بالصوامت الساكنة، ومقدار اتضاح نقطة الانضغاط مع كل منها، لعل ذلك يكشف شيئا جديدا يفسر سر تخصيص ابن جني للكسر دون غيره، وهذا ما نأمل أن يتاح في القريب العاجل في جامعة الأزهر المعمور.

(٣) سر صناعة الإعراب ٦،٧/١.

وبالنظر فيما قدمه علماء العربية؛ يتبين لنا العناصر الدقيقة التي أضافها الشيخ – رحمه الله – إضافة إلى إدراكه الفرق في تحديد المخرج المحقق والمخرج المقدر، وقد جعل ميزان ذلك: انضغاط الصوت في المخرج، وهذا ما يحدث في الصوامت، أما حروف المد: فإن أصواتها لا تنضغظ في موضع انضغاطا ينقطع به الصوت، بل تمتد بلا تكلف إلى أن تقطعه بإرادتك، " ولعل معنى انقطاع الصوت في الجملة: انقطاعه بإرادة اللافظ في مرتبة من مراتب امتداده، من غير أن يقتضي الطبع انقطاعه في مرتبة"(١).

ثالثا: طريقة ترتيب المخارج

للعلماء طريقان في ترتيب مخارج الأصوات:

أحدهما: أن يكون أول المخارج أقصى الحلق، وآخرها الشفتين. وهو ترتيب تصاعدي، يبدأ بأقصى نقطة في آلة النطق، ثم يتدرج صاعدا حتى يصل إلى آخرها.

والآخر: أن يكون أول المخارج خارج الشفتين، وآخرها أقصى الحلق. وهو ترتيب تنازلي، يبدأ بآخر نقطة في الجهاز النطقي، ثم ينحدر حتى يصل إلى أقصى نقطة.

وقد تبنى الشيخ – رحمه الله – المذهب الأول، حيث قال: " ولما كانت مادة الحرف الصوت؛ الذي هو الهواء الخارج من من داخل الرئة متصعدا إلى الفم، رتب العلماء مخارج الحروف باعتبار الصوت، فيقدمون في الذكر ما

(١) جهد المقل ص١٢٤.

هو أقرب إلى ما يلي الصدر، ثم الذي يليه، وهكذا، حتى ينتهي إلى مقدم الفم. وها أنا أذكرها – إن شاء الله تعالى – مرتبة كذلك"(١).

وهذا هو الذي سار عليه علماء العربية(٢)، وتبعهم في ذلك علماء التجويد – ومنهم الشيخ – رحمه الله– وبعض المحدثين(٣).أما المذهب الثاني، فقد سار عليه كثير من علماء الأصوات المحدثين(٤). وهي قضية ليست جوهرية أو فارقة في الدراسة، وإن كانت مبنية عند الشيخ – رحمه الله – على اعتقاد علمي؛ حيث يخرج الهواء المحدث للصوت من الرئة متجها صوب الفم، ومن ثم كان البدء من أقصى الحلق أولى، حيث تبدأ مادة الصوت وعمل الأعضاء في الانطلاق.

" ولا أجد بأسا من ترتيب مخارج أصوات العربية بدءا بالشفتين وانتهاء بالحنجرة، وإن كان جمهور علماء العربية والتجويد قد أخذوا بالترتيب المعاكس، وتابعهم في ذلك بعض المحدثين.

فالبدء بالشفتين هو الترتيب المشهور في كتب علم الأصوات اليوم، والمسألة شكلية"(٥).

---

(١) نهاية القول المفيد ص٤٩.

(٢) الخليل بن أحمد: العين١/٥٧،٥٨، سيبويه: الكتاب٤/٤٣٣،٤٣٤، ابن جني: سر صناعة الإعراب١/٤٦-٤٨.

(٣) د. محمد حسن حسن جبل: المختصر في أصوات العربية ص٥٢-٥٤، د. عبد العزيز علام، د. عبد الله ربيع: علم الصوتيات ص٢٦٨-٢٧٦، د. عصام نور الدين: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٢٠٩-٢١٦.

(٤) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص٤٧-٧٩، د. كمال بشر: علم الأصوات ص٢٤٧،٢٤٨، د. أحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي ص٣١٥-٣١٩، د. غانم قدوري الحمد: المدخل إلى علم أصوات العربية ص٩٥.

(٥) المدخل إلى علم أصوات العربية ص٨٩.

واستقصاء الشيخ – رحمه الله – لمثل هذه الجزئيات نابع من انشغاله التام بهذه القضية – مخارج الحروف – ودراستها على أحسن وجه ممكن، لاستشعاره بالعلاقة الوثيقة بين ما يمكن الوصول إليه في هذا الجانب والقوانين المعيارية الضابطة للتلاوة القرآنية، إذ إن جل تعليلاتها تئول إليه.

رابعا: الحروف الأصلية وعددها

عدد الأصوات من القضايا الصوتية الّتي اهتمّ بها علماء العربية والتجويد قديما وحديثا، وقد تبنى الشيخ – رحمه الله – وجهة نظر اللغويين المشهورة، قال:"... أما الأصلية؛ فهي تسعة وعشرون حرفا على ما هو المشهور"(١).

وكان الخليل – رائد علم الأصوات – أول من لفت النظر إلى تلك القضية، وذكر أنّ حروف العربية تسعة وعشرون حرفا(٢)، وتبعه في ذلك تلميذه النجيب سيبويه(٣) . وقد اقتفى معظم دارسي الأصوات العربية من المتقدّمين خُطى الخليل، ولم يشِذّ أحد إلّا أبو العباس المبرد، حيث عدها ثمانية وعشرين بإسقاط الألف؛ حيث لا تثبت على صورة واحدة، وليست لها صورة مُستقرّة ولم يوافقه ابن جِنّي(٤) .

أمّا أراء المحدثين في عدد الحروف العربية

١– فقد ذهب د. كمال بشر ومن تبعه مذهب المبرد؛ في أنّ الحروف العربية ثمانية وعشرون، قال: " الأصوات الصامتة في العربية ثمانية

(١) نهاية القول المفيد ص٤٤.
(٢) العين ٥٧/١.
(٣) الكتاب ٤٣١/٤.
(٤) سر صناعة الإعراب ٤١/١.

وعشرون صوتا، بوصفها وحدات (Units) تبدأ بالهمزة، وتنتهي بالواو والياء– على ما هو معروف"[١] . وذلك يعني أنه أسقط الألف من الأصوات الصامتة، حيث لا تكون إلا حرف علة، بخلاف الواو والياء، كما أنها لا تكون أصلا، بل هي دائما منقلبة عن واو أو ياء.

٢– وكان د. حسن جبل أكثر تحديدا وتوضيحا حين قال: " ... وعلى ذلك فالأصوات اللغوية العربية الصامتة ... عددها ثمانية وعشرون، أولها: الهمزة (لا الألف)، وبعدها الباء والتاء .. وآخرها الهاء، ثم الواو والياء، إذا كانتا متحركتين، أو ساكنتين بعد فتح"[٢] . وذلك يعني أن أسقط حروف العلة – قصيرة أم طويلة– ولم يعتد إلا بالسواكن وأنصافها، وهو ما اصطلح علماء الأصوات على تمييزه باسم الصوامت.

٣– وكان د. أحمد مختار عمر أكثر تفصيلا: " أولا فونيمات اللغة العربية الفصحى: تحتوي اللغة العربية الفصحى على خمسة وثلاثين فونيما تركيبيا، موزّعة على النحو التالي:

١– ثلاثة فونيمات للعِلل القصيرة (Short Vowels). وهو يقصد: الفتحة – الكسرة – الضمة.

---

(١) علم الأصوات ص٢٤٣، وقد وافقه على ذلك د. تمام حسان، وأضاف جديدا حيث التفت إلى أصوات العلة القصيرة، فكانت عدة الحروف الأصلية عنده واحدا وثلاثين: " ... ومن المعروف أن حروف الهجاء الصحيحة في العربية الفصحى ثمانية وعشرون حرفا، وأن حروف العلة ثلاثة، لكل منها كميتان، إحداهما: قصيرة أو حركة، والثانية طويلة أو لين، فمجموع الحروف في العربية الفصحى واحد وثلاثون حرفا بناء على هذا الفهم". مناهج البحث في اللغة ص٩٠، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة١٣٧٤هـ/١٩٩٠م، وقد عدها – أيضا – ثمانية وعشرون د. عصام نور الدين، بإسقاط الألف، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا – ص٢٠٤. ووافقه على ذلك: د. خليل العطية: في البحث الصوتي ص٣٢.

(٢) المختصر في أصوات اللغة العربية ص١٥٤،١٥٥.

٢- ثلاث فونيمات للعِلل الطويلة (Long Vowels) . وهو يقصد: الألف – الياء – الواو.

٣- فونيمان لأنصاف العِلل (Semivowels). وهو يقصد: الواو والياء إذا أتبعتا بحركة، نحو: وَلد و يَكتب، أو سكنتا وانفتحا ما قبلهما، نحو: بَيْت و خَوْف. .

٤- سبعة وعشرون فونيما للسواكن (Consonants) "[١] . ويمثلون الأبجدية العربية في صورتها المعروفة اليوم دون إدراج الصوائت وأشباهها.

وكان الأولى أن يقول: إن اللغة العربية الفصحى تحتوي على أربعة وثلاثين فونيما تركيبيا، حيث تبلغ عدة السواكن – بعد حذف العلل (قصيرة وطويلة) وأنصافها، وهن ثمانية- ستا وعشرين، لكنه اعتبر اللام المفخمة فونيما مستقلا قائما بذاته، وهو ما لم أجده – في حدود بحثي واطلاعي -[٢] .

---

(١) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٣.

(٢) ويؤيد ذلك الاستدراك ما قرره د. حسن جبل، حيث قال: " أما في لغتنا: فهناك ٣٤ أربعة وثلاثون صوتا لغويا (حرفا) متميزة ومستعملة، هي: الهمزة ب، ت ... و، ي، ثم ألف المد، وواو المد، وياء المد، ثم الفتحة، والضمة، والكسرة". المختصر في أصوات اللغة العربية ص ٤٩، ٥٠. أما اللام المفخمة فقد عدها الشيخ الجريسي- ومن قبله علماء العربية- أحد الحروف الفرعية الفصيحة الواردة في القرآن، فهي تمثل – في اصطلاح علم الصوتيات الحديث – صورة صوتية (Allophone) لصوت اللام، وليست فونيما مستقلا قائما بذاته. " أما الفرق بين اللام المرققة والمغلظة: فهو في وضع اللسان في كل منهما؛ لأن اللسان مع المغلظة يتخذ شكلا مقعرا كما هو الحال مع أصوات الإطباق ... لهذا نعد نوعي اللام صوتا واحد". د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٥٦، وقارن بـ علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي ص١٧٠.

==

٥- وكانت نظرة أحد علمائنا المحدثين أوسع وأشمل؛ إذ نظر إلى القضية ذاتها من الناحيتين (الفوناتيك والفونولوجيا)، حيث قال: " ... وبناء على ذلك يكون عدد الأصوات في العربية على النحو التالي:

أ- (٢٩) تسعة وعشرون صوتا من الناحية الفونولوجية، أي من وجهة نظر علم الفونولوجيا.

ب- (٦) ستة أصوات مُستحسنة من الناحية الصوتية، أي من وجهة نظر علم الصوتيات.

ج- (٨) ثمانية أصوات غير مُستحسنة من الناحية الصوتية أيضا. وبغضّ النظر عن هذه الأصوات الثمانية المُستقبحة، فإنّ عدد الأصوات عند الفونولوجيين يكون (٢٩) تسعة وعشرين صوتا؛ على أنّه عند علماء الصوتيات يكون خمسة وثلاثين صوتا "[(١)] .

٦- وذهب د. الغامدي مذهبا جديدا، حين قال: " في اللغة العربية ستة وثلاثون صوتا، منها ستة صوائت مفردة، وصائتان مزدوجان. ثلاثة من الصوائت المفردة قصيرة، ولكل منها نظير طويل. وعدد

==

ويبدو أن د. عمر قد بنى رأيه في عدد صوامت العربية؛ متأثرا ب Ferguson، فهو أول من اعتبر اللام المفخمة فونيما مستقلا، وقدم أدلته على هذا. وقد قدم الباحث هذه الأدلة والاحتمالات بين يدي القارئ. دراسة الصوت اللغوي ص٣٣١-٣٣٥.

Ferguson, Charles: The emphatic L in Arabic, PP.446-452, language, Vol. 32, No. 3 (Jul. - Sep. 1956).

(١) عن علم التجويد القرآني ص٤٠. وهذا الرأي محل نظر؛ لأن جملة الأصوات العربية تبلغ – من الناحية الفونولوجية- أربعة وثلاثين صوتا، على الصحيح مما قررناه، كما أن الأصوات الستة المستحسنة تعتبر – في معظمها من وجهة نظر المحدثين- صورا صوتية، وليست وحدات مستقلة متمايزة، وهو ما اعترف به د. علام نفسه، ينظر ص٤٥ من البحث نفسه.

الصـوامت٢٨..."[١]. وإذا أضـفنا إلـى جملـة الصـوامت (٢٨)، الصـوائت الستة، صـارت أربعـة وثلاثـين، لكنـه فـرق – مـن الناحيـة الفيزيائيـة– بـين الصائتين المزدوجين، فجعلهما في حال سكونهما وانفتاح ما قبلهما (يوم– بيـت)، صـوتين مسـتقلين، وفـي حـال تحركهمـا (وَابـل– يَـابس) صـوتين آخَرَيْن، فصارت ستا وثلاثين[٢].

وفي ضوء الحقائق المبينة في أعلاه، يمكن أن نقرر: أن الشيخ – رحمه الله – قد تبنى وجهة نظر علماء اللغة – الخليل، سيبويه، ابن جني– في اعتبار الحروف الأصلية تسعة وعشرين، وأقول على الرغم من تأثره بوجهة نظر علماء اللغة الأوائل، إلا أننا إذا أنعمنا النظر في كلام الشيخ – رحمه الله – تبين لنا أن عدة الحروف الأصلية – في رأيه – تبلغ (٣١) واحدا وثلاثين حرفا.

وبيان ذلك: أنه فرق بين الياء والواو المديتين وغير المديتين، واعتبر كلا من الحرفين (الياء المدية، والياء غير المدية، والواو المدية، والواو غير المدية) حرفا مستقلا قائما بذاته في المخرج والصفة، وهو ما سماه الدرس الصوتي الحديث بأنصاف العلل (Semi vowels). بينما لم يلتفت علماء اللغة – ولا سيما الخليل وسيبويه – إلى تلك الطبيعة المزدوجة لكل من الياء والواو، واكتفى كل واحد منهما بالنظر إلى جانب من جوانبها، فبينما نظر الخليل إلى مديتها، جعلهما مع الألف في حيز واحد، وقال إنهن جوفية هوائية[٣] . رأينا سيبويه ينظر إلى لينها، فجعل الياء من وسط اللسان مع

(١) الصوتيات العربية ص٨١.

(٢) ينظر في تفصيل ذلك: البحث نفسه ص١٢٥–١٢٩.

(٣) العين ٥٧/١،٥٨.

الجيم والشين، وجعل الواو من الشفتين مع الباء والميم[١] . بينما كانت نظرة الشيخ – رحمه الله – أشمل؛ وإذا أضيف إليهما الصوائت القصيرة كانت (٣٤) أربعة وثلاثين حرفا على الصحيح مما قررناه.

ويطيب – في هذا السياق – أن نقرر: أن إدراك الشيخ – رحمه الله – للطبيعة المزدوجة لصوتي الياء والواو، يعكس اتجاها يتسم بعمق النظرة في تحليل الأصوات، وإدراك خصائصها الصوتية في أحوالها المختلفة. وهو أمر أكدته الدراسات الصوتية الحديثة، يقول د. أنيس: " هناك صوتان بين الأصوات اللغوية يستحقان دائما أن يعالجا علاجا خاصا؛ لأن موضع اللسان معهما قريب من الشبه بموضعه من أصوات اللين، ومع هذا فقد دلت التجارب الدقيقة على أننا نسمع لهما نوعا ضعيفا من الحفيف، وهذا الصوتان هما ما اصطلح علماء العربية على تسميتهما بالياء والواو في مثل: يسر، ينع، ولد، دلو"[٢] .

خامسا: الحروف الفرعية وعددها

أدرك الشيخ – رحمه الله – حقيقة الأصوات الفرعية وكيفية إنتاجها والتلفظ بها، فقال في تعريفها:

" وأما الحروف الفرعية؛ فهي التي تخرج من مخرجين، وتتردد بين حرفين"[٣].

(١) الكتاب ٤/٣٤.

(٢) الأصوات اللغوية ص٤٤، وقارن بـ بعلم الأصوات ص١٦٥-١٦٨.

(٣) نهاية القول المفيد ص٤٥.

وكان سيبويه أول من قسم أصوات العربية إلى أصول وفروع، وقسمها إلى: جيد وردئ، ولم يذكر لها تعريفا[١] . وقد قسمها الشيخ – رحمه الله – إلى فصيح وغير فصيح، وتناول ما ورد من النوع الأول في القرآن الكريم وهو ثمانية أحرف[٢] . أما النوع الثاني فلم يلق عناية من الشيخ – رحمه الله – كما لقي النوع الأول؛ حيث لم يورد حديثا مفصلا حول تلك الأصوات وعددها كما فعل في النوع الأول.

ولعل السبب في ذلك: هو أن الشيخ – رحمه الله – كان يعالج قضايا الصوت خدمة للقرآن الكريم؛ لبلوغ النهاية في إتقان لفظ القرآن الكريم على ما تُلُقِّي من الحضرة النبوية الأفصحية، والوصول إلى غاية التصحيح والتسديد، وهذا هو سر وسمها بالفصاحة وعدمها في مقابل اصطلاح الجودة والرداءة الذي خلعه سيبويه على ذات الحروف. وهذا يدل على أن الشيخ – رحمه الله– " كان على وعي كامل بمستويات الأداء، وبما يمكن أن ينشأ من فروق بين المستوى القرآني، والمستوى الكلامي العام"[٣] .

وكان الشيخ – رحمه الله – موفقا في تعريفه للحرف الفرعي على النحو المذكور، ومتفقا مع ما توصل إليه الدرس الصوتي الحديث، فقد عرفه علماء الأصوات المحدثون: " الحرف الفرعي: هو الصوت الأصلي الذي تتغير صفة من صفاته الصوتية، أو ينتقل مخرجه إلى مخرج صوت مجاور له (يخرج من مخرجين)"[٤]. وهذا ما أكده الشيخ – رحمه الله – بقوله: "

(١) الكتاب ٤/٤٣٢.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٥–٤٧.

(٣) أصوات العربية والقرآن الكريم ص٢٤٨،،٢٤٩.

(٤) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص١٤٩.

ووجه تفرع هذه الحروف: أنها متولدة من امتزاج الحرفين الأصليين"[١] . وهذا الامتزاج يكون في المخرج كما يكون في الصفة.

وكانت إشارة الشيخ – رحمه الله – لها على هذا النحو:

١- الهمزة المسهلة بأنواعها الثلاثة. ٢- الألف الممالة. ٣- الصاد المشمة رائحة الزاي. ٤- الياء المشمة صوت الواو. ٥- الألف المفخمة التابعة لحرف مفخم. ٦- اللام المفخمة. ٧- النون المخفاة. ٨- الميم المسكنة[٢] .

وهذه الأصوات هي التي ذكرها سيبويه دون أن يدخل فيها الميم المسكنة [٣]، أما الميم المسكنة فقد انفرد الشيخ – رحمه الله – بذكرها عن الإمام الطيبي[٤]، حيث قال: " الميم المسكنة، وحكمها حكم النون المخفاة، وهو

---

(١) نهاية القول المفيد ص٤٧.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٥-٤٧.

(٣) الكتاب٤/٤٣٣. كما أنه لم يشر إلى الياء المشمة صوت الواو، واستبدل بها صوتا آخر، هو: الشين التي كالجيم، وأطلق على النون المخفاة مصطلح الخفيفة.

(٤) هو الإمام المقرئ الفقيه الشيخ: شهاب الدين أحمد بن أحمد بن بدر الدين بن إبراهيم الطيبي، اسمه: أحمد، ووالده أحمد، وله ولد من أهل العلم اسمه أحمد. ولد في دمشق في السابع من ذي الحجة٩١٠هـ، وقرأ القرآن بقراءاته والفقه على والده، وأخذ عنه جماعة من الأفاضل، كالشيخ أحمد العيثاوي مفتي الشافعية بدمشق، والشيخ أحمد الوفائي مفتي الحنابلة بها. وله من المؤلفات: " مختصر مناسك ابن جماعة في المذاهب الأربعة"، ومنها: " الزوائد السنية على الألفية"، و " المفيد في علم التجويد"، و " بلوغ الأماني في قراءة ورش من طريق الأصبهاني" وغيرها. وكانت وفاته يوم الأربعاء ١٨ ذي القعدة الحرام٩٧٩هـ، ودفن بباب الفراديس، وقيل: كانت وفاته سنة ٩٨١هـ، ودفن في تربة مرج الدحداح بالقرب من مزار أبي شامة. ينظر: الشيخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة٣/١٠٣-١٠٥، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة ==

أنها إذا أظهرت تكون أصلية، وإذا أدغمت أو أخفيت كانت فرعية؛ وانفرد الطيبي بذكر هذا الحرف ولم أره لغيره"[١] .

وإذا أنعمنا النظر في هذه الأصوات التي ذكرها الشيخ – رحمه الله – تبين أن سبب تفرعها قد يكون ناجما عن المجاورة أو ما سماه المحدثون من علماء الأصوات بالتنوعات الموقعية (Positional variants)[٢] ، وذلك مثل: الصاد المشمة رائحة الزاي، وقد أشار الشيخ – رحمه الله – إلى ذلك بقوله: " ... وإنما فعلوا بها – أي: الصاد – ذلك ؛ لقرب الزاي من الصاد، إذ هما من مخرج واحد ومن حروف الصفير"[٣] .

وكما هو الشأن في النون المخفاة أو الميم المسكنة، فالنون المخفاة – مثلا– تظهر عندما

تجاور عددا من حروف الفم. وبيان ذلك: أن النون التي تأتي ساكنة متبوعة بكاف تخرج من مخرج الكاف مع احتفاظها بالغنة، وهي ليست كالنون الساكنة التي تأتي متبوعة بفاء أو جيم، أو غيرها من أصوات الفم. فالنون الخفية: مصطلح يشمل عددا من النونات الفرعية التي هي أشكال سياقية (Allophonic variants) للنون الأصلية، تظهر إذا جاءت النون

==

الأولى١٤١٨هـ/١٩٩٧م، وأيضا: الحسن بن محمد البوريني: تراجم الأعيان من أبناء الزمان١/٩-١٥، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، دمشق١٩٥٩م.

(١) نهاية القول المفيد ص٤٧. ويقصد بها الإمام الطيبي الميم المسكنة في حالتي الإدغام والإخفاء، وذلك بخلافها في حالة الإظهار، ومخرجها في الحالات الثلاث واحد، غير أنه في حالة الإخفاء يسقط النطق في الشفتين. نقلا عن علم التجويد القرآني ص٤٥.

(٢) دراسة الصوت اللغوي ص٣٤١، أسس علم اللغة ص٨٨.

(٣) نهاية القول المفيد ص٤٦.

ساكنة يليها أحد الأصوات التي تخرج من حيز التجويف الفموي، وكذلك الميم[١] .

أو قد يكون ذلك من لهجات القبائل؛ كما هو الشأن في همز التسهيل، وألف الإمالة، وألف التفخيم التي عزاها الشيخ بقوله: " ... وهذه لغة فاشية عند أهل الحجاز"[٢] . وهي لا تؤدي إلى تغيير في معاني المفردات، ومن ثم لم يكن لها في الأبجدية رموز مستقلة.

وإذا أنعمنا النظر – مرة أخرى – فيما ذكره الشيخ – رحمه – تبين لنا أنه ذكر هذه الأصوات مشفوعة بالأمثلة التوضيحية الحية من القرآن الكريم، وببيان لكيفية نطقها، وهي من الزيادات الصوتية المتميزة التي تزيد القضية وضوحا، وقد عني بها الشيخ عناية بالغة، ويكفي أن نلقي نظرة على تعقيبه على بعض هذه الحروف ليتأكد لنا صدق ذلك، حيث يقول في الهمزة المسهلة: " وهي التي لا تكون همزة محضة من غير تليين، ولا تكون تليينا محضا من غير همزة؛ وهي على ثلاثة أقسام: لأنها تكون بين الهمزة والألف؛ نحو: " ءأنذرتهم"، وبين الهمزة والياء، نحو: " أءنك"، وبين الهمزة والواو، نحو: " أءنزل"؛ فالأولى: تولدت من الهمزة الخالصة والألف، والثانية: تولدت منها ومن الياء، والثالثة: منها ومن الواو"[٣] .

(١) د. عبد المنعم الناصر: شرح صوتيات سيبويه– دراسة حديثة في النظام الصوتي للعربية من خلال نصوص كتاب سيبويه ص٤١، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى٢٠١٢م.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٧.

(٣) نهاية القول المفيد ص٤٥.

وهذا يعني أن البيئة الصوتية التي تجعل الهمزة تتغير إلى بين بين – من وجهة نظر الشيخ– هو وقوعها بين حركتين، أي تكون متحركة، ومسبوقة بحرف متحرك، كما هو في المثال.

ويقول في الألف الممالة: " وهي ألف بين الألف والياء، لا هي ألف خالصة ولا ياء خالصة، وإنما هي ألف قربت من لفظ الياء؛ لعلل أوجبت ذلك، فهي متولدة من الألف المحضة والياء المحضة"(١) . وهي كما تكون سمة لهجية لبعض القبائل العربية، قد تنجم – أيضا– عن تاثرها بصوت مجاور لها في عملية مضارعة صوتية.

ويقول في الألف المفخمة: " ... التابعة لحرف مفخم؛ فهي ألف يخالط لفظها تفخيم يقربها من لفظ الواو، كما كانت الألف الممالة يخالط لفظها ترقيق يقربها من الياء، فهي مترددة بين الألف الأصلية والواو، وذلك في لفظ الجلالة بشرطها المعتبر، وهي أن تكون بعد فتح أو ضم، وفيما صحت به الرواية عن ورش من طريق الأزرق عن نافع؛ نحو (الصلاة) و(مصلى) و (الطلاق) و (بظلام)، وما أشبه ذلك من كل لام مفتوحة وقعت بعد صاد أو طاء أو ظاء سُكِّنت أو فُتحت ... وإنما دعاهم إلى ذلك إرادة نفي جواز الإمالة فيها"(٢) .

ويمكن أن نفهم من النص السابق، " أن الألف المفخمة توجد في الكلام ليس فقط كظاهرة لهجية لبعض العرب، بل نتيجة لتأثرها بحروف مفخمة تجاورها في الكلام"(٣) . ويعزز هذا الاستنباط إشارة بعضهم إلى ذلك بقوله:

(١) نهاية القول المفيد ص٤٥.

(٢) شرح صوتيات سيبويه ص٤٥.

(٣) نهاية القول المفيد ص٤٦،٤٧.

وتتبع ما قبلها الألف والعكس في الغن ألف

وقد مضى الشيخ – رحمه الله – على هذا النحو في بقية الحروف؛ تأصيلا وتفصيلا، وتمثيلا وتوضيحا، وعزوا إلى اللهجات العربية أو القراءات القرآنية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل رأيناه يقدم بعض التفسيرات الصوتية الدقيقة التي تفسر سبب حدوث بعض الحروف الفرعية التي ذكرها؛ وهي تفسيرات تلتقي في مجملها مع الدراسات الحديثة؛ كما هو الحال في الصاد المشمة رائحة الزاي، فقد فسرها بما عرف في الدرس اللغوي الحديث باسم المماثلة الصوتية (Assimilation)، قال: " ... وإنما فعلوا بها ذلك؛ لقرب الزاي من الصاد؛ إذ هما من مخرج واحد ومن حروف الصفير، والأصل في الصاد: السين، وهو حرف مهموس منفتح في صفير، والطاء حرف مطبق مجهور لا صفير فيه، والمهموس ضد المجهور، وهو أضعف منه في النطق والمخرج، والمنطبق ضد المنفتح، وهو أقوى منه في النطق والمخرج، فلما اجتمعت الأضداد أبدلوا من السين حرفا يؤاخيها في النطق وفي المخرج والصفير، ويؤاخي الطاء في الجهر؛ وهو الزاي، وخلطوا بلفظ الزاي الصاد؛ لمؤاخاتها لها في المخرج والصفير، ولمؤاخاتها للطاء في الإطباق؛ لئلا يخلوا بزوال السين في صفيرها، فقرب لفظه من لفظ الطاء عند ذلك، فصار عمل اللسان من موضع واحد، ولم يخلوا بالسين التي هي الأصل؛ إذ قد عوضوا منها حرفا من مخرجها فيه من الصفير ما فيها ..."[١].

(١) نهاية القول المفيد ص٤٦.

وهذه التحريرات الصوتية والتفصيلات الدقيقة في كيفية حدوث هذه العملية اللغوية؛ تجعلنا نقول – عن حق – إن الشيخ – رحمه الله – كان يتمتع بعقلية صوتية فريدة، تدعونا إلى أن نقف عندها إكبارا وإجلالا.

قضية ورأي

" وإذا نظرنا إلى الضابط الذي طالعنا به صاحب (نهاية القول المفيد) للأصوات الفرعية قائلا: "

وأما الحروف الفرعية؛ فهي التي تخرج من مخرجين، وتتردد بين حرفين" فإنه يمكن أن تُصفَّي هذه الأصوات الثمانية إلى خمسة فقط، هي: ١- الهمزة المسهلة. ٢- الألف الممالة إلى الياء. ٣- الصاد المشمة رائحة الزاي. ٤- الياء الممالة إلى الواو.٥- الألف المفخمة التي تقرب من الواو. فهذه الخمسة يتحقق في كل منها أنه يتردد بين حرفين، ويخرج من مخرجين.

أما الثلاثة الباقية، وهي: ١- اللام المفخمة. ٢- النون المخفاة. ٣- الميم المسكنة. فلا يتحقق فيها الخروج من مخرجين، أو التردد بين حرفين، فاللام المفخمة مخرجها هو هو لم يتغير عما كانت عليه قبل التفخيم، غاية ما في الأمر: أن مؤخر اللسان قد اشترك في نطقها، وذلك بارتفاعه قليلا إلى أعلى. والنون المخفاة والميم المسكنة: المخرج فيهما لم يتغير، وكل الذي جد فيهما هو إلغاء الغلق عند نطقهما، فلا يلتصق مقدم اللسان مع مقدم الحنك الأعلى في نطق النون المخفاة، ويُرْغَم الهواء على الخروج من التجويف الأنفي، وكذلك لا تلتصق الشفتان عند نطق الميم المخفاة في نحو قوله

تعالى: (يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ) – سورة غافر ١٥ – بسبب مجئ الباء بعدها، ويُرْغَم الهواء على الخروج من التجويف الأنفي"[١] .

وهذه الالتفاتة الذكية – على دقتها وموضوعيتها – لا تغض من قيمة ما قدمه الشيخ – رحمه الله – في قضية عدد الأصوات وتصنيفها إلى أصلية وفرعية، وإنما تنم عن وعي لغوي عميق، فقد وقف على ما سبق إليه علماء الأصوات؛ من أن الأصوات: منها ما هو أصلي، وهو تسعة وعشرون حرفا، ومنها ماهو فرعي فصيح، يقرأ به آيات الذكر الحكيم، وبذلك استطاع أن يجمع بين وجهتي النظر الصوتية (الفوناتيكية – الفونولوجية)[٢] .

ويكفي أن نقول: إن مفهوم الشيخ – رحمه الله– للحرف الأصلي يقترب مما يمثله مفهوم الفونيم في علم اللسانيات الحديثة. كما أن مفهوم الصوت الفرعي يقترب – كذلك من معنى الألفون في الصوتيات الحديثة.

كما تكشف عن معالجة دقيقة وشاملة لقضية عدد الأصوات، في ضوء ما تسمح به أدوات المنهج القديم؛ القائم على الملاحظة والمشاهدة، والبحث والاستقراء، والوصف والتقرير. وتؤكد بوسائل البحث الحديثة – أدوات القياس، وأجهزة التحليل، والمختبرات والمعامل الصوتية – ما سبق إليه الشيخ – رحمه الله اعتمادا على الملاحظة الذاتية– فقد نقل ما يفيد خروج اللام المفخمة والنون المخفاة من دائرة الأصوات الفرعية خروجا تاما، حيث قال: " وزاد القاضي اللام المفخمة والنون المخفاة، وهو وهم؛ إذ ليس فيهما

---

(١) عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ص٤٤،٤٥.

(٢) ولا يخفى على دارس الأصوات أن النظرتين تسيران في خَطَّيْن مختلفين؛ على الرغم من قوة العلاقة بينهما.لمزيد من التفصيل في الفرق بين الفوناتيك والفونولوجي، ينظر د. علام: علم الصوتيات ص٤٧.

شائبة حرف آخر، ولم يقعا بين مخرجين، غاية الأمر: أن اللام لام مغلظة، والنون نون مخفاة، مخرجها الخيشوم، وكونها ذات مخرجين في حالتين مختلفتين – أعني حالة إخفائها وعدمه – غير كونها خارجة مما بين مخرجين في حالة واحدة، فلا تكون من الفرعية أصلا"[١] .

مباكرة صوتية

أقول – على الرغم من ذلك – أن جهود الشيخ – وجهود غيره من علماء العربية والتجويد في قضية أصالة الأصوات وفرعيتها– كانت أساسا لميلاد إحدى النظريات الرائدة في مجال الصوتيات الحديثة، وهذا ما يحتاج إلى بحث مستقل.

وبيان ذلك: أن فكرة التنوعات الموقعية – وهي إحدى الركائز – التي انبنى عليها فكرة تقسيم الأصوات إلى أصول وفروع، تخلق خيطا رابطا بينها وبين بعض أسس نظرية الفونيم (Phoneme)[٢] .

ويتضح ذلك من قول بعض الأصواتيين المحدثين: " إن نظرية الفونيم – مهما كان تفسيرها

(١) نهاية القول المفيد ص٤٧.

(٢) نظرية صوتية غربية حديثة، عقد لها الدكتور أحمد مختار فصلا مستقلا تحت عنوان: " الفونيم"، بسط فيه القول في كل ما يتعلق بتلك النظرية. دراسة الصوت اللغوي ص١٦٥– ٢٧٧. وقارن بـ أسس علم اللغة ص٨٧–٩٩ تحت عنوان: " علم الفونيم"، و مناهج البحث في اللغة ص١٢٥–١٣١، تحت عنوان: " نظرية الفونيم"، برتيل مالمبرج: علم الأصوات تحت عنوان: " دراسة نظرية الوحدة الأصواتية (الفونيم) ص٢٢٩–، ٢٤٨، تعريب: د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة١٩٨٤م.

– قد انبثقت من ملاحظة كيفيات النطق المختلفة، ووظائف الأصوات المتنوعة، ومن محاولة وضع ألفبائيات للغات المختلفة. فقد لاحظ العلماء أنه على الرغم من أن الأصوات المستخدمة في الكلام تعد ذات تنوع غير محدود، فإن المتكلمين والسامعين يكونون عادة واعين بعدد صغير فقط من الأنماط الصوتية المستقلة"[١] .

وربما كان ماريوباي أكثر وضوحا؛ حين ذكر أن الفونيم: " في الكثير الأعم يشتمل على مجموعة من الأصوات المتشابهة، أو التنوعات الصوتية Phonetic Variants؛ التي يتوقف استعمال كل منها أساسا على موقعه في الكلمة (أولا – وسطا –آخرا ...إلخ)، وعلل الأصوات المجاورة له (قبل علة – قبل ساكن – بين علتين – ملاصق لصوت مجهور أو مهموس ...إلخ"[٢] .

فمن الواضح أن هناك التقاء بين هذا الجانب من نظرية مكي الصوتية، وبين النظريات الصوتية الحديثة، وبخاصة بعد ظهور المدرسة التوليدية التحويلية في اللسانيات (Generative Linguistic school)، والتي ترى أن العلاقة بين الفونيم – الحرف الأصلي عند مكي– والألوفون – الإخراج الفعلي للفونيم– هي: أن الفونيم: وحدة فكرية تجريدية، وأن الألوفون – الصوت الكلامي الملفوظ– هو انعكاس للفونيم، وقد تكون القيمة الصوتية

(١) دراسة الصوت اللغوي ص١٧١. وقارن بـ عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ص٣٥–٣٧. قال: " فالفونيم: عبارة عن صورة ذهنية لحقيقة صوتية مستقلة ... ولكن الحقيقة الصوتية (Relevant) للفونيم الواحد قد ينطقها أبناء اللغة الواحدة بأكثر من صورة، فينتج عن ذلك أن هناك حقيقة صوتية واحدة، وعدة صور أو عدة أفراد لهذه الحقيقة ... وعلى أساس من ظاهرة الفونيم وصوره تشكلت قضية عدد الأصوات". بتصرف.

(٢) أسس علم اللغة ص٨٨.

للصوت الملفوظ (الألوفون) مطابقة لقيمة الفونيم – الحرف الأصلي– أو مختلفة عنه – لأسباب سبق ذكرها– مثلما هو الحال في النون الخفية التي تمثل مجموعة من الأصوات الكلامية هي فروع من النون الأصلية[١] .

وهذا يعني أن – الشيخ محمد مكي نصر – قد أدرك منذ اللحظة الأولى، ما اهتدت إليه النظريات الغربية الحديثة بأخرة؛ الأمر الذي يوجب علينا إعادة قراءة أفكارنا تراثنا الصوتية الرائدة قراءة جديدة في ظل مستجدات الألسنية الحديثة، وساعتئذ سندرك أن كثيرا من قضايا هذا العلم عربية المحتد، لا يضيرها تهويل بعض المحدثين للإنجازات التي حققها علم الأصوات اللغوية في زماننا[٢] .

فائدة

ومن الإضافات الجديدة التي أضافها الشيخ – رحمه الله – في قضية عدد الأصوات: تقسيمه الحركات – وهو ما يسمى في الدرس الصوتي الحديث بالصوائت القصيرة – إلى أصلية وفرعية كما هو الشأن في الصوامت، وهو ما لم نعهده عند علماء العربية، قال: " اعلم أن الحركات تكون أصلية وفرعية أيضا: فالأصلية ثلاث: وهي الفتحة، والكسرة، والضمة. والفرعية اثنتان: الأولى: الحركة الممالة؛ نحو: " وبُشرى" و " النار" " الكافرين" عند من أمال. ونحو: " ورحمة" و " نعمة" عند من أمال ذلك في الوقف؛ فتكون حينئذ فرعية، ليست بكسرة خالصة ولا فتحة خالصة. والثانية: الحركة

(١) شرح صوتيات سيبويه ص٥٩، ٦٠ بتصرف واختصار.

(٢) تحتاج فكرة الفونيم إلى بحث مستقل؛ للكشف عن أصولها وجذورها التراثية في مصادرنا اللغوية، ثم تقويم وتقييم تلك الجهود والملاحظات في ضوء منجزات الدرس اللغوي الحديث، وعندئذ يمكن أن نحكم على ملامح تلك النظرية بأنها عربية الوجه واليد واللسان.

المشمة في نحو: " قيل" و " وغيض" في مذهب من أشم كهشام والكسائي"[١].

وواضح – من النص– أن هذا التقسيم من ملامح النطق اللهجي، أو أنها تتصل ببعض الروايات القرآنية.

استدراك

بقي أن أقول إن الشيخ – رحمه الله، رغم جهده المحمود في تلك القضية – لم يلتفت إلى فكرة تقسيم الأصوات إلى: صوامت (Consonants)، وصوائت (Vowels)، واكتفى بمصطلحي (الحروف) و (الحركات) كما رأينا – وهذا الوصف لا ينطبق – من وجهة نظري – على ذلك التصنيف، ولا يعبر عنه بدقة؛ وذلك لأن الشيخ – رحمه الله – قد أطلق الحرف على كل صوت بسيط من الكلام، سواء أكان حرفا (Consonant) في المعنى الحقيقي للكلمة اليوم، أم حركة طويلة كحروف المد واللين – كما ذكرنا سابقا–. كما أن مصطلح الحركة لا يقابله – في الحقيقة – مصطلح الحرف، بل لفظ السكون الذي يعني انعدام الحركة[٢] .

وأمر آخر: أن الشيخ – رحمه الله – في ثنايا حديثه عن الحركات، وهو ما اصطلح عليه حديثا بـ " الصوائت القصيرة " لم ينظر إليها على أنها أصوات مستقلة، تعد من جملة الحروف الأصلية، وإنما يبدو أنه نظر إليها على أنها صفات للحروف (الصوامت)، من الفتح عند نطق الحرف، أو الضم، أو الكسر، أي؛ أنها مجرد تحركات فسيولوجية تقوم بها الشفتان عند

(١) نهاية القول المفيد ص٤٧،٤٨.

(٢) دروس في علم اصوات العربية ص٢٠، بتصرف.

نطق الحروف. وعلى هذا الأساس قسمت أصوات العربية إلى: حروف ساكنة، وحروف متحركة. " ولكن الحركات أصوات لغوية مستقلة عن الصوامت (الحروف) استقلالا كاملا؛ فكما أن الصامت (الحرف) عنصر مكون في بنية الكلمة، فكذلك الحركة. إذا: الحركة مستقلة من حيث الدلالة، ومن حيث تكوين الصيغة، وكذلك من حيث النطق، كما أثبتت الدراسات التحليلية للأصوات"[١] .

وأمر ثالث: أن الشيخ – رحمه الله – لم يلتفت إلى العلاقة الكمية بين الحركات (الصوائت القصيرة) وبين حروف المد (الصوائت الطويلة)، وأن الفارق بينهما كمي؛ بمعنى: أن حروف المد تستغرق من الزمن ضعف ما تستغرقه الحركات ليس إلا. وقد ظهرت بوادر تلك الحقيقة عند أسلافنا القدامى، حيث صرح سيبويه بأن الحركات أبعاض لحروف المد[٢]، واستوت عند ابن جني الذي أسس لتلك النظرية في تراثنا العربي، وأثبت بالأدلة والبراهين بأن الحركات أصوات متمايزة، وأنهن أبعاض لحروف المد [٣].

سادسا: مخارج الحروف

تشكل مخارج الأصوات أحد المحاور المهمة التي تمثل الميدان الخصب لعلم التجويد، كما يشكل المخرج مع الصفة الركيزتين الرئيستين اللتين تقوم عليهما وتتمايز بهما الأصوات اللغوية.

---

(١) د. عبد العزيز علام: في علم اللغة ص٩٦، بدون بيانات.

(٢) الكتاب، قال: " ... وإنما الحركات من الألف والياء والواو".١٠١/٤. وقال: " ... فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو، فكل واحدة شيء مما ذكرت لك".٢٤٢/٤.

(٣) سر صناعة الإعراب١٧/١-١٩.

وقد عُنِيَ الشيخ – رحمه الله – في جملة ما عُنِي به من مباحث الصوت التي تعين قارئ القرآن على تحقيق التلاوة وإتقان القراءة – بتلك القَضيَّة. ونوَّه بخطورتها وأهميتها قائلا: " ثم اعلم أن معرفة المخرج بمنزلة الوزن والمقدار، ومعرفة الصفة بمنزلة المحك والمعيار"(١) . ثم نراه يؤكد على أهمية تلك القضية لكل من تصدى لقراءة آي الذكر الحكيم عمليا، حين يعقد الباب الأول من كتابه تحت عنوان: " في بيان ما يتعلق بمخارج الحروف"، ثم يقول في فاتحته: " اعلم أن هذا الباب من أهم أبواب التجويد؛ فيجب أن يعتني بإتقانه كل من أراد أن يقرأ القرآن المجيد، قال الشمس ابن الجزري في مقدمته:

إذ واجب عليهم محتم قبل الشروع أولا أن يعلموا

مخارج الحروف والصفات ليلفظوا بأفصح اللغات

فمن أتقن مخارج الحروف والصفات نطق بأفصح اللغات، وهي لغة العرب العرباء التي القرآن بها ..."(٢) .

ويقول في خاتمة الباب: " وها هنا انتهى الكلام على مخارج الحروف مع بسط الكلام عليها بما ذكره وأوضحه أهل التحقيق في كتبهم، فعليك أيها الطالب لتجويد القرآن بحفظها وإحكامها؛ فإنه لا سبيل إلى التجويد إلا بعد إتقانها"(٣) .

(١) نهاية القول المفيد ص٤٩.

(٢) نهاية القول المفيد ص٤٣.

(٣) نهاية القول المفيد ص٥٧.

وقد تنوعت طرق الشيخ – رحمه الله – في تناوله لتلك القضية المحورية في تاريخ الدراسات الصوتية بعامة، والتجويدية بخاصة على هذا النحو:

الاتجاه الأول: ذكر المخارج الكبرى إجمالا، قال: " اعلم أن المخارج يجمعها خمسة مواضع:

الجوف، والحلق، واللسان، والشفتان، والخيشوم"[١] . ونلحظ أن هذا التقسيم مبني على أعضاء الجهاز النطقي (وظيفي)، بحيث يضم كل عضو مجموعة من المخارج الجزئية التي تنتج مجموعة من الأصوات اللغوية، وقد ساعد هذا في تيسير فهم العلاقات الصوتية بين الأصوات، وضبط المعايير بينها.

ويمكن أن نتلمس بوادر نشأة تلك الطريقة عند سيبويه، فقد قسم مخارج الأصوات إلى مجموعات كبرى، تضم بداخلها مجموعات جزئية، وفي كل مجموعة حزمة من الأصوات، وذلك حين قال: " ولحروف العربية ستة عشر مخرجا، فللحلق منها ثلاث ...، ومن أقصى اللسان، ومن وسطه ...، ومن باطن الشفة السفلى ...، ومن الخياشيم ..."[٢] .

والفارق بين المنهجين: ١- أن الشيخ – رحمه الله – قد نص على ذلك بصراحة ووضوح، بينما لم يفعل شيخ النحاة. ٢- أن أصول المخارج عند الشيخ – رحمه الله- خمسة؛ حيث جعل لحروف المد مخرجا مستقلا هو الجوف، بينما كانت عند سيبويه أربعة (الحلق – اللسان – الشفتان- الخياشيم)؛ حيث حذف الجوف، ووزع حروفه على بقية المخارج؛ وذلك ناجم

(١) نهاية القول المفيد ص٤٨،٤٩.

(٢) الكتاب٤/٤٣٣،٤٣٤.

عن نظرة سيبويه الأحادية لطبيعة تلك الحروف المزدوجة، حيث اكتفى بملاحظة لينها، ولم يلتفت إلى مديتها – كما أوضحنا من قبل –.

الاتجاه الثاني: وهو أكثر تفصيلا و تيسيرا من سابقه، حيث ذكر الحروف منسوبة إلى مخارجها مرتبة ترتيبا تصاعديا، وقد جعلها عشرة، منوها باتباعه منهج الخليل، قال: " اعلم أن ألقاب الحروف عشرة، لقبها بها الخليل بن أحمد في أول كتاب العين. الأول: الحروف الحلقية، وهي ستة مذكورة في قول بعضهم:

همز فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء

الثاني: اللهويتان؛ وهما القاف والكاف. الثالث: الشجرية؛ وهن الجيم والشين والياء. الرابع: الأسلية؛ وهن الصاد والسين المهملتان والزاي. الخامس: النطعية؛ وهن الطاء والدال المهملتان والتاء الفوقية. السادس: اللثوية؛ وهن الظاء والذال المعجمتان والثاء المثلثة. السابع: الذلقية – بفتح اللام وسكونها – وهن اللام والنون والراء. الثامن: الشفهية؛ وهن الفاء، والواو، والباء الموحدة، والميم. التاسع: الجوفية؛ وهن الألف، والواو والياء المديتان. العاشر: الهوائية؛ وهن الحروف الجوفية؛ لأنها باعتبار المد هوائية، وباعتبار مجيئها من الجوف جوفية ..."[١] .

وقد كان الشيخ – رحمه الله – أمينا، حيث ذكر أن هذه الألقاب أو التصنيفات، إنما هي من صنع الخليل، فهو رائد تلك الفكرة ومبدعها[٢] ،

(١) نهاية القول المفيد ص٥٩.

(٢) العين ٥٨/١.

ولكننا إذا أنعمنا النظر فيما نقله الشيخ عن الخليل، تبين لنا بعض الفروق والاختلافات، نوجزها فيما يلي:

١- أن الشيخ – رحمه الله – جعل حروف الحلق ستة بإدراج الهمزة، بينما عدها الخليل خمسة؛ حيث أخرج الخليل الهمزة من حروف الحلق، واعتبرها جوفية هوائية مع حروف المد، ونص على أنها ليست من مدارج الحلق، ولا من مدارج اللهاة، ولا من مدارج اللسان، إنما هي هاوية في الهواء لم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف(١).

وقد صرح الخليل في موضع آخر بحروف الحلق – وهن خمسة في نظره – دون ذكر للهمزة: " قال الخليل: فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ... ثم الهاء ... فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد، بعضها أرفع من بعض، ثم الخاء والغين في حيز واحد كلهن حلقية"(٢).

٢- اختلف ترتيب بعض الأصوات داخل مخارجها الجزئية بين الشيخين، حيث اشتمل المخرج الكلي – وهو ما أطلق عليه الحيِّز – على مخارج جزئية، ومن ذلك حروف الحلق، فقد جعل الخليل ترتيبها – بعد إسقاط الهمزة – على هذا النسق: العين، الحاء، الهاء، وقد نص على أن الثلاثة في حيز واحد (مخرج جزئي من مخارج الحلق)، وأن بعضها أرفع من بعض، كما جعل الخاء والغين – أيضا – في حيز واحد، ويفهم من كلامه ومن ترتيب معجمه أن الخاء أرفع (يعني: أبعد) من الغين. ومن ثم يمكن أن نقول: إن الخليل قسم الحلق (المخرج الكلي) إلى مخرجين جزئيين. بينما كان ترتيب الشيخ – رحمه الله – مخالفا لهذا الترتيب، حيث جعل

(١) السابق ١/٥٧.

(٢) السابق ١/٥٧،٥٨.

مخارج الحلق الجزئية ثلاثة، وخصص لكل مخرج حرفين على هذا النحو: الهمزة ، الهاء/ العين، الحاء/ الغين، الخاء.

وكذلك الشأن في مجموعة أصوات المخرج السابع (الذلقية)، حيث رتبها على هذا النحو: الراء، اللام، النون، بينما جاء ترتيبها عند الشيخ – رحمه الله – على هذا النسق: اللام، النون، الراء. أما أصوات المخرج الخامس (النطعية)، فقد رتبها الخليل على هذا النحو: الطاء، التاء، الدال، بينما جاء ترتيبها عند الشيخ – رحمه الله – على هذا النسق: الطاء، الدال، التاء. وتجدر الإشارة إلى أن الخليل قد رتبها على نحو ما رتب الشيخ محمد مكي نصر في موضع آخر من كتابه(١).

٣- أن الشيخ – رحمه الله – جعل الياء اللينة (غير المدية) من الحروف الشجرية مع الجيم والشين، بينما عد الخليل الحروف الشجرية ثلاثة – أيضا – وهن: الجيم، والشين، والضاد بدلا من الياء اللينة؛ وذلك ناجم عن نظرته الأحادية للطبيعة المزدوجة لذلك الصوت، وقد اكتفى بمراعاة مديتها، فجعلها جوفية هوائية.

٤- أن الشيخ – رحمه الله – جعل الحروف الشفوية أربعة، وهن: الفاء، والواو (وهو يقصد اللينة المفتوحة في نحو: وعد، أو الساكنة المفتوح ما قبلها في نحو: يوم)، والباء الموحدة، والميم. أما الخليل فقد عدها ثلاثة، دون إدرج للواو؛ وذلك ناجم – أيضا- عن نظرته الأحادية للطبيعة المزدوجة لذلك الصوت، وقد اكتفى بمراعاة مديتها، فجعلها جوفية هوائية، كما هو الحال في الياء.

---

(١) العين ٥٨/١.

٥- أن الشيخ – رحمه الله – لم يصنف الضاد مخرجيا بعد أن أسقطها من حزمة الأصوات الشجرية. فكانت جملة الأصوات المصنفة لديه مخرجيا – طبقا لتلك الطريقة – (٣٠) ثلاثين صوتا، حيث راعى الطبيعة الصوتية المزدوجة لكل من الياء والواو، بينما كانت عدتها عند الخليل (٢٩) تسعة وعشرين.

٦- المخرج التاسع والعاشر عند الشيخين متماثلان، وهما لحروف المد (الألف – الياء – الواو المسبوقتان بحركة من جنسهما)، وقد أوضح الخليل سر التسمية بقوله: " وسميت جوفا؛ لأنها تخرج من الجوف ... وهوائية: لأنها هاوية في الهواء"[١]. وقال الشيخ محمد مكي نصر: " ... لأنها باعتبار المد هوائية، وباعتبار مجيئها من الجوف جوفية"[٢] . ومن ثم، فان جملة هذه الألقاب أو المخارج تبلغ عدتها – عند التحقيق – تسعة لا عشرة. فمن نظر إلى مخرجها، قال إنها جوفية، ومن نظر إلى صفتها، قال إنها هوائية؛ حيث يكون ممر الهواء واسعا، فيمر الهواء حرا طليقا دون اعتراض أو تضييق.

الاتجاه الثالث: سرد مخارج الحروف السبعة عشر على نحو مفصل، مع تحديد الأصوات الصادرة عن كل مخرج، وتقسيم المخرج الكلي إلى مخارج جزئية على هذا النحو:

١- الجوف: ويخرج منه حروف المد الثلاثة.

(١) العين ١/٥٧.

(٢) نهاية القول المفيد ص٥٩.

٢- أقصى الحلق – أبعده مما يلي الصدر – ويخرج منه حرفان، وهما همز فهاء.

٣- وسط الحلق: ويخرج منه عين فحاء مهملتان.

٤- أدنى الحلق – أقربه مما يلي الفم – ويخرج منه غين فحاء معجمتان.

٥- ما بين أقصى اللسان – أبعده مما يلي الحلق – وما يحاذيه من الحنك الأعلى: مخرج القاف.

٦- ما بين أقصى اللسان – بعد مخرج القاف – وما يحاذيه من الحنك الأعلى: مخرج الكاف.

٧- ما بين وسط اللسان، وما يحاذيه من الحنك الأعلى: مخرج الجيم والشين والياء غير المدية.

٨- ما بين إحدى حافتي اللسان وما يحاذيها من الأضراس العليا: مخرج الضاد المعجمة.

٩- ما بين حافتي اللسان معا بعد مخرج الضاد، وما يحاذيهما من اللثة: مخرج اللام.

١٠- ما بين رأس اللسان، وما يحاذيه من لثة الثنيتين العليين: مخرج النون المظهرة.

١١- ما بين رأس اللسان مع ظهره مما يلي رأسه، وما يحاذيه من لثة الثنيتين العليين أيضا: مخرج الراء.

١٢- ما بين ظهر رأس اللسان، وأصل الثنيتين العُليين: مخرج الطاء فالدال فالتاء.

١٣- ما بين رأس اللسان وبين صفحتي الثنيتين العليين: مخرج الصاد فالسين فالزاي.

١٤- ما بين ظهر اللسان مما يلي رأسه، وبين رأس الثنيتين العليين: مخرج الظاء فالذال فالثاء.

١٥- ما بين باطن الشفة السفلى ورأسي الثنيتين العليين: مخرج الفاء.

١٦- ما بين الشفتين معا: مخرج الباء الموحدة فالميم فالواو غير المدية.

١٧- الخيشوم: مخرج أحرف الغنة، وهي النون الساكنة والتنوين حالة إدغامهما بغنة أو

إخفائهما، والنون والميم المشددتان، والميم إذا أدغمت في مثلها، أو أخفيت عند الباء[١] .

تقييم وتقويم

كان سيبويه أول من قدم بيانا متقنا لمخارج حروف العربية[٢] ، وكان هو الأساس الذي استند عليه الشيخ – رحمه الله – في معالجة تلك القضية، وما كان تمسكه بما أورده سيبويه إلا لشعوره بدقته وإتقانه، وهذا لا يعني أن الشيخ – رحمه الله – قد قنع بما ذكره سيبويه وردد كلماته؛ دون أن يوضح غامضا أو يزيد شيئا، فقد كانت له تحريرات صوتية قيمة، وتنبيهات نفيسة زادت القضية جلاء ووضوحا، نوجز القول فيها على هذا النحو:

(١) نهاية القول المفيد ص٤٩-٥٧.

(٢) الكتاب ٤/٤٣٣،٤٣٤.

١- جعل الشيخ – رحمه الله – جملة المخارج سبعة عشر، حيث اعتبر الجوف مخرجا مستقلا؛ تخرج منه حروف المد الثلاثة – كما فعل الخليل – بينما جعلها سيبويه ستة عشر، حيث حذف الجوف، ووزع أصواته، فجعل الألف من أقصى الحلق مع الهمزة والهاء، ولم يراع الطبيعة المزدوجة لصوتي الياء والواو، فاكتفى بلينها، ولم ينظر إلى مديتها.

وقول الشيخ – رحمه الله – يجافي الصواب " فليس الجوف من بين المخارج؛ لأن الجوف ينصرف إلى البطن، والبطن ليست من جهاز النطق ولا من أعضائه، وإنما تبدأ المخارج في جهاز النطق من الحنجرة، ثم الحلق، ثم اللهاة، ثم اللسان .. إلخ. كما أن مخرج حروف المد ليس الجوف – كما قال – وإنما حروف المد تخرج من الفم، أو بعبارة أدق: من اللسان بحيث تكون المسافة بينه وبين سقف الحنك أوسع منها في الصوامت كلها"[(١)].

وإذا أردنا أن نتعرف على المخرج الدقيق لأصوات المد كما أثبتته الدراسات المعملية الحديثة: " فإنه من منطقة الغار والطبق اللين مع وسط اللسان تخرج الفتحة والألف؛ عن طريق إراحة اللسان في قاع الفم، مع ارتفاع طفيف جدا لوسطه في اتجاه منطقتي الغار والطبق اللين... ومن منطقة الغار مع مقدم اللسان تخرج الكسرة وياء المد؛ عن طريق رفع مقدم اللسان في اتجاه منطقة الغار، ولكن مع ترك فراغ يسمح بمرور الهواء دون احتكاك مسموع ... ومن منطقة الطبق اللين مع مؤخر اللسان تخرج الضمة وواو المد، عن طريق رفع مؤخر اللسان في اتجاه منطقة الطبق اللين، ولكن مع

(١) عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ص٥٥.

ترك فراغ يسمح بمرور الهواء دون احتكاك مسموع؛ يصاحب ذلك استدارة الشفتين وامتدادهما للأمام"[١].

" وبالرجوع إلى مربع الحركات عند دانيال جونز، نرى أن الحركات قد انحصرت مخارجها في هذا المربع، الذي يمثل وضع اللسان في الفم في أثناء نطق الحركات – هكذا: الألف تقع على مربع رقم (٤)، إن كانت مرققة، وعلى رقم (٥) إن كانت مفخمة، والياء على رقم (٢)، والواو على رقم (٧)"[٢] .

٢- قسم الشيخ – رحمه الله – الحلق إلى ثلاثة مخارج جزئية، وجعل الهمزة والهاء من أقصاه مما يلي الصدر، وهذا الكلام فيه نظر، فقد أثبتت الدراسات الصوتية المعملية أن الهمزة والهاء تخرجان من الحنجرة (فتحة المزمار)، " ويسمى الصوت حينئذ حنجريا (أو مزماريا- Glottal) . ويتم في هذا المخرج إنتاج صوتين، هما: ١- الهمزة، عن طريق غلق فتحة المزمار – الوتران الصوتيان – غلقا محكما، بحيث لا يسمح للهواء بالمرور، ثم فتحها فتحا فجائيا (انفجاري). ٢- الهاء، عن طريق تضييق المجرى بصورة تسمح بمرور الهواء مع احتكاك (استمراري)"[٣] .

---

(١) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٨،٣١٩.

(٢) عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ص٦٩، وقارن بـ الأصوات اللغوية ص٣٣،٣٤، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص٩٩،١٠٠، الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ونطقية ص٢١٧-٢١٩.

(٣) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٩، وأيضا: علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي صفحات١٥٧،١٧٩،١٨٣، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢٢١، المختصر في أصوات اللغة العربية ص٧٤-٨١.

وعلى هذا: فالهمزة – كما أثبتت التجارب المتنوعة ووسائل القياس الحديثة – صامت حنجري انفجاري (Laryngal Plosive Consonant). أما الهاء: فهي صامت حنجري مهموس (Laryngal Voiceless Consonant).

استنتاج

يبدو أن الشيخ – رحمه الله – لم يكن على معرفة بوظيفة الأوتار الصوتية، بل لم يعرف حتى تركيب الحنجرة – كما ذكرنا من قبل– بدليل تسميتها إياها أقصى الحلق، واعتبارها جزءا قصيا من الحلق. وهناك احتمال آخر، هو: أن الشيخ – رحمه الله – قد اعتبر الحنجرة جزءا من أقصى الحلق، فأطلق الكل، وأراد الجزء، والعلاقة بينهما الكلية، أو أن تكون العلاقة بينهما المجاورة، ويدعم هذا الفرض ما ذكره صاحب الرعاية في ثنايا حديثه عن حروف المد، قال: " وزاد غيره (الخليل) معهن (حروف المد الثلاثة) الهمزة؛ لأن مخرجها من أقصى الحلق، وهو يتصل بالجوف"[١] .

ويؤكد هذا الافتراض ما ذكره بعض المحدثين: " أما مخرج الهمزة عند المحدثين: فقد جعله بعضهم من أقصى الحلق، موافقا ما عليه العلماء العرب[٢] ، وعبر عنه بعضهم بأنه من المزمار نفسه[٣] ، وبعضهم بأنه من الحنجرة[٤] ، والمزمار – كما هو معلوم– في أعلى الحنجرة، وسبق أن ذكرنا

(١) أبو محمد مكي بن أبي طالب: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ص١٤٢، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان، الطبعة الثالثة١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

(٢) ومن هؤلاء المستشرق الفرنسي جان كانتينو، دروس في أصوات العربية ص١٢١،١٢٢.

(٣) الأصوات اللغوية ص٧٧.

(٤) علم الأصوات ص١٩٤، المصطلح الصوتي ص٦٦.

إمكان شمول لفظ الحلق عند القدامى الحنجرة أيضا، وعلى هذا فلا خلاف في وصف مخرج الهمزة"[١] . ولا يختلف الأمر كثيرا بالنسبة للهاء، إذ يوصف بأنه أقصى حلقي مرة، ومزماري أخرى، وحنجري ثالثة.

وفي ضوء هذه الحقائق المبينة أعلاه يمكن أن أقول: إن الخلاف بين القدامى والمحدثين خلاف لفظي، ليس له تعلق باختلاف المعنى أو الفكرة التي يراد التعبير عنها، وإنما هو اختلاف في المصطلح وطريقة التعبير – ليس إلا.

جعل الشيخ – رحمه الله – الغين والخاء من أدنى الحلق مما يلي الفم، وهو رأس الحلق. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن هذين الحرفين طبقيان (Velar)، ويقصد بالطبق: الحنك اللين، وهو الجزء الرخو من مؤخرة سقف الحنك مع أقصى (مؤخر) اللسان، إلا أن الأولى مجهورة، والثانية مهموسة.[٢] . ومن المحدثين من عبر بعبارة الشيخ – رحمه الله– فجعل مخرجهما من أدنى الحلق إلى الفم[٣] .

ونخلص من ذلك: أنه لا يخرج من الحلق إلا صوتا العين والحاء (Pharyngeal)، وقد جعلهما الشيخ – رحمه الله – من وسط الحلق، بينما جعلهما المحدثون من الحلق مع جذر اللسان[٤] ، وهو قريب من الأول. ومن

(١) د. حسام سعيد النعيمي: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني ص٣٠٤، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية١٩٨٠م.

(٢) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٨، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٢٢٠، المختصر في أصوات اللغة العربية ص٩٠–٩٢.

(٣) الأصوات اللغوية ص٧٥.

(٤) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٩، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٢٢٠، المختصر في أصوات اللغة العربية ص٨٤.

المحدثين من عبر بعبارة الشيخ – رحمه الله– فجعل مخرجهما من وسط الحلق[١] .

٣– جعل الشيخ – رحمه الله – الكاف لهويا؛ من أسفل اللسان – بعد مخرج القاف من اللسان – ومما يليه من الحنك الأعلى، أي: ما يقرب منهما إلى خارج الفم. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن هذا الحرف طبقي، يخرج من مخرج الغين والخاء[٢] .

ونخلص من ذلك – بناء على وجهة نظر المحدثين – أنه لا يخرج من منطقة اللهاة مع مؤخر اللسان إلا حرف واحد، وهو القاف، " ويسمى بـ (الغاري[٣] الخلفي– Postpalatale) ويتم إنتاجه عن طريق اتصال مؤخر اللسان بمنطقة اللهاة مع الطبق اللين بصورة لا تسمح بمرور الهواء، يعقبه تسريح فجائي له"[٤] .

وكان بعض المحدثين قد أطلق على هذين الصوتين مصطلح " الحروف الأقصى حنكية"، ثم فصل القول بأن القاف لهوي أكثر منه أقصى حنكي[٥].

خلاصة ورؤية

١– إن استعمال مصطلح لهوي(Uvular) لصوت القاف صائب، وهو يدل على المخرج دلالة قاطعة، ويغني عن الصطلحات الأخرى.

---

(١) الأصوات اللغوية ص٧٥،٧٦.

(٢) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٨، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٢٢٠.

(٣) يتحفظ الدكتور عبد العزيز الصيغ على هذه التسمية لاعتبارات عديدة، المصطلح الصوتي ص٦٩.

(٤) السابق نفسه.

(٥) دروس في علم أصوات العربية ص١٠٠.

٢- مصطلح أقصى الحنك جعله المحدثون حيزا لأصوات الغين والخاء والكاف، بينما جعل الشيخ – رحمه الله- صوتي الغين والخاء من منطقة الحلق، وعليه؛ فإن مصطلح أقصى الحنك – بحسب تصوره- يكون لصوت الكاف، ويمكن إدخال صوت القاف مع الاحتفاظ له بمخرجه المستقل وهو اللهاة، وقد أجمع المحدثون على وصف الكاف بأنه من حروف أقصى الحنك(١) .

٤- جعل الشيخ – رحمه الله – مخرج الجيم والشين والياء غير المدية: مما بين وسط اللسان، وما يحاذيه من الحنك الأعلى. وقد ذكر بعض المحدثين أن هذه الأحرف تخرج من وسط مقدم اللسان، أي: دون طرف اللسان، وليس من وسط كل اللسان، والتذوق والتجربة المكرران يقضيان بهذا(٢) .

وقد سماه الدرس الصوتي الحديث بالغار الأمامي (Preplatale)، حيث يتم رفع مقدم اللسان في اتجاه منطقة الغار بشكل يسمح بمرور الهواء، ولكن مع حدوث احتكاك طفيف في الياء غير المدية، وبصورة تسمح بحدوث احتكاك زائد في الشين. أما الجيم فيتصل مقدم اللسان بمنطقة الغار اتصالا محكما؛ يعقبه وقفة قصيرة يليها تسريح بطئ للهواء؛ مما ينتج صوتا يجمع بين الانفجار والاحتكاك(٣) .

---

(١) المصطلح الصوتي ص٧١ بتصرف.

(٢) المختصر في أصوات العربية ص١٠٠ بتصرف.

(٣) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٧ بتصرف، وأيضا: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢٢٠.

ومن المحدثين من ينسب هذه الأصوات إلى وسط الحنك[١] . ومن المحدثين من استعمل مصطلحا آخر في وصف أصوات هذا المخرج " الأدنى حنكية"، وفسر الأدنى حنكية، بأنها هي التي تكون من وسط اللسان ووسط الحنك"[٢] . وهو استعمال غير صحيح، فكيف يصف الأصوات بأنها من وسط الحنك ثم يطلق على الموضع " أدنى الحنك"؟ لا شك أنه اضطراب واضح[٣] .

تعقيب

تسمية وسط الحنك التي استعملها المحدثون تسمية صائبة، ويشركها في صحتها مصطلح وسط اللسان الذي استخدمه الشيخ – رحمه الله– ومن قبله علماء العربية والتجويد. وبيان ذلك: أن المحدثين نسبوا المخرج إلى العضو الثابت، وهو الحنك، أما الأقدمون: فإنهم ينسبون المخرج إلى العضو المتحرك، وهو اللسان مع إشراك الحنك – حيث لا يتم النطق إلا بالتقاء عضوين– وهم بذلك ينسبون المخرج إلى العضو البارز في عملية التصويت.

٥– جعل الشيخ – رحمه الله – مخرج الضاد المعجمة: مما بين إحدى حافتي اللسان وما يحاذيها من الأضراس العليا، وأثبتت الدراسات المعملية

(١) الأصوات اللغوية ص٦٩.

(٢) دروس في علم أصوات العربية ص٨٨.

(٣) المصطلح الصوتي ص٧٣.

أنه حرف أسناني لثوي[١] : " من حافتي اللسان أو أحدهما؛ مع ارتكاز طرفه على لثة الثنايا العليا"[٢] .

ولعل وصف الشيخ – رحمه الله –لمخرج صوت الضاد: " إنما ينطبق على الضاد العربية القديمة، التي استحالت في ألسنة الناطقين بالعربية اليوم إلى عدة أصوات لا ينطبق عليها جميعا الوصف المتقدم لمخرج الضاد"[٣] . بل إن نطق هذا الصوت يبدو أنه تعرض لتطورات نطقية لم نتعرف عليها حتى الآن تعرفا كافيا، وتحتاج إلى مزيد من التأمل والاستقصاء.

٦- جعل الشيخ – رحمه الله – مخرج اللام: مما بين حافتي اللسان معا بعد مخرج الضاد، وما يحاذيهما من اللثة، وأثبتت الدراسات المعملية أنه حرف لثوي[٤]: " يتم نطقه عن طريق اتصال طرف اللسان باللثة اتصالا محكما يمنع مرور الهواء من الأمام، ولكن يسمح بمروره: إما من إحدى جانبي اللسان، أو من كلا الجانبين"[٥]. وهو قريب من الأول.

٧- جعل الشيخ – رحمه الله – مخرج النون المظهرة: مما بين رأس اللسان، وما يحاذيه من لثة الثنيتين العليين، وأثبتت الدراسات المعملية أنه حرف لثوي أيضا[٦]: " يتم نطقه عن طريق اتصال طرف اللسان باللثة اتصالا محكما يمنع مرور الهواء، وتخفيض الطبق اللين ليسمح بمرور

(١) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٦، وأيضا: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢١٩.
(٢) المختصر في أصوات العربية ص١٠٦.
(٣) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص١٧٤.
(٤) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٦، وأيضا: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢٢١.
(٥) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٧، وأيضا: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢٢١، المختصر في أصوات اللغة العربية ص١٠٧.
(٦) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٦، وأيضا: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢٢١.

الهواء من تجويف الأنف"[١]. وهذا لا يتناقض مع ما قاله الشيخ- رحمه الله- وإنما يمكن أن نضيف على عبارة الشيخ وظيفة التجويف الأنفي في إنتاج هذا الصوت.

٨- جعل الشيخ – رحمه الله – مخرج الراء: ما بين رأس اللسان مع ظهره مما يلي رأسه، وما يحاذيه من لثة الثنيتين العليين أيضا، وأثبتت الدراسات المعملية أنه حرف لثوي أيضا[٢]: " يتم نطقه عن طريق ضرب طرف اللسان في اللثة ضربات متتالية"[٣]. وهذه الضربات هل التي يقوم بها ظهر رأس اللسان كما أطلق عليه الشيخ.

تعقيب

ونود أن نقول: إن تصوير الشيخ – رحمه الله – لمخرج الأصوات الثلاثة (اللام – النون – الراء) يفوق الوصف، ويحوز الإعجاب، وأنه لا يختلف عن توصيف المحدثين إلا في الاصطلاح فحسب، كما أنه كان دقيقا في تعيين مخرج لكل صوت منها على حدة؛ بدلا من إدماج الثلاثة في مخرج واحد كلي.

١٠ – جعل الشيخ – رحمه الله – مخرج الطاء والدال والتاء: ما بين ظهر رأس اللسان، وأصل الثنيتين العُليين. ولم يزد بعض المحدثين في وصف

(١) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٦، وأيضا: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢٢١، المختصر في أصوات اللغة العربية ص١١٠.

(٢) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٦، وأيضا: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢٢١.

(٣) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٧، وأيضا: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢٢١، المختصر في أصوات اللغة العربية ص١٠٨.

مخرج الأصوات الثلاثة عما ذكره الشيخ(١). وأضاف إليها آخرون مقدم اللثة(٢). فهي لسانية من جهة، وأسنانية من جهة أخرى، ولثوية من جهة ثالثة. ولا يخفى أن هذه التسميات باعتبار الأعضاء التي تشترك في إنتاجها، فتارة تنسب إلى هذا ، وأخرى إلى تلك، ولا غبار في التسمية، ولا مشاحة في الاصطلاح ما دامت الفكرة واحدة.

١١- جعل الشيخ – رحمه الله – مخرج الصاد والسين والزاي: ما بين رأس اللسان وبين صفحتي الثنيتين العليين. وهذا ما ذكره المحدثون في تحديد مخرج هذه المجموعة الصوتية(٣). وأضاف بعضهم اللثة والأسنان(٤).

تعقيب

على الرغم من أن الشيخ – رحمه الله – في تحريره مخرج هذه المجموعة الصوتية، قد بدا متأثرا بالخليل؛ الذي جاء وصفه عاما لهذا المخرج، حيث قال: " ... والصاد والسين والزاء أسلية؛ لأن مبدأها من أسلة اللسان، وهي مستدق طرف اللسان"(٥). وكذلك ابن جني حين قال: " ومما بين الثنايا وطرف اللسان مخرج الصاد والزاي والسين"(٦). وكذلك فعل مكي بن أبي طالب؛ حيث لم يزد شيئا عما ذكره الخليل(٧).

---

(١) علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي ص١٥٤.

(٢) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٦، وأيضا: المختصر في أصوات اللغة العربية ص١٢٠.

(٣) المختصر في أصوات اللغة العربية ص١٢٥، وأيضا: علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٢١٤.

(٤) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٦.

(٥) العين ٥٨/١.

(٦) سر صناعة الإعراب ٤٧/١.

(٧) الرعاية ص١٤٠.

أقول على الرغم من ذلك، إلا أن الشيخ – رحمه الله – كان أكثر دقة في تحديد هذا المخرج، حيث قال: " المخرج الثالث على ما حققه أبو شامة: ما بين رأس اللسان وبين صفحتي الثنيتين العليين؛ أعني صفحتيهما الداخلتين: ويخرج منه الصاد، فالسين المهملتان، فالزاي، ولا يتصل رأس اللسان بالصفحتين، بل يسامتهما، والصاد أدخل، والزاي أخرج، والسين متوسط. وفي القول المفيد: والصاد والسين والزاي من مخرج واحد؛ وهو طرف اللسان وفويق الثنايا العليا، وتبقى فرجة قليلة بين اللسان والثنايا عند الذكر، وتسمى هذه الثلاثة أسلية لخروجها من أسلة اللسان؛ أي ما دق منه، وتسمى أيضا حروف الصفير "(١).

وإذا تأملنا هذا النص: ١- أيقنا أن الشيخ – رحمه الله – أدرك الطبيعة الفسيولوجية التي تصحب الأعضاء النطقية حال إخراج هذه الأصوات، حيث يقترب طرف اللسان مع ما يقابله من الصفحتين الداخليتين للثنايا العليا، بحيث لا يحدث التصاق (ولا يتصل رأس اللسان بالصفحتين، بل يسامتهما)، وإنما يتم التضييق بينهما، بحيث يتكون ممر ضيق عريض يمر منه الهواء، فيصطدم بالأسطح الداخلية للثنايا العليا (وتبقى فرجة قليلة بين اللسان والثنايا عند الذكر)، فيمر من بينها؛ محدثا الصفير الذي نسمعه معها.

٢- أدرك الشيخ – رحمه الله – بالملاحظة الذاتية انقسام هذا المخرج إلى ثلاثة مخارج جزئية: حيث تخرج الأصوات الأصوات الثلاثة من ثلاث نقاط متقاربة غير متطابقة؛ الصاد أدخلها، والسين أوسطها، والزاي أبعدها، وهي من الإضافات القيمة التي تزيد القضية جلاء ووضوحا، والتي اتسم بها

(١) نهاية القول المفيد ص٥٤.

الشيخ في تحرير المخارج – على ما سنوضحه – وقد وافق الشيخ في ذلك الخليل في ترتيبه لمخارج أصوات هذا المخرج، ولكن الخليل لم ينص على ذلك.

١٢- جعل الشيخ – رحمه الله – ما بين ظهر اللسان مما يلي رأسه، وبين رأس الثنيتين العليين: مخرج الظاء فالذال فالثاء. وقد تطابقت عبارة المحدثين مع كلام الشيخ، يقول د. عصام نور الدين: " الأصوات اللثوية: ... وهي ثلاثة أصوات: ظ، ذ، ث. ومخارج هذه الأصوات متقاربة، ما بين ظهر اللسان مما يلي رأسه، وبين رأس الثنيتين العليين"(١). وهو الوصف نفسه الذي أشار إليه د. أحمد مختار عمر بعبارة أخرى، حين قال: " الأسنان مع حد اللسان: ويسمى الصوت حينئذ أسنانيا (Interdental). ويتم في هذا المخرج إنتاج ثلاثة أصوات، هي: الذال والثاء والظاء، عن طريق ملامسة طرف اللسان للأسنان العليا بصورة تسمح بمرور الهواء، ولكن مع حدوث احتكاك استمراري..."(٢) .

تعقيب

١- يجمل بنا أن نسجل للشيخ – رحمه الله- ملاحظته الدقيقة للفارق الفسيولوجي الجوهري حال نطق كل من (ظ، ذ، ث)، و (ص، س، ز)، فمع أن مخارج المجموعتين متقاربة، إلا أن هناك اختلافا أدركه الشيخ بقوله: " وهذا المخرج (يعني: مخرج ظ، ذ، ث) أقرب إلى خارج الفم من

(١) علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢١٥.

(٢) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٥.

المخرج السابق (يعني: مخرج ص، س، ز)، باعتبار رأس اللسان؛ لأن رأس اللسان فيه أقرب إلى خارج الفم منه في المخرج السابق"[١].

ونقول: إنه لولا مراعاة هذا الوضع الفسيويوجي حال النطق لاختلطت أصوات المجموعة الأولى بالثانية. وبيان ذلك: أن أسلة اللسان (وهي مستدق طرف اللسان) أو ما عبر عنه الشيخ – رحمه الله– برأس اللسان لا تلامس الثنايا العليا، وإنما تقترب اقترابا شديدا بحيث لا يحدث التصاق عند نطق(ص، س، ز)، أما عند نطق (ظ، ذ، ث) فإن جزء بارزا من طرف اللسان يخرج من الفم ملامسا أطراف الثنايا العليا.

ومن ثم؛ فإن قول الشيخ السابق فيه تجوز واضح؛ لأن رأس اللسان لا يخرج مطلقا حال نطق الأصوات الأسلية، وإنما يتم خروجه عند نطق الأصوات اللثوية.

٢– ويؤكد ما استخلصناه في الملاحظة السابقة إدراك الشيخ – رحمه الله– لكمية جزء اللسان الخارج من الفم عند نطق أصوات المجموعة الثانية(ظ، ذ، ث)، ولم ينوه على ذلك في أصوات المجموعة الأولى، حيث قال فيما نقله عن الإمام المرعشي: " وجه الترتيب هنا باعتبار قرب اللسان إلى الخارج، فاللسان يقرب إلى الخارج في الثاء أكثر مما يقرب في أختيها، ويقرب إليه في الذال أكثر مما يقرب في الظاء"[٢]. وهذا يدل على أن الشيخ على وعي عميق بأن هذا المخرج يتكون من ثلاثة مخارج جزئية تختلف باختلاف طول جزء اللسان الخارج من الفم عند نطق هذه الأصوات، وهو

(١) نهاية القول المفيد ص٥٤.

(٢) نهاية القول المفيد ص٥٤.

ما تؤكده التجارب الصوتية الحديثة، مما يدل على أننا أمام عالم فريد فيما يسمى – حديثا– بعلم الأصوات الفسيولوجي.

٣– لقّب الشيخ – رحمه الله– هذه المجموعة الصوتية بالأصوات اللثوية، قال: " ... وتسمى هذه الثلاثة لِثَوية؛ لخروجها من قرب اللثة"(١). وهو في ذلك متأثر بالخليل " وهذا فيه تجوز كبير؛ لأنه لا دخل للثة في نطق هذه الأصوات، فكيف تلقب بأنها لثوية!! والذي يستحق هذا اللقب هو المجموعة الصوتية (ط، د، ت)، لاشتراك اللثة في نطقها، وأما هذه فيمكن أن تلقب بأنها أصوات بين أسنانية"(٢).

١٣– جعل الشيخ – رحمه الله– ما بين باطن الشفة السفلى ورأسي الثنيتين العليين: مخرج الفاء. وهو في ذلك متفق مع ما أثبته الدرس الصوتي الحديث(٣). وقد فطن إلى ذلك من قبل سيبويه(٤)، وتابعه ابن جني(٥). أما الخليل فقد جعلها مع الباء والميم من مخرج واحد، وهو ما بين الشفتين، وسماها شفوية (Labial)(٦). وهو ما يجافي الصواب؛ لأن لأطراف الثنايا العليا دورا بارزا في إنتاج هذا الصوت، فهو صوت يمكن أن نسميه أسناني شفوي(Labiodental)(٧).

---

(١) السابق نفسه.

(٢) عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ص٦٥.

(٣) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٥، أصوات اللغة العربية ص١٥٥، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا– ص٢١٦، دروس في علم أصوات العربية ص٣٠.

(٤) الكتاب ٤/٤٣٣.

(٥) سر صناعة الإعراب ١/٤٨.

(٦) العين ١/٥٨.

(٧) دراسات في علم الأصوات اللغوية ص١٣٣.

١٤- جعل الشيخ – رحمه الله- ما بين الشفتين معا: مخرج الباء الموحدة فالميم فالواو غير المدية. وهو في ذلك متأثر بسيبويه وابن جني(١).

تعقيب

١- يتفق الدرس الصوتي الحديث مع الشيخ – رحمه الله- في أن الباء والميم مما بين الشفتين(٢). أما إدخاله الواو غير المدية – التي هي صامت، أو من أشباه أصوات اللين (Semi Vowel) كالواو التي في نحو: وَرق، وقَوْم- مع الباء والميم، متابعا سيبويه وابن جني؛ فغير صحيح " لأن مخرج هذه الواو من مؤخر اللسان، حين يرتفع قليلا إلى الحنك الأعلى بعد المقياس رقم (٨) على مربع الحركات لدانيال جونز، ولعل الذي أدى إلى هذا اللبس؛ ذلك الدور البارز للشفتين عند نطق الواو: من استدارتهما، وتقلصهما، وبروزهما مشكلتين فتحة دائرية

ضيقة، فظن العلماء أن الواو تخرج من الشفتين"(٣).

وقد ذهب المحدثون من علماء الأصوات إلى أن المخرج الأصح للواو غير المدية، هو أقصى اللسان، يقول د. أنيس: " أما مخرج الواو فليس الشفتين كما ظن القدماء؛ بل هو في الحقيقة من أقصى اللسان حين يلتقي بأقصى الحنك؛ غير أن الشفتين حين النطق بها يستديران، أو بعبارة أدق تكمل استدارتهما"(٤).

---

(١) الكتاب٤/٤٣٣، سر صناعة الإعراب١/٤٨.

(٢) دراسة الصوت اللغوي ص٣١٥، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢١٦.

(٣) عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ص٦٧، وقارن بـ دراسات في في علم الأصوات اللغوية ص١٠٠،١٠١.

(٤) الأصوات اللغوية ص٤٥، وقارن بـ علم الأصوات ص٣٦٩، حيث وصفه د. بشر مخرجيا، ==

ولو جاز لنا أن نعتذر عن الشيخ: فقد نقل عن المرعشي ما يفيد إدراكه لمشاركة الشفتين غيرها من الأعضاء النطقية في إنتاج بعض تلك الأصوات، حيث قال: " ... وهذه الحروف الأربعة – أعني الفاء والباء والواو والميم– تسمى شفهية وشفوية لخروجها من الشفة، وإن كان بمشاركة غيرها في البعض"(١).

ولعله يقصد بالجملة الأخيرة: مشاركة رأسي الثنييتين العليين لباطن الشفة السفلى عند النطق بالفاء كما نص على ذلك، ومشاركة مؤخر اللسان للشفتين عند النطق بالواو غير المدية، وإن لم ينص على ذلك، فإن ذلك مما لا تخطئه حاسة المبتدئ في فن الأداء القرآني، فضلا عن المتمكن.

٢– التفت الشيخ – رحمه الله– التفاتة ذكية إلى الوضع الفسيولوجي للشفتين عند نطق الأصوات الثلاثة، قال: " ما بين الشفتين معا: ويخرج منه الباء الموحدة، فالميم، فالواو، إلا أن الواو بانفتاحهما، والباء والميم بانطباقهما، وانطباقهما مع الباء أقوى من انطباقهما مع الميم"(٢).

٣– استعمل الشيخ – رحمه الله– فاء التعقيب – كما هي عادته– في ترتيب الحروف داخل المخرج؛ مما يدل على وعيه العميق بأن هذه الأصوات لا تخرج من نقطة واحدة، وإنما تخرج من نقاط متفاوتة متقاربة، وقد جلّى تلك الحقيقة بما نقله عن المرعشي: " ... ولعل وجه الترتيب هنا أن لكل من الشفتين طرفين: طرف يلي داخل الفم، والآخر: يلي البشرة،

==

مخرجيا، بأنه صامت (أو نصف حركة) من أقصى اللسان شفوي.

(١) نهاية القول المفيد ص٥٥.

(٢) السابق نفسه.

فالمنطبق في الباء: طرفا الشفتين اللذان يليان داخل الفم، والمنضم في الواو: طرفاهما اللذان يليان البشرة، والمنطبق في الميم: وسطهما"[١].

١٥- جعل الشيخ – رحمه الله- الخيشوم: مخرج أحرف الغنة، وهي النون الساكنة والتنوين حالة إدغامهما بغنة أو إخفائهما، والنون والميم المشددتان، والميم إذا أدغمت في مثلها، أو أخفيت عند الباء. وهو ما عبر عنه سيبويه – من قبل- بالنون الخفيفة[٢]. ويقصد الشيخ بذلك النون والميم المخفاتين حال إدغامهما أو إخفائهما، حيث يتحولان في تلك الأحوال عن مخرجهما الأصلي – الذي هو رأس اللسان في الأول، وما بين الشفتين في الثاني- إلى الخيشوم.

تعقيب

١- تفريق الشيخ بين النون والميم المتحركتين أو الساكنتين حال الإظهار، وبين النون والميم الساكنتين حال الإخفاء والإدغام بغنة في المخرج؛ هو ما عليه الدرس الصوتي الحديث[٣].

٢- كان الشيخ على وعي عميق بأنه لا بد من عَمَل اللسان في النون، وعَمَل الشفتين في الميم مطلقا حتى في حالة الإخفاء والإدغام بغنة، وكذا للخيشوم عَمَل في حالة التحريك والإظهار، ومع ذلك فقد خصّص لكل منهما مخرجا في الحالتين، وقد أجاب عن ذلك بقوله: " ... لأنهم نظروا للأغلب فحكموا له بأنه المخرج، فلما كان الأغلب في حالة إخفائهما أو إدغامهما عَمَل الخيشوم، جعلوه مخرجهما حينئذ، وإن عَمِل اللسان والشفتان

(١) نهاية القول المفيد ص٥٥.

(٢) الكتاب ٤/٤٣٤.

(٣) علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- ص٢١٦.

أيضا، ولما كان الأغلب في حالة التحريك والإظهار عَمَل اللسان والشفتين؛ جعلوهما المخرج، وإن عَمِل الخيشوم حينئذ"[١].

وبعد هذه الوقفة مع توصيف الحقائق العلمية وتحليلها، وإبراز المزايا والخصائص، وتسجيل بعض الملاحظات بعيدا عن التعصب والتعسف، بقي أن نقول: إننا أمام عالم من طراز فريد في علم الصوتيات الفسيولوجية والتشريحية، وقد استطاع – بجدارة– أن يضع أيدينا على كثير من الحقائق والنتائج؛ معتمدا على الملاحظة الذاتية والتجربة الشخصية– والتي اتفقت في معظمها مع ما توصلت إليه الدراسات الحديثة؛ دون الاستعانة بأي أجهزة أو آلات؛ مما يكشف عن ذكاء نادر، ووعي صوتي دقيق وعميق.

وإذا كان هناك خلاف بين رؤية الشيخ – رحمه الله– وبين ما أقرته الدراسات المعملية الحديثة، فإن مجال الاتفاق بينهما أوسع من مجال الاختلاف، كما أن كثيرا من الاختلافات يمكن أن نغض الطرف عنها، ربما كان بسبب طريقة البحث، حيث درس الشيخ – ومن قبله القدماء– المخارج من الداخل إلى الخارج، بينما فعل المحدثون العكس، كما اعتمد الشيخ على تأملاته الشخصية في وصف المخارج البعيدة عن النظر، مثل: الهمزة، والهاء، والصوائت.

وهناك سبب آخر يفسر لنا كثيرا من تلك الإشكاليات، هو أن الشيخ قد اعتمد في توصيف مخارج الأصوات على الأعضاء المتحركة – وقد أوضحنا ذلك مثلا في حديثه عن مخرج الجيم، والشين، والياء[٢]– أكثر من

(١) نهاية القول المفيد ص٥٦.

(٢) يراجع فيما سبق ص٧٧.

اعتماده على الأجزاء الثابتة، في حين أن المحدثين عنوا بالثابتة أكثر من المتحركة.

وهناك سبب ثالث يحل لنا كثيرا من تلك الخلافات، هو أن عملية إنتاج الصوت اللغوي – أيا كان– لا تتم بعضو واحد أبدا، بل لا بد أن يتعاون عضوان فأكثر لإتمام تلك العملية، فمن الجائز أن ينسب الباحث مخرج الصوت إلى أحد العضوين المشتركين في العملية، بينما ينسبه آخر إلى العضو الثاني، وبسبب ذلك اختلفت المصطلحات، وإن كانت الأفكار متقاربة.

وقبل أن نبرح مكاننا هذا، لا بد أن نسجل – شهادة صدق وحق– بأن نظرية المخارج عند الشيخ – رحمه الله– من المباحث الصوتية الرائدة، وقد بذل فيها جهدا مشكورا ومأجورا، تنزيها لكتاب الله من اللحن، ورعاية لواجبات التلاوة، ومعايير القراءة.

المبحث الثاني

صفات الحروف

مفهوم الصفة عند محمد مكي نصر

فطن الشيخ – رحمه الله– إلى أن الصفة تمثل – بعد المخرج– النصف الثاني من الصوت، حيث لا يمكن توصيف أي صوت من أصوات العربية دون الوقوف على الكيفية المصاحبة له حال تكونه في المخرج. وقد أدرك – أيضا– أهمية الصفة وجوهريتها، حيث تتمايز الأصوات التي تتشارك في مخرجها بصفاتها، وقد ظهر ذلك جليا في تحديده لمفهوم الصفة اصطلاحا: " كيفية عارضة للحرف عند حصوله في المخرج؛ من الجهر والرخاوة،

والهمس والشدة ونحوها، وبذلك يتميز بعض الحروف المتحدة في المخرج عن بعض"[١].

عدد الصفات عند محمد مكي نصر

تعرض الشيخ – رحمه الله – إلى عدد صفات الحروف، وعرض فيها أربعة مذاهب، على النحو التالي:

١- مذهب ابن الجزري – وتابعه على ذلك كثير من العلماء- أنها سبع عشرة صفة.

٢- مذهب صاحب الرعاية – مكي بن أبي طالب[٢] – أنها أربع وأربعون صفة.

٣- مذهب البركوي[٣] – صاحب الدر اليتيم- أنها أربع عشرة صفة.

---

(١) نهاية القول المفيد ص٦٣.

(٢) هو مكي بن أبي طالب بن حموش القيسي القيرواني، أستاذ القراء والمجودين، ولد بالقيروان٣٥٥هـ، ونشأ فيها، وحج وسمع بمكة من أحمد بن فراس، وبالقيروان من القابسي، وقرأ القراءات بمصر على أبي الطيب بن غلبون وابنه طاهر، وجلس للإقراء بجامع قرطبة، وجل قدره، وعظم أمره. من تصانيفه: التبصرة في القراءات، مشكل إعراب القرآن، الرعاية في التجويد، الموجز في القراءات ... وغيرها، توفي في ثاني المحرم٤٣٧هـ. معرفة القراء الكبار ٢/٧٥٢،٧٥١، غاية النهاية٢/٢٧٠،٢٧١.

(٣) هو محمد بن بير علي البِرْكوي، الرومي الحنفي (تقي الدين) صوفي، واعظ، نحوي، فقيه، مفسر، محدث، فرضي، مشارك في غير ذلك، ولد بقصبة بالي كسرى٩٢٩هـ/١٥٢١م، ونشأ فيها، ودرس بقصبة بركي فنسب إليها، من تصانيفه: الدر اليتيم في التجويد، كتبه في أوائل جمادى الأولى سنة٩٧٤هـ (وهو مطبوع، وقفت عليه)، إمعان الأنظار في الصرف، امتحان الأذكياء في النحو ... وغيرها، توفي٩٨١هـ/١٥٧٣م. (بتصرف واختصار) معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية٣/١٧٦، حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب ==

٤- مذهب شارح(١) نونية الإمام السخاوي(٢)؛ أنها ست عشرة صفة(٣).

==

والفنون ٧٣٧/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، هداية القاري ص٧١٣، ٧١٤.

(١) هو الحسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي، المصري المولد، اللغوي النحوي الفقيه البارع بدر الدين، أخذ العربية عن أبي عبد الله الطنجي، والسراج الدمنهوري، والفقه عن الشرف المقبلي المالكي، وأتقن العربية والقراءات على المجد اسماعيل الششتري، ومن تصانيفه: شرح التسهيل، شرح المفصل، الجنى الداني في حروف المعاني، المفيد في شرح عمدة المجيد التي شرح فيها النونية، مات يوم الفطر، ودفن بسرياقوس سنة ٧٤٩هـ. جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ٥١٧/١، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية١٣٣٩هـ/١٩٧٩م. وأيضا: غاية النهاية ٢٠٧/١.

(٢) علي بن محمد بن عبد الصمد علم الدين أبو الحسن الهمداني السخاوي، ولد سنة ثمان أو تسع وخمسين وخمسمائة بسخا من عمل مصر، وسمع بإسكندرية من السلفي وأبي طاهر بن عوف، وبمصر من البوصيري، وقرأ القراءات بها على يد أبي القاسم الشاطبي، ثم رحل إلى دمشق، وتصدر للإقراء، وألف من الكتب: شرح الشاطبية، وسماه فتح الوصيد، وهو أول من شرحها- وكتاب جمال القراء وجمال الإقراء، وكتاب المفضل في شرح المفصل ... وغيرها، وتوفي في ١٢ من جمادى الآخرة٦٤٣هـ. مختصرا من: معرفة القراء ١٢٤٥/٣-١٢٥٠، غاية النهاية ٥٠٢/١-٥٠٥ أما النونية: فتبلغ عدتها أربعة وستين بيتا، ألفها السخاوي في كتاب: عمدة المفيد وعدة المجيد، وشرحها المرادي في: المفيد في شرح عمدة المجيد، ومطلعها:

يا من يروم تلاوة القرآن ويرود شأو أئمة الإتقان

وخاتمتها: واعلم بأنك جائر في ظلمها إن قستها بقصيدة الخاقاني.

ينظر: المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد ص٤٦-٥٢، تحقيق: جمال السيد رفاعي، تصحيح وتقديم: الشيخ: محمود حافظ برانق، د.حامد بن خير الله، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

(٣) نهاية القول المفيد ص٦٣، ٦٤.

أساس الاختلاف

فسَّر الشيخ – رحمه الله – سبب اختلاف علماء التجويد والقراءات في عدد صفات الحروف؛ بأنه راجع إلى إضافة صفة، أو إسقاط أخرى، فالبركوي نقص الذلاقة وضدها، والانحراف واللين، وزاد صفة الغنة. وشارح النونية نقص الذلاقة وضدها أيضا، وزاد صفة الهوائي. والمرعشي عدها سبع عشرة بنقص الذلاقة وضدها، والانحراف واللين، وزاد أربع صفات: الغنة، والخفاء، والتفخيم، والترقيق.

مذهب الشيخ – رحمه الله–

اعتمد الشيخ مذهب ابن الجزري في عدد الصفات، حيث قال بعد أن عرض مذاهب العلماء: " ولما كان خير الأمور أوسطها، اخترت أن أذكر في هذه الرسالة ما هو الأوسط من هذه الأقوال الثلاثة، وهو قول ابن الجزري بأنها سبعة عشر "(١).

وقد بين الأساس الذي اعتمده في ترجيح مذهب ابن الجزري على غيره؛ حيث اقتصر على ذكر الصفات الجوهرية التي لا يستقيم ذات الصوت إلا بها، سواء أكانت صفات مزدوجة – وعدتها

عشرة– كالشدة والرخاوة وغيرها، أم صفات مفردة – وعدتها سبعة– كالانحراف واللين ...إلخ.

أما الصفات غير الجوهرية – سواء أكانت مكتسبة من خلال السياق بسبب الجوار الصوتي؛ كالإخفاء، والاقلاب ونحوها، أم ألقابا لقبت بها بعض الأصوات بسبب المخرج؛ كالحلقية، والشفوية ...إلخ– فإنها لم تكن – هي

(١) نهاية القول المفيد ص٦٤.

وغيرها – محل اهتمام الشيخ[١]، حيث تخرج تلك الصفات والألقاب عن حد الصفة الذي ذكره الشيخ – رحمه الله– في كونها لا تمثل كيفيات نطقية تصاحب تكوُّن الأصوات في مخارجها دائما، وإنما لأسباب عارضة.

ويدعم ما استنبطناه قول الشيخ بعد اعتماده مذهب ابن الجزري: " ... ثم بعد التكلم عليها (يقصد السبع عشرة صفة) نتكلم على صفتي الخفاء والغنة[٢]؛ لأنهما من الصفات اللازمة أيضا"[٣]. وهو يعني أنها من الصفات المركبة في جسم بعض الحروف، والتي لا تطرأ ولا تزول، وبها تتمايز تلك الحروف عن غيرها.

كما قال تعقيبا على اختيار المرعشي أربع صفات – منها التفخيم والترقيق– " وفيه أن التفخيم والترقيق من الصفات العارضة؛ والمقام مقام عد الصفات اللازمة. فتأمل"[٤]. وهو يعني أنها هيئات عارضة وكيفيات طارئة، وليست لازمة.

ومن هذا العرض، نخلص إلى: أن جملة الصفات التي عرض لها الشيخ – بناء على الأساس الذي استند إليه– تبلغ عدتها – على التحقيق– تسع عشرة – بإضافة صفتي الخفاء والغنة– لا سبع عشرة. وإذا اعتبرنا التوسط صفة مستقلة – وهو من وجهة نظري كذلك– حيث يتحقق بتحركات

---

(١) قال: " وللحروف صفات أخرى غير مشهورة، تركناها خوفا من الإملال والتطويل". نهاية القول المفيد ص٨٢، ينظر في تفصيل تلك الصفات د. علام: عن علم التجويد القرآني ص٧٣ وما بعدها.

(٢) أفرد الحديث عنهما في خاتمة الفصل الثاني من الباب الثاني تحت عنوان: " خاتمة في الكلام على صفتي الخفاء والغنة، وبيان حروفهما". نهاية القول المفيد ص٨١،٨٢.

(٣) نهاية القول المفيد ص٦٤.

(٤) نهاية القول المفيد ص٦٤.

فسيولوجية تجمع بين الشدة والرخاوة في آن واحد، ويميز مجموعة صوتية بعينها " لن عمر"، فإن مجموع تلك الصفات يبلغ – على التحقيق– عشرين صفة.

وإذا أضفنا إلى هذا المجموع صفة الظهور التي ذكرها الشيخ عرضا – ولم يفرد لها حديثا مستقلا مثلما فعل مع بقية الصفات، متضادة أم غير متضادة– في ثنايا حديثه عن بعض الأصوات(١)، فإن مجموع نظرية الصفات في رؤية الشيخ – رحمه الله– تكون إحدى وعشرين صفة.

المطلب الأول: الصفات المتضادة

وقد آثر الشيخ – رحمه الله– تسميتها بهذا الاسم، فقال: " اعلم أن الصفات السبع عشرة تنقسم إلى قسمين: قسم له ضد، وهو خمسة وضده كذلك ... فذوات الأضداد: الجهر وضده الهمس، والشدة وضدها الرخاوة، وما بينهما، والاستعلاء وضده الاستفال، والإطباق وضده الانفتاح، والإذلاق وضده الإصمات"(٢).

وهي ما تسمى بالصفات المُمَيِّزة (Distinctive features) التي تتمايز بها الأصوات ذات المخرج الواحد، أو الصفات المُشخِّصة التي لا يستقيم ذات الصوت إلا بها. وتعرف في علم الأصوات الحديث باسم " نظرية الصفات الفارقة أو الجوهرية، وتقابل المصطلح الإنجليزي (–Characteristics).

(١) قال: " ... إذ في الفاء والحاء والثاء صفة الظهور الذي هو ضد الخفاء، وهو من صفات القوة، لكن لم يوضع له اسم في هذا الفن". نهاية القول المفيد ص٦٥.

(٢) نهاية القول المفيد ص٦٤.

١- الجهر والهمس

وقد حدده بقوله: " الجهر: انحباس جَرْي النفَس عند النطق بالحرف لقوته؛ وذلك من قوة الاعتماد

على المخرج ... والهمس: جَرَيان النفَس عند النطق بالحرف لضعفه؛ وذلك من ضعف الاعتماد على مخرجه"(١). وهو متأثر في هذا التعريف بما قدمه سيبويه(٢)؛ الذي يعد أول من قدم تعريفا للمجهور والمهموس، ظل هو الأساس الذي اعتمد عليه القدماء. وظلت فكرة جريان النفس وعدم جريانه؛ الناتجة عن قوة أو ضعف الاعتماد- هي الفكرة المسيطرة على تصور القدماء لمفهوم الجهر والهمس.

أما المحدثون فقد بنوا تصورهم عن الجهر والهمس؛ معتمدين على أساس آخر، وهو: اهتزاز الأوتار الصوتية حال النطق بالمجهور، وعدم اهتزازها حال النطق بالمهموس. فالمجهور: " هو الذي يهتز معه الوتران الصوتيان؛ نتيجة انقباض فتحة المزمار، وضيق مجرى الهواء، واقتراب الوترين الصوتيين اقترابا يسمح للهواء بالتأثير فيهما بالاهتزاز. والمهموس: هو الصوت الذي لا يهتز معه الوتران الصوتيان؛ نتيجة انبساط فتحة المزمار، واتساع مجرى الهواء، وابتعاد الوترين الصوتيين، بحيث لا يؤثر الهواء فيهما بالاهتزاز "(٣).

---

(١) نهاية القول المفيد ص٦٤،٦٥.

(٢) الكتاب ٤/٤٣٤.

(٣) الأصوا ت اللغوية ص٢١،٢٢، أصوات اللغة العربية ص١٦٣، عن علم التجويد القرآني ص٧٧، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا ص٢٢٨-٢٣٠، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص١١٨، المدخل إلى علم أصوات العربية ص١٠١،١٠٢، الأصوات عند سيبويه ص٣٠،٣١.

ولعل الخلاف الناجم بين القدماء والمحدثين في تحديد اصطلاح الجهر والهمس، يرجع إلى عدم معرفة المتقدمين بحقيقة الوترين الصوتيين، وطبيعة عملهما في إنتاج الأصوات اللغوية، وهو ما كشفت عنه الإمكانات الحديثة من مختبرات الأصوات وأجهزة التشريح.

الأصوات المجهورة والمهموسة

عد الشيخ – رحمه الله– الحروف المجهورة (١٩)، والحروف المهموسة (١٠) على عادة القدماء من علماء العربية وعلماء التجويد: " ... وحروفه (الجهر): تسعة عشر حرفا، جمعها بعضهم في كلمات، وهي: عظم وزن قارئ ذي غض جد طلب ... وحروفه (الهمس): عشرة، يجمعها قولك: فحثه شخص سكت"(١).

وقد تباينت آراء المعاصرين مع آراء المتقدمين في قسم من الحروف المجهورة، وهي الهمزة، والقاف، والطاء، حيث عدها المحدثون أصواتا مهموسة. " ونحن أمام هذه القضية بين ثلاثة احتمالات:

١– احتمال أنهم أخطأوا في وصف هذه الأصوات، فعدوها مجهورة، وهي مهموسة.

٢– احتمال أنهم حين وصفوا هذه الأصوات كانت مجهورة ثم تغيرت بعد ذلك حتى صارت مهموسة.

٣– احتمال أنهم وصفوا نوعا مجهورا من تلك الأصوات كان سائدا في بعض العرب، لا سيما الطاء والقاف"(٢).

(١) نهاية القول المفيد ص٦٥.

(٢) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٢٠٦.

وقد ناقش بعض الأصواتيين المحدثون قضية تلك الأصوات الثلاثة في إطار تلك الاحتمالات بما لا يتسع المقام لسرده(١).

تعقيب

١- جاء تعريف الشيخ – رحمه الله- لمفهوم الجهر والهمس، وتحديد المجموعة الصوتية لكل منهما؛ ترادادا لما قاله رائد هذه الفكرة (سيبويه)، وقد اعتمد في شرحه على كيفية مرور الهواء في جهاز النطق (جريان النفس وعدم جريانه)، ولم يلتفت إلى دور الوترين الصوتيين (الاهتزاز وعدم الاهتزاز) في تحديد الصوت المجهور والصوت المهموس، وهو ما يختلف – إلى حد ما- مع ما توصلت إليه الدراسات في هذا المضمار.

٢- تختلف الأصوات المجهورة عن الأصوات المهموسة في خصائصها النطقية والسمعية والفيزيائية، وقد ركز الشيح – رحمه الله- على الناحيتين النطقية والسمعية.

فمن الناحية النطقية: ذكر أن النفس قليل مع المجهور، وكثير مع المهموس؛ وذلك لقوة الاعتماد أو ضعفه على هذه الأصوات في مواضع خروجها. وهو ما فسره علم الأصوات الفسيولوجي حال الجهر بانقباض فتحة المزمار، وباقتراب الوترين الصوتيين أحدهما من الآخر، مما يضيق

(١) ينظر في تفصيلات تلك القضية: الأصوات اللغوية ص٥٣،٥٤، وأيضا ص٧٢،٧٣، ص٧٧، علم الأصوات ص١٧٩،١٨٠، دروس في علم أصوات العربية ص٣٥، المصطلح الصوتي ص٩٧،٩٨، التطور النحوي ص١٦،١٧، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٢٠٧-٢١٩، أصوات اللغة العربية ص١٨١-١٨٩، الأصوات عند سيبويه ص٣٦،٣٧.

الفراغ بينهما، لكنه يسمح بمرور الهواء. أما في حالة الهمس: يرتخي الوتران الصوتيان، مما يسمح للهواء بالخروج دون أن يقابله أي عائق(١).

ومن الناحية السمعية: فقد قرر أن المجهور أوضح في السمع من المهموس، وهو ما يفهم من تعريفه للكلمتين لغويا: " الجهر: ومعناه لغة: الإعلان والإظهار ... الهمس: ومعناه لغة: الإخفاء"(٢). كما نقل عن المرعشي: " وهذه الحروف (المجهورة) لقوتها في نفسها، وقوة الاعتماد عليها في موضع خروجها، لا تخرج إلا بصوت قوي شديد..."(٣) .

وقد أشار المحدثون إلى هذه السمة، وأن الأصوات المجهورة أشد بروزا ووضوحا في السمع (وهو ما يقابل المصطلح الإنجليزي Sonority) من الأصوات المهموسة(٤) . " وذلك راجع إلى النغمة الحنجرية المتولدة من اهتزاز أو ذبذبة الوترين الصوتين"(٥).

أما الناحية الفيزيائية: فلم يلتفت إليها، وذلك راجع إلى عدم درايته بأجهزة التحليل الطيفي للأصوات (الإسبكتروجراف Spectrograph)؛ الذي يظهر اختلافا في عدد الذبذبات بين حزم الأصوات المجهورة المسجلة على الورق وحزم الأصوات المهموسة(٦).

---

(١) علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا ص٢٢٨، ٢٢٩ بتصرف.

(٢) نهاية القول المفيد ص٦٤، ٦٥.

(٣) نهاية القول المفيد ص٦٥.

(٤) د. إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص١٢٤، وأيضا ص٢٨ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة١٩٧٥م، الأصوات عند سيبويه ص٣١.

(٥) المدخل إلى علم أصوات العربية ص١٠٧.

(٦) د. سلمان حسن العاني: التشكيل الصوتي في اللغة العربية– فونولوجيا العربية ص٥٢–٥٦، ترجمة: ياسر الملاح، مراجعة: د. محمد محمود غالي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ==

٣- ومن ملاحظاته القيمة: إدراكه أن الجهر سمة فارقة؛ يستعان بها للتمييز بين الأصوات المتحدة في المخرج والصفة، قال عن الخاء المعجمة: " ... فإذا نطقت بها فوفها حقها من صفاتها؛ لأنها مشاركة للغين في صفاتها إلا في الجهر، فإذا لم يبين همس الخاء صارت غينا"(١). وقال عن العين: " ... فإذا نطقت بها فبين جهرها، وإلا عادت حاء، إذ لولا الجهر وبعض الشدة لكانت حاء"(٢).

تعقيب

وهذه الفكرة – في الحقيقة- من التحريرات الصوتية العميقة، التي أولاها الشيخ – رحمه الله- عناية بالغة، وعقد لها بابا خاصا(٣)، ووضع لها قانونا يقاس عليه، فقال: " اعلم أن كل حرف شارك غيره في مخرجه؛ فإنه لا يمتاز عن مشارَكه إلا بالصفات، وكل حرف شارك غيره في صفاته؛ فإنه لا يمتاز عنه إلا بالمخرج"(٤).

ولم يقف الشيخ – رحمه الله- في تطبيقات تلك النظرية – إن جاز لنا أن نطلق عليها مصطلح النظرية- عند حد الجهر، بل طبقها على كل صفات الأصوات – مزدوجة أم غير مزدوجة- ونظرة فاحصة تؤكد لنا اطراد تلك النظرة في كلام الشيخ:

==

الطبعة الأولى١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(١) نهاية القول المفيد ص٩٥، وأيضا ص٨٢.

(٢) نهاية القول المفيد ص٩٢.

(٣) تحت عنوان: " في بيان الفرق بين الحروف المشتركة في المخرج والصفة"، نهاية القول المفيد ص٨٢-٨٤.

(٤) نهاية القول المفيد ص٨٢.

●يقول: " والجيم والشين والياء: اشتركت مخرجا وانفتاحا واستفالا، وانفردت الجيم بالشدة، واشتركت مع الياء في الجهر، وانفردت الشين بالهمس والتفشي، واشتركت مع الياء في الرخاوة"(١).

●يقول: " والطاء والدال المهملتان والتاء المثناة الفوقية: اشتركت في المخرج والشدة، وانفردت الطاء بالإطباق والاستعلاء والتفخيم، فلولا هذه الثلاثة لكانت دالا، ولولا أضدادها في التاء لكانت طاء، ولو أعطيت الطاء همسا مع بقاء الإطباق والاستعلاء والتفخيم لا تصير حرفا معتدا به، بل هو لحن، وتنفرد الدال عن التاء بالجهر فقط، فلولا الجهر لكانت تاء، ولولا الهمس في التاء لكانت دالا، فالطاء أقرب إلى الدال منها إلى التاء بدون العكس؛ لأن الدال أقرب إلى التاء وبالعكس"(٢).

●يقول: " والصاد السين والزاي: أشتركت مخرجا ورخاوة وصفيرا، وانفردت الصاد عن السين بالإطباق والاستعلاء والتفخيم، فلولا هذه الثلاث لكانت سينا، ولولا أضدادها في السين لكانت صادا، وعن الزاي بهذه الثلاث وبالهمس، فلولا هذه الأربع لكانت زايا، ولولا أضدادها في الزاي لكانت صادا، وتنفرد السين عن الزاي بالهمس فقط، فلولا الهمس لكانت زايا، ولولا الجهر في الزاي لكانت سينا؛ فالصاد أقرب إلى السين منها إلى الزاي، بدون العكس؛ لأن السين أقرب إلى الزاي"(٣).

(١) نهاية القول المفيد ص٨٣.

(٢) نهاية القول المفيد ص٨٣، ٨٤.

(٣) نهاية القول المفيد ص٨٤.

والناظر في كتاب نهاية القول المفيد يقع على عشرات الأمثلة – والتي تؤكد استواء تلك النظرية على سوقها عند الشيخ– وإنما أردت الاستشهاد لا الاستقصاء(١).

٤– ومن ملاحظاته المفيدة والتي تتعلق بالوضوح السمعي لتلك السمة: إدراكه أن الأصوات تتفاوت في جهرها وهمسها قوة وضعفا، وأنها ليست على درجة واحدة، وبعبارة أخرى، يمكن أن نقول: إنه أسس سلما لدرجات الجهر والهمس للأصوات التي تنتمي إلى المجموعات الصوتية لهاتين السمتين.

قال عن الحروف المجهورة: " وبعضها أقوى من بعض في الجهر على قدر ما في الحرف من صفات القوة؛ فالطاء أقوى من الدال، وإن اشتركتا في قوة الجهر؛ لانفراد الطاء بالإطباق والاستعلاء والتفخيم"(٢). وقال عن الحروف المهموسة: " وبعض هذه الحروف أضعف من بعض في الهمس؛ فالصاد المهملة والخاء المعجمة أقوى من غيرهما ... والكاف والتاء المثناة فوق أقوى من باقي الحروف غير الصاد والخاء ... وأضعف الحروف المهموسة: الهاء، والفاء، والحاء، والثاء المثلثة ... بل أضعفها الهاء"(٣).

وهذه الملاحظة – والتي تسبقها– تنبئ عن إدراك عميق لخصائص الأصوات وصفاتها، والعلاقة بينها.

---

(١) ص٩٠–١٠٠، تحت عنوان: " في توزيع الصفات على موصوفاتها؛ مرتبة على ترتيب مخارجها، وفي ذكر ما يتعلق بكل حرف من التجويد".

(٢) نهاية القول المفيد ص٦٥.

(٣) نهاية القول المفيد ص٦٥.

٢- الشدة والرخاوة والتوسط

وقد حدده بقوله: " انحباس جري الصوت عند النطق بالحرف؛ لكمال قوة الاعتماد على المخرج ... والرخاوة: جريان الصوت مع الحرف؛ لضعف الاعتماد على المخرج ... وأما التوسط بين الشدة والرخاوة: فهو عدم كمال احتباس الصوت وعدم كمال جريه"(١). وهو يدور حول تعريف سيبويه، ولم يبتعد عن حقيقته، ولم يغير في ألفاظه إلا الشيء القليل(٢).

أما المحدثون فقد بَنَوا تصورهم للمفاهيم الثلاثة على طبيعة المخرج، وما يحدث فيه أثناء النطق الأصوات، حيث تتعاقب على المخرج ثلاث حالات – لا رابع لها– غلق، أو تضييق، أو هما معا. " فإن حدث غلق محكم كان الصوت شديدا، وإن حدث تضييق فقط كان رخوا، وإن حدث غلق في

مكان، وتضييق في مكان آخر، كان الصوت متوسطا"(٣).

بيد أنه إذا أنعمنا النظر أدركنا أن تحديد الشيخ – رحمه الله– للمفاهيم الثلاثة يتفق في مضمونه مع ما ذهب إليه المحدثون، وأن الخلاف بينهما لا يعدو أن يكون لفظيا، فانحباس جري الصوت عند النطق بالحرف الشديد على ما قرره الشيخ؛ إنما هو من التقاء عضوي النطق التقاء محكما، حتى ينحبس الهواء فترة من الزمن، ثم يعود للخروج مرة أخرى على شكل انفجار،

(١) نهاية القول المفيد ص٦٦-٦٨.

(٢) الكتاب٤/٤٣٥،٤٣٤.

(٣) عن علم التجويد القرآني ص٨٣، وقارن بـ مناهج البحث في اللغة ص٨٦،٨٧، أصوات اللغة العربية ص١٧١-١٧٣، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص١١٩-١٢٣.

وقد عبر عن ذلك تارة بقوله: " ... لكمال قوة الاعتماد في المخرج"[١]، وتارة أخرى بقوله: " لاشتداد الحرف في مخرجه"[٢].

وجريان الصوت مع الحرف الرخو، إنما هو من التقاء عضوي النطق التقاء غير محكم، فيحتك الهواء بهما محدثا نوعا من الحفيف، وقد عبر عن ذلك بقوله: " ... لضعف الاعتماد على المخرج"[٣]. وأما المتوسط، فلأن الاعتراض التام للهواء يحدث في مكان ما؛ مع السماح له بالخروج من مكان آخر، وهو ما عبر عنه الشيخ – رحمه الله– بعدم كمال احتباس الصوت وعدم كمال جريه.

وتمثيله للأحوال الثلاثة يؤكد ما استخلصناه: " ... لأن الرخوة إذا نطق بها في نحو (ألبس وأنعش) جرى معها الصوت، والشديدة إذا نطق بها في نحو: (اضرب) و (اجلد) انحبس الصوت معها ولم يجرِ، والتي بين الرخوة والشديدة إذا نطق بها في نحو: (انعم) و (اعمل) لم يجرِ الصوت معها جريانه مع الرخوة، ولم ينحبس انحباسه مع الشديدة"[٤].

ولعل من المفيد أن نؤكد – في هذا المقام– أن استعمال الشيخ – رحمه الله– لكلمة (انحباس) أوضح في الدلالة على حقيقة الصوت الشديد من كلمة (المنع) التي استخدمها سيبويه " فهي تشير إلى القفل التام لمجرى النَّفَس. وقد استخدم بعض علماء الأصوات من المحدثين[٥] كلمة (الحبس)،

(١) نهاية القول المفيد ص٦٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق ص٦٨.

(٥) الأصوات اللغوية ص٢٤،٢٥، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص١٢٠.

ومـا اشـتق منهـا فـي وصـف عمليـة تكـون الأصـوات الانفجاريـة (أي؛ الشديدة)"[١].

الأصوات الشديدة والرخوة والمتوسطة

عد الشيخ – رحمه الله– الحروف الشديدة (٨) والحروف الرخوة (١٦) والحروف المتوسطة (٥)، وقد أضاف حروف المد الثلاثة إلى المتوسطة – كما فعل سيبويه من قبل[٢]– فصارت (٨)، قال: " ... وحروف الشدة ثمانية يجمعها قولك: (أجد قط بكت)، وأما التوسط: فحروفه خمسة يجمعها قولك: لن عمر ... وبعضهم زاد على هذه الخمسة حروف المد، وعليه فتصير ثمانية ... الرخاوة: وحروفها ستة عشر"[٣].

تعقيب

تجدر الإشارة إلى أن تقسيم الشيخ – رحمه الله– للمجموعات الصوتية التي تنتمي إلى كل حالة نطقية من الأحوال الثلاثة، تبدو عليه بعض الملاحظات من وجهة نظر الدراسات الصوتية الحديثة، نجمل القول فيها على النحو التالي:

الملاحظة الأولى فيما يتعلق بالأصوات الشديدة: فإن ذكره الجيم والقاف في الأصوات الشديدة محل نظر، لأن الجيم الفصيحة – بصورتها التي ننطقها اليوم– أصابها من التطور ما أدى إلى صيرورتها وقفة احتكاكية بعد أن كانت وقفة خالصة، حيث تتكون من عنصرين صوتيين: أحدهما مغلق،

(١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص١٢٧.

(٢) الكتاب ٤/٤٣٥.

(٣) نهاية القول المفيد ص٦٧،٦٨.

كأنه قطعة دال. وثانيهما: عنصر احتكاكي، كأنه قطعة شين. ولا يختلف الأمر كثيرا في القاف الفصيحة – التي تشبه القاف السودانية اليوم– فهي تشتمل على الصفتين: غلق يعقبه تضييق، فالأولى أن يكونا من الأصوات المتوسطة لا الشديدة(١).

الملاحظة الثانية فيما يتعلق بالأصوات الرخوة: فإن ذكره الضاد في الأصوات الرخوة فيه نظر؛ لأن الضاد الفصيحة – حسب وصف الشيخ لها– تشتمل على غلق في مكان وتضييق في آخر. وبيان ذلك: " أن مخرجها ما بين إحدى حافتي اللسان، وما يحاذيها من الأضراس العليا، وهنا يكون الغلق. وخروجها من الجهة اليسرى أسهل وأكثر استعمالا، ومن اليمنى أصعب وأقل استعمالا، ومن الجانبين – يعني معا– أعز وأيسر"(٢)، وهنا يكون التضييق. ومن ثم فإن الأولى أن تكون من الأصوات المتوسطة لا من الأصوات الرخوة كما ذكر الشيخ.

" أما الضاد الفصيحة: فمخرجها من طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا ... وهو صوت شديد؛ لاتصال عضوي النطق – طرف اللسان، وأصول الثنايا العليا– اتصالا محكما يحول دون تسرب الهواء، فإذا انفصلا خرج صوت انفجاري هو الضاد المصرية، وهي بهذا الوصف تختلف عن الضاد العربية كثيرا"(٣). والضاد بهذا الوصف أشبه بالدال المطبقة أو الطاء

---

(١) الأصوات اللغوية ص٢٥، علم الأصوات ص٣٢٩، عن علم التجويد القرآني ص٨٤، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص١٢٢، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٢٤٠–٢٤٤، ، المدخل إلى علم أصوات العربية ص١٠٩،١١٠. الأصوات عند سيبويه ص٢٨.

(٢) نهاية القول المفيد ص٥٢.

(٣) أصوات اللغة العربية ص١٩٠،١٩١، وقارن بـ مناهج البحث في اللغة ص٩٢، عن علم ==

المجهورة، وهو النطق الفصيح الذي يجري على ألسنة القراء، والذي شاع في العالم العربي والإسلامي، حيث صارت الضاد شديدة من مخرج الطاء والدال والتاء.

الملاحظة الثالثة فيما يتعلق بالأصوات المتوسطة: فإن ذكره العين مع الأصوات المتوسطة محل نظر " فهي الصوت الوحيد بين هذه المجموعة (لن عمر)، الذي لا يمكن أن يحدث معه غلق في جهاز النطق؛ لأنها تخرج من الحلق، والحلق – فسيولوجيا– لا يمكن أن يحدث فيه غلق، فعضلاته الغضروفية لا يمكنها ان تلتقي محدثة غلقا"(١). ومن ثم؛ فالأولى أن تصنف مع الأصوات الرخوة – هي وما عداها من أصوات الحلق– لأن فيها عنصرا واحدا فقط، هو التضييق. " وقد اتضح بصورة الأشعة أن في نطق العين تضييقا كبيرا للحلق، وهذا ما يدعونا – وما دعا غيرنا من المحدثين قبل ذلك– إلى اعتبار صوت العين رخوا لا متوسطا"(٢).

الملاحظة الرابعة فيما يتعلق بأصوات المد: حيث كان موقف الشيخ – رحمه الله– مضطربا في تصنيفها على أساس طبيعة المخرج وما يحدث فيه من غلق أو تضييق، أو هما معا. فقد عدها تارة في جملة الحروف المتوسطة، وجعلها ثمانية مجموعة في قولهم: " ولينا عمر" أو " نولي عمر". وتارة أخرى: جعلها مع الأصوات الرخوة، ومجموعها ستة عشر حرفا.

==

التجويد القرآني ص٨٤، المدخل إلى علم أصوات العربية ص١٠٨،٢٧٥، الأصوات عند سيبويه ص٢٨، دراسة الصوت اللغوي ص٢٤٨،٢٤٩.

(١) عن علم التجويد القرآني ص٨٥، وقارن بـ المدخل إلى علم أصوات العربية ص١١٣.

(٢) مناهج البحث في اللغة ص١٠٢، وقد أيد المستشرقون تلك الحقيقة – برجشتراسر: التطور النحوي ص١٥، جان كانتينو: دروس في علم أصوات العربية ص٣٦.

وكان الأولى بالشيخ – رحمه الله– ألا يذكر هذه الحروف الثلاثة هنا؛ لأنها قسم مستقل قائم بذاته في مقابل جميع الأصوات الأخرى، اصطلح المحدثون على تسميته بالصوائت في مقابل الصوامت، وتصنيف الأصوات إلى شديدة ورخوة ومتوسطة أمر خاص بالصوامت لا دخل للصوائت فيه [١] . " ولذلك وجدنا سيبويه وصاحب النشر لا يذكرانها في هذا الموضوع، وتابعهما على ذلك المحدثون الذين اكتفوا بوصف الأربعة (ل ن م ر) فقط بالتوسط، وهو الصواب الذي لا محيد عنه"[٢].

وعلى هذا: " فإن إخراج الأصوات الثلاثة (و ي ا) من الأصوات المتوسطة يكون أرجح من ضمها إليه؛ لما تتميز به هذه المجموعة من اتساع مخارجها، وعدم قيام عائق في أثناء نطقها"[٣]. وإن كان لا بد من تصنيفها،

(١) وهنا لا بد من استحضار الطبيعة المزدوجة لصوتي الياء والواو، فهما من الأصوات الصامتة إذا تحيز مخرجهما، ويعدان حينئذ من الأصوات الرخوة في رأي الدكتور الحمد، بينما يرى الدكتور هلال أنهما من الأصوات المتوسطة، وذلك لأن الفراغ بين الجزء المرتفع من اللسان والحنك الأعلى يضيق إلى حد يجعل مرور الهواء يحدث نوعا ضعيفا من الحفيف الذي يسمع. وأرى أن هذا التفسير الذي قدمه الدكتور هلال ينطبق على الأصوات الرخوة لا المتوسطة. المدخل إلى علم أصوات العربية ص١١٣، أصوات اللغة العربية ص١٩٣، ينظر في تفصيل ذلك: مناهج البحث في اللغة ص٨٧.

(٢) أصوات اللغة العربية ص١٩٣.

(٣) المدخل إلى علم أصوات العربية ص١١٣، وقارن بـ علم الأصوات ص١٦٠-١٦٢، أصوات اللغة العربية ص١٠٤،١٠٥،١٩٣. وقد نوه المستشرقون بهذا الواقع الفسيولوجي لتلك المجموعة الصوتية، يقول تروبتسكوي: " إن خاصية الصحيح – بعبارة أخرى– هي إنشاء عقبة في طريق الهواء، أو فتح هذه العقبة، على حين تبدو خاصية العلة في صورة انعدام أية عقبة أو تعويق". ويقول فندريس: " كل العلل يقتضي أن يكون الفم مفتوحا، ولو اختلف هذا الفتح في الحجم، ولكنه دائما أكبر مما هو في الصحاح". لمزيد من الآراء والأقوال، مناهج البحث في اللغة ص١١٣،١١٤.

فديناميكية النطق بها تتفق مع طبيعة الأصوات الرخوة، وقد ألمح الشيخ نفسه إلى تلك الحقيقة حين قال: " ... وحروف المد أطول زمانا من سائر الحروف الرخوة"(١).

ويمكن أن نفهم من هذه العبارة حقيقتين: الأولى: أن هذه المجموعة هي أكثر أصوات العربية امتدادا وجريانا على الإطلاق – وهو ما يتفق مع معطيات الدراسات الصوتية العملية والمعملية– وإن كان لا بد من عدها، فهي من الأصوات الرخوة. الثانية: وهي مبنية على الأولى، أن لهذه المجموعة الصوتية خصوصية؛ تؤهلها لأن تكون أصلا قائما بذاته مستقلا برأسه في مقابل بقية الأصوات الأخرى– وهو ما أميل إليه–.

وكان الشيخ – رحمه الله– قد قطع في موضع آخر من كتابه برخاوة وجهر هذه الأصوات الثلاثة، وكذلك الواو والياء الصامتتين(٢).

الملاحظة الخامسة فيما يتعلق بتفريقه بين الجهر والهمس من ناحية، وبين الشدة والرخاوة والتوسط من ناحية أخرى: فقد جعل المعول عليه في العملية الأولى: هو جريان النفس وعدم جريانه. والمعول عليه في العملية الثانية: هو جريان الصوت وعدم جريانه. وهذه الملاحظة تعكس اتجاها يتسم بعمق النظرة في تحليل الأصوات، والدقة في إدراك خصائصها الصوتية.

وبيان ذلك: أنه مع الجهر والنفس عبَّر بالنفس دون الصوت " لأن هذه العملية تتم في الحنجرة، ففيها – فقط– يحكم على الصوت بالجهر إن اهتز معه الوتران، أو بالهمس إن لم يهتزا، فالهواء إلى هنا لم يزل هواء تنفس،

(١) نهاية القول المفيد ص٦٨.

(٢) نهاية القول المفيد ص٦٩.

ولم يتحول إلى صوت بعد؛ لأن ذلك إنما يتم في المخرج، فهواء الباء مثلا: لا يصبح صوتا متكاملا، إلا بعد خروج الهواء من بين الشفتين بعد الغلق. على حين أنه مع الشدة والرخاوة عبر بالصوت؛ لأن الصوت تحيزت معالمه، ولم يبق هواء تنفس؛ فالفاء عندما تمر من الممر الضيق بين أطراف الثنايا العليا، وباطن الشفة السفلى، إنما تحيزت وتكونت، فهي صوت، وليس هواء تنفس"(١).

الملاحظة الأخيرة – وهي مؤسسة على فكرة التفريق بين العمليات النطقية السابقة– حيث قسم الحروف الشديدة والرخوة إلى مجهورة ومهموسة، قال: " ... إذا علمت هذا فاعلم أن صوت الحرف ونفسه إما أن يحتسبا بالكلية، فيحصل صوت شديد، وهو في الحروف الشديدة، أو لا يحتبسا أصلا، بل يجري جريانا كاملا، وهو في الحروف الرخوة، او يتوسطا بين كمال الاحتباس وكما الجري، وهو في الحروف البينية، فهذه ثلاثة أنواع؛ ففي النوع الأول: إن جرى بعد ذلك الاحتباس نفس كثير، فالحرف شديد مهموس، وهي حرفان: الكاف والتاء الفوقية. وإن لم يجر، فالحرف شديد مجهور، وهي ستة أحرف: الهمزة، وحروف (قطب جد). وفي النوع الثاني: إن كان صوت الحرف جاريا كله مع نفس قليل، فالحرف رخو مجهور، وهي ثمانية أحرف: الضاد، والظاء، والذال، والغين المعجمات، والزاي، والألف المدية، والواو والياء مدِّيَّين أم لا. وإن كان جاريا كله مع نفس كثير، فالحرف رخو مهموس، وهي ثمانية أحرف أيضا؛ وهي الحروف المهموسة ما عدا الكاف والتاء الفوقية. وأما الحروف البينية فكلها مجهورة"(٢).

(١) عن علم التجويد القرآني ص٨٧.

(٢) نهاية القول المفيد ص٦٨،٦٩.

وهذه النص – على طوله– يكشف عن جهود طيبة ومعتبرة بذلها الشيخ – رحمه الله– في تبسيط القضايا الصوتية الدقيقة والعمقية؛ حيث قدم في هذا النص قاعدة يمكن أن نفسر في ضوئها كل صفة من هذه الصفات. ثم هو من زاوية أخرى؛ يعكس وعيا بطبيعة الأصوات، وعمقا في الدراسة، وأصالة في الطرح والتناول، ودقة في التحليل والتأصيل.

٣- الاستعلاء والاستفال

وقد حده بقوله: " الاستعلاء: ارتفاع اللسان عند النطق بالحرف إلى الحنك الأعلى ... والاستفال: انحطاط اللسان عند خروج الحرف عن الحنك إلى قاع الفم"(١). وقد أشار سيبويه إلى تلك الفكرة في ثنايا حديثه عن الإمالة، ولم يقدم لها تعريفا(٢) كما فعل مع الصفات السابقة. ولم يزد المحدثون شيئا ذا بال – عما ذكره الشيخ– في تحديد صفتي الاستعلاء والاستفال(٣).

ومن إلماحات الشيخ – رحمه الله– الواعية: أنه قد فطن إلى الجزء المستعلي من اللسان حال النطق، وأن المعتبر في الاستعلاء: استعلاء أقصى اللسان؛ سواء استعلى معه بقية اللسان أو لا. ومن ثم؛ لم تدخل حروف وسط اللسان، وهي: الجيم، والشين، والياء، في الحروف المستعلية؛ لأنه لا

(١) نهاية القول المفيد ص٧٠،٧١.

(٢) الكتاب٤/١٢٨،١٢٩ " هذا باب ما يمتنع من الإمالة من الألفات التي أَملْتَها فيما مضى"، وجاء فيه: " فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والغين، والقاف، والخاء ... وإنما منعتَ هذه الحروفَ الإمالةَ؛ لأنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى".

(٣) دروس في علم أصوات العربية ص٣٦،٣٧، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا ص٢٣٤، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص١٣٦، أصوات اللغة العربية ص١٧٤،١٧٥، عن علم التجويد القرآني ص٩٠،٩١.

يُستعلي بها إلا وسط اللسان، كما لم تدخل الكاف؛ لأنه لا يُستعلي بها إلا ما بين أقصى اللسان ووسطه(١).

ولعل ارتفاع مؤخرة اللسان الذي جعله الشيخ – رحمه الله– المعيار الأساس لعملية الاستعلاء؛ هو التفسير الصوتي لعدم حدوث الإمالة في تلك المجموعة الصوتية.

الحروف المستعلية والمستفلة

أما حروف الاستعلاء فسبعة، يجمعها قولك: (خص ضغط قظ). وأما حروف الاستفال، فهي ما عدا حروف الاستعلاء، وهو اثنان عشرون حرفا(٢).

وقد بين سبب تسمية كل منهما بهذا الاسم: " وسميت مستعلية؛ لأن اللسان يعلو عند النطق بها إلى الحنك الأعلى ... وسميت هذه الحروف مستفلة؛ لأن اللسان لا يستعلي إلى الحنك الأعلى عند النطق بها"(٣).

فطن الشيخ – رحمه الله– إلى أن الحروف تتفاوت استعلاء واستفالا – بناء على الوضع الفسيولوجي لمؤخر اللسان (أقصى اللسان) حال النطق– وأن أشدها استعلاء القاف، ويبدو أن السبب في ذلك: أن القاف حرف قصي حنكي (لهوي)، فهي تخرج من الموضع نفسه الذي يتحقق فيه العلو والتسفل، ومن ثم كان استعلاؤها شديدا. وأن الطاء أعلاها، ويبدو أن السبب في ذلك: أنها جمعت إلى صفة العلو صفة أخرى هي الإطباق – وسيأتي

(١) نهاية القول المفيد ص٧٠،٧١ بتصرف.

(٢) السابق نفسه.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٠،٧١.

بيانها- على أنها أقوى أصوات العربية على الإطلاق. وأن أسفل المستفلة: الياء التحتية، وهو ما يتفق مع تصنيف دانيال جونز للحركات المعيارية؛ باعتبار درجة وضع اللسان(١).

ذكر الشيخ – رحمه الله- أن اللام والراء يدخلان ضمن الحروف المستعلية؛ إذا كانتا مفخمتين(٢)، والتفخيم يرادف الاستعلاء، والفرق بينهما: " أن الاستعلاء يلزم حروفه، فلا يزول عنها، أما التفخيم والترقيق فإنهما يتعاقبان على الراء واللام بسبب الجوار الصوتي. أما حروف الاستعلاء فإنها ملازمة للتفخيم"(٣).

٤- الإطباق والانفتاح

وقد قدم له عدة تعريفات؛ أوفاها ما نقله عن القسطلاني(٤): " تلاقي طائفتي اللسان والحنك الأعلى عند النطق بحروفها"(٥).

---

(١) دراسات في علم الأصوات اللغوية ص١٠٢.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧١،٧٢.

(٣) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٢٥٠.

(٤) أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن الزين التاج علي، القسطلاني الأصل، المصري الشافعي. ولد في ١٢ ذي القعدة٨٥١هـ بمصر، ونشأ بها فحفظ القرآن والشاطبية والجزرية ونصف الطيبة، أخذ عن ابن حجر العسقلاني، وكذا أخذ القراءات عن الشمس بن الحمصاني، وأخذ الفقه عن الشهاب العبادي، وعن العجلوني أخذ النحو، قرأ عليه شرح الشذور، وله: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، اللآلئ السنية في شرح المقدمة الجزرية (وهو مطبوع وقفت عليه)، لطائف الإشارات في علم القراءات ...إلخ، توفي ليلة الجمعة ٨ محرم٩٢٣هـ لعروض فالج له. ودفن بقبة قاضي القضاة بدر الدين العيني من مدرسته بقرب جامع الأزهر. ينظر: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع١٠٣/٢،١٠٤، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ. وأيضا: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة١٢٨/١،١٢٩.

(٥) نهاية القول المفيد ص٧٢.

وإذا أنعمنا النظر في هذا التعريف أدركنا أن عملية الإطباق تتكون – فسيولوجيا– من عنصرين: أولهما: التقاء أمامي؛ حيث يكون مقدم اللسان مرتفعا في اتجاه الطبق الصلب. ثانيهما: التقاء خلفي: حيث يكون مؤخر اللسان مرتفعا في اتجاه الطبق اللين. وقد أشار الشيخ – رحمه الله– إلى هذين العنصرين بعبارة (طائفتي اللسان)، وهو بهذا التعريف يوافق سيبويه في تعريف الحرف المطبق(١).

" وهكذا تكون صورة اللسان: ارتفاع من الخلف، وارتفاع من الأمام، ويعقب ذلك: انخفاض في وسطه أو تقعر، فيصبح مثل الطبق، ومن ثم سميت هذه الصفة بالإطباق"(٢).

أما الانفتاح فقد حده بقوله: " تجافي كل من الطائفتين – أي؛ طائفتي اللسان والحنك– عن الأخرى؛ حتى يخرج الريح عند النطق بالحرف"(٣).

حروف الإطباق والانفتاح

قال: " وحروف الإطباق أربعة، جمعها ابن الجزري في نصف بيت، فقال: وصادُ ضادٌ طاءُ ظاءٌ مُطْبِقة ... وحروف الانفتاح خمسة وعشرون، يجمعها قولك: (من أخذ وجد سعة فزكا حُقَّ له سرب غيث)"(٤) . وقد علل تسميتها بالمنفتحة قائلا: " وسميت هذه الحروف الخمسة والعشرون منفتحة؛ لانفتاح

(١) الكتاب ٤/٤٣٦.

(٢)عن علم التجويد القرآني ص٨٩، وقارن بـ الأصوات اللغوية ص٥٠، مناهج البحث في اللغة ص٨٩، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص١٣٤،١٣٥، المدخل إلى علم الأصوات العربية ص١١٥،١١٦.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٣.

(٤) نهاية القول المفيد ص٧٢،٧٣.

ما بين اللسان والحنك الأعلى، وخروج الريح من بينهما عند النطق بها"[١] . وهو تعليل يلمح الوضع الفسيولوجي لجهاز النطق حال التلفظ بهذه المجموعة الصوتية.

وقد أسس الشيخ – رحمه الله– سُلَّما لتلك الأصوات المطبقة، وبيَّن أنها ليست على درجة واحدة، وإنما تتفاوت باعتبار ما فيها من صفات القوة والضعف: " وبعض حروف الإطباق أقوى من بعض؛ فالطاء المهملة أقواها في الإطباق لجهرها وشدتها، والظاء المعجمة أضعفها في الإطباق لرخاوتها وانحرافها إلى طرف اللسان مع أطراف الثنايا العليا، والصاد والضاد متوسطتان في الإطباق؛ يعني أن هذه الثلاثة لرخاوتها ضعف إطباقها، وكانت الظاء المعجمة أضعفها في الإطباق لانحرافها المذكور"[٢] .

وهو سبق يحسب للشيخ – رحمه الله– سبق به الدراسات الصوتية الحديثة، التي لم تزد شيئا على ما ذكره، مع انفراد الشيخ بالتعليل الصوتي الصائب لدرجات هذا السلم لتلك المجموعة الصوتية: " غير أنه ينبغي لنا أن نتذكر دائما؛ أن الطاء أقوى الأصوات المطبقة إطباقا؛ بسبب انطباق اللسان على الحنك انطباقا تاما، تليها – في قوة الإطباق– الضاد، ثم الصاد، وتاتي الظاء في آخر القائمة، فهي أضعف الأربعة إطباقا"[٣].

(١) نهاية القول المفيد ص٧٣.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٢،٧٣.

(٣) د. فوزي الشايب: أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة ص٧٢، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

أدرك الشيخ – رحمه الله– العلاقة الصوتية بين الإطباق والاستعلاء من ناحية، وبين الانفتاح والاستفال من ناحية أخرى، فقال: " فالإطباق أبلغ من الاستعلاء وأخص منه"[١] .

وتفسير هذه العبارة من جهتين: الأولى: باعتبار ميكانيكية النطق[٢] . التي تصحب كلتا الحالتين،

ففي حالة الإطباق: يحدث ارتفاع من الخلف، يصاحبه ارتفاع أمامي. أما حالة الاستعلاء: فلا يحدث ارتفاع إلا من الخلف فحسب، ومن ثم يكون الإطباق أبلغ من الاستعلاء في الوضع الفسيولوجي والتحركات التقطيعية والعضلية. الثانية: باعتبار الأثر السمعي، حيث يؤدي الوضع الفسيولوجي المصاحب للإطباق إلى حالة من تقعر اللسان شبهها المحدثون بالطبق أو القوس، مما يجعل انحصار الصوت حال الإطباق شديدا، وبناء عليه: كانت حروف الإطباق أبلغ في التفخيم من باقي حروف الاستعلاء؛ إذ إن قدر التفخيم على قدر الاستعلاء والإطباق. ولعل هذا هو مراده بقوله: (أبلغ).

أما قوله: (أخص)، فقد فسره بقوله: " ... إذ لا يلزم من الاستعلاء الإطباقُ، ويلزم من الإطباق الاستعلاء"[٣] . وهذا كلام سديد، فالقاف والحاء

(١) نهاية القول المفيد ص٧٢.

(٢) يقصد بميكانيكية النطق: مجموع العمليات التي تقوم بها أعضاء النطق، والتي يكمل بعضها بعضا لترجمة نبضات صادرة من الجهاز العصبي؛ إلى أصوات منطوقة، يتصف كل منها بمجموعة من الخصائص، تميزه عن غيره من الأصوات. ويرتبط بهذه العمليات ما يسمى بدينامية الهواء، والتي تنتج عن تغير في الضغط الكائن في منطقة أعضاء النطق. الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ص٧٧.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٢،٧٣.

والعين مستعلية، وليست بمطبقة. أما الصاد وأخواتها فهي مستعلية ومطبقة معا.

بقي أن أقول: " إن هناك فرقا بين صفة الإطباق وصفة الاستعلاء، هو: أن الأولى من الصفات المميزة، وأن الثانية من الصفات المحسنة، فعلى الرغم من التشابه والعلاقة بينهما، إلى جانب تخصيص مصطلح للصفات المقابلة لهما، فإن صفة الإطباق تميز بين الطاء والظاء والصاد وبين مشاركاتها في المخرج: التاء والذال والسين، وكذلك الأمر بالنسبة للضاد التي تنطق في مصر اليوم، ميزت صفة الإطباق بينها وبين الدال. بينما لا تقوم صفة الاستعلاء بأي دور تمييزي؛ إنما هي تشير إلى حالة اللسان في أثناء النطق بهذه الأصوات"(١) .

أما العلاقة بين الانفتاح والاستفال، فقد وضحها بقوله: " ... فالانفتاح أعم من الاستفال؛ لأن كل مستفل منفتح بدون العكس؛ لأن القاف والخاء والغين المعجمتين منفتحة وليست بمستفلة"(٢) . وهذه العلاقة – من وجهة نظري– مبنية على الوضع الفسيولوجي المصاحب للحالتين حال تكون أصواتهما في مخارجها، إذ إن الحالة الأولى تقتضي ابتعاد أو تجافي اللسان عن الحنك حال النطق، بينما لا يكفي ابتعاد أو تجافي اللسان عن الحنك في حال نطق الأصوات المستفلة، وإنما تتطلب جهدا عضليا زائدا، يدفع اللسان إلى الانخفاض أو الانحدار إلى قاع الفم، ولهذه السمة الفسيولوجية سميت تارة بالحروف المنخفضة، وأخرى بالحروف المتسفلة. ومهما تعددت تسميات

(١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٢٤٩.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٣.

هذه الحروف، فإن وضعية اللسان عند النطق بها تبقى حقيقة ثابتة عند القدامى والمحدثين بإجماع كل التحليلات[١] .

٥- الذلاقة والإصمات

لم يقدم الشيخ – رحمه الله– لهاتين الصفتين تحديدا اصطلاحيا كما فعل من قبل، وإنما اقتصر على التعريف اللغوي، وعدد حروفها، وتعليل التسمية، فقال: " الذلاقة لغة: حدة اللسان وبلاغته وطلاقته. وحروف الذلاقة – ويقال لها الحروف الذُّلْق بضم الذال وسكون اللام– ستة، جمعها ابن الجزري في ثلاث كلمات، وهي (فِرَّ من لُبّ) ... وسميت هذه الحروف الستة مذلقة – بالذال المعجمة– لسرعة النطق بها؛ لخروج بعضها من ذَلَق اللسان؛ أي طرفه، وهو الراء واللام والنون، وبعضها من ذلق الشفة، وهي الباء الموحدة والفاء والميم، وهي أخف الحروف وأسهلها وأكثرها امتزاجا بغيرها"[٢] .

وهذا النص يوضح لنا التفسير الفسيولوجي الدقيق؛ الذي قدمه الشيخ – رحمه الله– للحروف المذلقة " إنه سهولة النطق البارزة الناتجة عن التحركات العضلية لمستدق طرف اللسان في نطق (الراء واللام والنون)،

(١) وبناء على هذا الفهم: فإن قول د. عبد القادر مرعي: " الانفتاح يعني: عدم تفخيم الصوت، ويكون اللسان أثناء نطق هذه الأصوات نازلا في قاع الفم" المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة الحديث ص١١٩، منشورات جامعة مؤتة، عمان، الطبعة الأولى١٩٩٣م. هذا القول غير مسلم، إلا إذا كانت هذه الأصوات من المنفتحة المستفلة. أو أن الباحث لا يفرق بين الاستعلاء والإطباق والتفخيم من ناحية، وهو – كذلك لا يفرق بين أضدادها من ناحية أخرى، وهو اتجاه ساد بين العلماء قديما وحديثا. ينظر في تفصيل القضية: دروس في علم أصوات العربية ص٣٧، الصوتيات العربية ص٩٢.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٣.

ولطرف الشفتين في نطق الفاء والباء والميم؛ لما لهما من المهارة والمرونة في التحركات التقطيعية المتنوعة"[١] .

وكان الشيخ – رحمه الله– قد تردد في جعل الواو من الحروف المذلقة، حين قال: " ومقتضى تعليلهم أن تكون الواو من الحروف المذلقة، ولم أر من ذكره، فتأمل"[٢] . ولعل هذا التردد ناتج من أنه جعل مخرج الواو من الشفتين، وقد أثبتنا – بما لا يدع مجالا للشك– أن صوت الواو بطبيعته المزدوجة لا يخرج من الشفتين[٣] .

ثم تحدث عن الإصمات، فاقتصر – كذلك– على التعريف اللغوي، وعدد حروفه، وتعليل التسمية، قال: " الإصمات لغة: المنع ... وحروفه: ما عدا الحروف المذلقة الستة، وهي ثلاثة وعشرون حرفا، يجمعها قولك: (جُزْ غشَّ ساخطٍ صدْ ثقةً إذ وعظُه يحضُّك) ... وإنما سميت مصمتة؛ لأنها حروف أصمتت؛ أي منعت أن تختص ببناء كلمة في لغة العرب – إذا كثرت حروفها– لاعتياصها وصعوبتها على اللسان، فهي حروف لا تتفرد بنفسها في كلمة كثيرة الحروف؛ أعني أكثر من ثلاثة أحرف حتى يكون معها غيرها من الحروف المذلقة"[٤] .

ويظهر من هذا النص: أن الشيخ – رحمه الله– لم يعلل لهذه المجموعة تعليلا صوتيا، وإنما كان تعليله تعليلا صرفيا محضا، وقد أكد على هذا المعنى مرة أخرى بقوله: " والمراد بها هنا: أنها ممنوعة من انفرادها أصولا

(١) عن علم التجويد القرآني ص٩٣.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٤.

(٣) ينظر: مبحث مخارج الحروف من هذا البحث.

(٤) نهاية القول المفيد ص٧٤.

في بنات الأربعة والخمسة، بمعنى أن كل كلمة على أربعة أحرف أو خمسة أصولا، لا بد فيها أن يكون فيها مع الحروف المصمتة حرف من الحروف المذلقة، لتعادل خفة المذلق ثقل المصمت، ولذلك قالوا: إن عسجدا اسم للذهب أعجمي لكونه من بنات الأربع، وليس فيه حرف من المذلقة"[١] .

ويمكن أن نلمح تعليلا صوتيا لتلك الصفة من خلال قوله تارة: " لاعتياصها وصعوبتها على اللسان"، وقوله تارة أخرى: " لتعادل خفة المذلق ثقل المصمت". وبيان ذلك: أن الخفة والثقل صوتيان، وأن الخفة في الحروف المذلقة؛ لكون الأعضاء المسئولة عن إنتاجها – الشفتين وطرف اللسان– من أكثر الأعضاء مرونة وقدرة، ولها فائقة على التحركات التقطيعية كما ذكرنا من قبل[٢]، مما يجعل عملية إنتاجها للأصوات الناشئة عنها يسيرة على آلة النطق. أضف إلى ذلك: أنهما أقرب الأصوات خروجا من الفم، الأمر الذي يصبغهما بالسهولة والخفة، وليست كذلك الأصوات المصمتة.

بقي القول: إن الشيخ – رحمه الله– نقل عن صاحب الرعاية: " إن الألف ليست من المذلقة ولا من المصمتة؛ لأنها هوائية لا مستقر لها في المخرج"[٣]. وأرى أن الألف مع أخواتها قسم مستقل قائم بذاته؛ مقابل الصوامت الأخرى، ولها خصائصها الفسيولوجية والفيزيائية والسمعية التي تميزها عن غيرها.

(١) نهاية القول المفيد ص٧٤.

(٢) ينظر: مبحث الجهاز النطقي من هذا البحث.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٤.

المطلب الثاني: الصفات غير المتضادة

وقد أشار الشيخ – رحمه الله– إلى هذا النوع بقوله: " وقسم لا ضد له وهو سبع ... وأما التي ليس لها أضداد: فالصفير، والقلقلة، واللين، والانحراف، والتكرير، والتفشي، والاستطالة"(١). وإذا أضفنا إليها الخفاء والغنة – وهي من الصفات اللازمة في نظر الشيخ كما ذكرنا من قبل– صارت تسعا. وهي ما تسمى بالصفات المُحسِّنة التي تحسن لفظ الأصوات المختلفة المخارج، وتعرف في علم الأصوات الحديث باسم " نظرية الصفات الثانوية Marginal Features".

١– الصفير

وقد عرفه بأنه: " صوت زائد يخرج من بين الشفتين يصحب حروفه الثلاثة عند خروجه. وهي: الصاد المهملة، والزاي، والسين المهملة"(٢).

وقد ربط الشيخ – رحمه الله– بين تسمية هذه الأصوات الثلاثة بحروف الصفير وبين ظاهرة الصفير في أصوات الطبيعة ربطا فيزيائيا، فقال: " وإنما سميت بحروف الصفير؛ لأنك إذا قلت: (أص– أز– أس) سمعت لهن صوتا يشبه صفير الطائر؛ لأنها تخرج من بين الثنايا وطرف اللسان، فينحصر الصوت هناك إذا سكنت، ويأتي كالصفير؛ فالصاد تشبه صوت الأوز، والزاي صوتَ النحل، والسين صوت الجراد"(٣).

(١) نهاية القول المفيد ص٦٤.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٤.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٤،٧٥.

كما يتضح من النص – أيضا– أنه ربط بين الوضع الفسيولوجي حال تكون الأصوات الثلاثة في مخارجها وبين حقيقة الصفير، وذلك عندما علل حدوث الصوت الذي يشبه صفير الطائر تعليلا فسيولوجيا: " لأنها تخرج من بين الثنايا وطرف اللسان، فينحصر الصوت هناك إذا سكنت، ويأتي كالصفير"، وهذا يتفق مع ما توصلت إليه علم الأصوات الفسيولوجي " حيث تحدث صفة الصفير فسيولوجيا، بأن طرف اللسان يرتفع إلى أعلى، محدثا تضييقا شديدا، أو قناة ضيقة عريضة يمر منها الهواء بقوة، فيصطدم بالأسطح الداخلية للأسنان العليا، فيمر من بين خلل الأسنان، فنسمع من ذلك صوت الصفير"(١).

ونتيجة لهذه الملاحظة التي ذكرها الشيخ – رحمه الله– رأينا المحدثين قد وصفوها بذات الوصف: " ويوصف الصوتان س– ز غالبا بأنهما صفيران (Sibilants) لما يصحبهما من صفير أو أزيز، وهما في الحقيقة صوتان من النوع الاحتكاكي"(٢). وقال آخر: " وسميت صفيرية لقوة الاحتكاك معها. والسبب في قوة الاحتكاك هو أن نفس المقدار من الهواء مع الثاء يجب أن يمر مع السين خلال منفذ ضيق"(٣).

وقد ثمن بعض المحدثين جهد الشيخ – رحمه الله– في تلك القضية؛ قائلا: " وهذا الربط بين الواقع الإدراكي والواقع الفسيولوجي، يُعدُّ كشفا صوتيا، يضع عليه علماؤنا أيديهم لأول مرة، وبصورة تتفق تماما مع تلك النظرية

(١) عن علم التجويد القرآني ص٩٦، وقارن بـ أسس علم اللغة ص٨٥، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص١٣٧.

(٢) أسس علم اللغة ص٨٥.

(٣) دراسة الصوت اللغوي ص١١٨.

الصوتية، النى كشف عنها علماء الصوتيات المحدثون، وهي: ارتباط الملامح السمعية أو الإدراكية بالملامح الفيزيائية؛ التي ترتبط بدورها بالملامح الفسيولوجية"(١).

ومن الملاحظات الصوتية الدقيقة التي تحسب للشيخ – رحمه الله– إدراكه أن هذه الصفة ليست على درجة واحدة في الأصوات الثلاثة – وهو ما اصطلح المحدثون على تسميته بعلم الأصوات السمعي أو الإدراكي– وإنما تتفاوت تبعا لما في تلك الأصوات من صفات القوة: " ... وأقواها في ذلك الصاد للاستعلاء والإطباق اللذين فيهما، ، ثم الزاي للجهر؛ لأنه من صفات القوة، وأما السين فهي أضعفها لكونها مهموسة"(٢).

وقد وظف الشيخ – رحمه الله– تلك الملاحظة الصوتية أدائيا، حيث كانت وصيته لمرتلي القرآن أن يحرصوا على بيان الصفير حين يكون ضعيفا في السين، ثم في الزاي: " وعلى هذا ينبغي لك أن تحرص على بيان صفيرها (السين) أكثر من صفير الزاي؛ لأنه بيِّن الجهر، وصفير الزاي من صفير الصاد؛ لأنه بيِّن الإطباق"(٣). وهذا يعني أن الأصوات الضعيفة تحتاج إلى جهد زائد عن غيرها في إنتاجها، حتى توفى رتبتهاا، وقد قدم قاعدة عامة تشكل أصلا في هذا الباب: " كما ينبغي لك أن تحرص على بيان كل حرف مهموس غير ما فيه الاستعلاء"(٤).

(١) عن علم التجويد القرآني ص٩٧.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٥.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٥.

(٤) نهاية القول المفيد ص٧٥.

القلقلة

وقد عرفها في اللغة بأنها: " شدة الصياح. وتجئ بمعنى التحريك. واصطلاحا: صوت زائد حدث في المخرج بعد ضغط المخرج وحصول الحرف فيه بذلك الضغط، وذلك الصوت الزائد يحدث بفتح المخرج بتصويت، فحصل تحريك مخرج الحرف وتحريك صوته؛ أما المخرج فقد تحرك بسبب انفكاك دفعي بعد التصاق محكم. وأما الصوت فقد تبدل في السمع، وذلك ظاهر "(١).

وقد قدم الشيخ – رحمه الله– بعض الملاحظات الصوتية القيمة حول ظاهرة القلقلة؛ يمكن أن نستنبط بعضا منها من هذا النص، والتي تلتقي – في مجملها– مع ما توصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة:

أولا: الواقع الفسيولوجي المصاحب لصفة القلقلة، وقد أوجز الشيخ – رحمه الله– تلك العملية النطقية المعقدة بقوله: " فحصل تحريك مخرج الحرف وتحريك صوته؛ أما المخرج فقد تحرك بسبب انفكاك دفعي بعد التصاق محكم. وأما الصوت فقد تبدل في السمع".

ولم يزد المحدثون شيئا ذا بال على ما ذكره الشيخ، وها هو أحدهم يقرر في وضوح: " أن النطق الكامل للصوت الانفجاري يتطلب: ١– اتصالا بين عضوين، ينتج عنه وقف المجرى الهوائي وقفا كاملا. ٢– ثم انفصال العضوين، هذا الانفصال الذي يحدث عنه انفجار الهواء. وقد لوحظ أنه في حالة الانفجارية المهموسة، لا يسمع شيء إطلاقا في اللحظة التي يوقف فيها المجرى الهوائي. أما في حالة الانفجارية المجهورة فإنه يسمع شيء من

(١) نهاية القول المفيد ص٧٥.

الجهر. كما يلاحظ أن اندفاع الهواء يستمر بالضرورة زمنا محسوسا بعد انفراج العضوين، ولذلك فالصوت الانفجاري لا يتأتى نطقه النطق الكامل دون أن يتبع بصوت آخر مستقل عنه، هو هذا الهواء المندفع. وهذا الصوت المستقل الذي يلي الانفجار ضرورة، إن نطق النطق الكامل، إما أنه مهموس، وإما أنه مجهور. فإذا نطقنا انفجاريا مهموسا، مثل الكاف وحده، فإنه يتبعه عادة صوت مهموس قصير. وإذا نطقنا انفجاريا مجهورا (أصوات القلقلة)؛ كالباء وحده، فإنه يتبعه عادة صوت صائت قصير"(١).

ثانيا: أما الواقع الفوناتيكي لحزمة أصوات تلك الظاهرة، فقد اشترط الشيخ – رحمه الله– لحصول القلقلة في الصوت اجتماع الشدة والجهر: " ... ولذا خصوا القلقلة بحروف اجتمعت فيها الشدة والجهر؛ فالشدة تحصر صوت الحرف لشدة ضغطه في المخرج، والجهر يمنع جري النفس عند انفتاح المخرج، فيلتصق المخرج التصاقا محكما، فيقوى الصوت الحادث عند انفتاح المخرج دفعة"(٢).

ثم يزيد الأمر بيانا ووضوحا في موضع آخر؛ مبينا ما ينبغي على القارئ فعله؛ حتى يتمكن من إخراجها على النحو الصحيح: " ...وإنما حصل لها (حروف القلقلة) ذلك؛ لاتفاق كونها شديدة مجهورة؛ فالجهر يمنع النفس أن يجري معها، والشدة تمنع أن يجري صوتها. فلما اجتمع لها هذان الوصفان احتاجت إلى التكلف في بيانها، فلذلك يحصل ما يحصل من الضغط للمتكلم عند النطق بها ساكنة حتى تكاد تخرج إلى شبه تحريكها لقصد

(١) علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي ص١٥٧،١٥٨.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٥.

بيانها؛ إذ لولا ذلك لما تُبُيِّنتْ؛ لأنه إذا امتنع النفس والصوت تعذر بيانها ما لم يُتكلف بإظهار أمرها على الوجه المذكور"[١].

ثالثا: أما الواقع الإدراكي المصاحب لصفة القلقلة، فقد وصف الشيخ – رحمه الله– صوت القلقلة الذي يسمع عند الوقف على حروفها بأنه صوت زائد، وقد أشار عدة مرات أن ذلك الصوت الذي يخرج بهذه الكيفية ليس من نوع الصوامت، وإنما هو من نوع الحركات قال: " وإنما سميت بذلك؛ لأن صوتها لا يكاد يُتبين به سكونها ما لم تخرج إلى شبه المتحرك"[٢]. وقال في موضع آخر: " وتجب المبالغة في القلقلة حتى يسمع غيرك نبرة قوية عالية بحيث تشبه الحركة، أي حركة ما قبله، وتتبع الحرف بعد سكونه"[٣].

وما ذكره الشيخ أكدته الدراسات الصوتية التحليلية الحديثة: " فقد كشفت معطيات الدراسة التحليلية – على نماذج لمجيدي القرآات القرآنية في مصر– أن صوت القلقلة يتكون فيزيائيا من: ١– مجموعات من الحزم الذبذبية: تمثل المكونات الذبذبية لأصوات الحركات، لا يقل عددها عن ثلاثة. ٢– ذبذبات كثيرة العدد، وعالية القيمة، تستغرق جميع زمن الصوت، وتوجد على المستوى الذبذبي من:٨٥ ذ/ث إلى: ٦٠٠٠ ذ/ث. وهاتان الخاصيتان هما اللتان تشخصان صوت الحركة عن الصامت الذي لا يشتمل على مكونات ذبذبية على شكل حزم"[٤].

(١) نهاية القول المفيد ص٧٦.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٥.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٦.

(٤) عن علم التجويد القرآني ص٩٩.

وكما أدرك الشيخ – رحمه الله– أن صوت القلقلة يشبه الحركة، أدرك – كذلك– أن ذلك الصوت الزائد لا بد ان يكون مجهورا: " ويشترط عند الجمهور في إطلاق اسم القلقلة على ذلك الصوت الزائد كونه قويا جهريا، بسبب أنه حاصل بفك المخرج دفعة؛ بعد لصقه لصقا محكما"(١).

ومن ثم؛ لم يعد الشيخ الكاف والتاء من حروف القلقلة – مع أن فيهما صوتا زائدا حدث عند انفتاح مخرجيهما– وقد علل ذلك: بأن هذا الصوت مهموس ضعيف، يجري فيه النَّفَس، بسب ضعف الاعتماد على المخرج، وهو يخالف طبيعة القلقلة التي تقتضي ضغط الصوت في مخرجه، ولا يتم ذلك إلا بقوة الاعتماد، ولذلك كانا الصوتان شديدين مهموسين(٢).

رابعا: تبنى الشيخ – رحمه الله– موقفا وسطا في عدد حروف القلقلة، وأنها خمسة حروف يجمعها قولك (قطب جد)(٣) . وهذا الموقف اعتمادا على المعيار الذي وضعه – اجتماع الشدة والجهر، فهما الخاصيتان الموجبتان لظاهرة القلقلة–.

وإذا قلبنا النظر في أصوات العربية، وجدنا أن الهمزة ينطبق عليها هذا المعيار، وقد فطن الشيخ – رحمه الله– إلى ذلك؛ لكنه أخرج الهمزة من حروف القلقلة، وقدم لذلك تفسيرين: أولهما: " أن الهمزة كالتهوع؛ أي التقيؤ وكالسعلة، فجرت عادة العلماء بإخراجها بلطافة ورفق وعدم تكلف تكلف في ضغط مخرجها؛ لئلا يظهر صوت يشبه التهوع والسعلة"(٤).

---

(١) نهاية القول المفيد ص٧٥.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٧ بتصرف.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٥.

(٤) نهاية القول المفيد ص٧٧.

أما التعليل الثاني: " إنما أخرجها الجمهور من حروف القلقلة لما يدخلها من التخفيف حالة السكون، ففارقت أخواتها، ولما يعتريها من الإعلال"(١).

ويبدو – من وجهة نظري– أن التعليل الأول أوجه صوتيا؛ لأن الهمزة وهي أبعد الحروف مخرجا، تمثل حبسة أو وقفة حنجرية (Glottal Stop)، ومن ثم؛ فإن الضغط عليها في مخرجها – وهو ما تقتضيه طبيعة القلقلة– يخرج بها عن حدها إلى شيء آخر.

خامسا: أما الواقع السمعي المصاحب لصفة القلقلة، فقد فطن الشيخ – رحمه الله– أن القلقلة ليست درجة واحدة، وإنما هي درجات، باعتبارات مختلفة، فباعتبار الحروف: " تنقسم القلقلة إلى ثلاثة أقسام: أعلى، وهو في الطاء، وأوسط، وهو في الجيم، وأدنى، وهو في الثلاثة الباقية"(٢) . وقال في موضع آخر: " وهذه القلقلة بعضها أشد من بعض، وأقواها القاف بالاتفاق؛ لشدة ضغطه واستعلائه"(٣) .

كما قسمها ثلاثة أقسام – أيضا– باعتبار الوقف وعدمه والتحرك والسكون: " والحاصل أن القلقلة صفة لازمة لهذه الأحرف الخمسة، لكنها في الموقوف عليه أقوى منها في الساكن الذي لم يوقف عليه، وفي المتحرك قلقلة أيضا لكنها أقل فيه من الساكن الذي لم يوقف عليه ... فبذلك تبين أن مراتبها ثلاثة"(٤).

(١) نهاية القول المفيد ص٧٧.
(٢) نهاية القول المفيد ص٧٦.
(٣) نهاية القول المفيد ص٧٧.
(٤) نهاية القول المفيد ص٧٧.

وهذه النظرة تتسق مع ما توصل إليه المحدثون: " وإذا كانت هذه الحروف آخرة في الكلمة ووقف عليها، كانت القلقلة شديدة جدا، وسميت قلقلة كبرى. وإذا كانت وسطا سميت القلقلة بخلاف ذلك؛ أي: قلقلة صغرى"(١).

سادسا: أما الواقع الأدائي المصاحب لصفة القلقلة، فلم يغفل عنه الشيخ – رحمه الله– فقد اشترط لكي تتحقق القلقلة – على الوجه الصحيح– علو الصوت بها لدرجة إسماع الآخرين، وحذر – في الوقت ذاته– من المبالغة في العلو، حتى لا يتحول ذلك إلى تشديدٍ؛ يخرج الظاهرة عن مضمونها: " فلا تتأتي القلقلة إلا بالجهر البالغ، فمن اكتفى بإسماع نفسه لم يتَّبع تعريف الجهر نفسه(٢)، لأن أدنى الجهر إسماع غيره لا إسماع نفسه؛ فمن أسمع القلقلة نفسه فقط، لا يقال إنه أتى بالقلقلة، وإنما يقال إنه ترك القلقلة، فهو لحن. ولا يحصل التشديد بالمبالغة فيها؛ لأن التشديد يورث إلباث الحرف مقدار الحرفين، والقلقلة هي التحريك لا الإلباث"(٣).

وأمر آخر يتعلق بالناحية الأدائية لتلك الظاهرة، هو أن الشيخ نبه على وجوب المبالغة في إظهار القلقلة حال الوقف؛ مستشهدا بقول ابن الجزري:

وبَيِّنن مُقَلْقَلا إن سكنا وإن يَكُن في الوقفِ كان أبينا(٤)

(١) دروس في علم أصوات العربية ص٣٨.

(٢) كان الشيخ – رحمه الله– قد عرف الجهر لغة: بأنه الإعلان والإظهار، وفي القول: إعلاء الصوت به. نهاية القول المفيد ص٦٤.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٦.

(٤) نهاية القول المفيد ص٧٦.

وأمر ثالث يتعلق بالناحية الأدائية لتلك الظاهرة، هو أن الشيخ قد حذر من قلقلة الفاء واللام في نحو: (أفواجا) و (جعلنا)؛ حيث ذكر أن تلك الظاهرة لازمة لحروف (قطب جد)، وأن إحداثها في غير هذا لحن(١).

ويظهر – مما سبق– أن المعنيين اللغويين اللذين قدمهما الشيخ لتلك الظاهرة – شدة الصياح أو التحريك– يرتبطان ارتباطا وثيقا بالواقع الفسيولوجي والإدراكي لتلك الظاهرة.

وفي ضوء الحقائق المبينة في أعلاه، يمكننا أن نقول: إن الشيخ – رحمه الله– قد وقف على بحث هذه الظاهرة وقفة الباحث المتسم بدقة الملاحظة وعمق الفهم، واستطاع أن يضع أيدينا على كثير من التفسيرات والتحليلات التي لم يهتد إليها الدرس الصوتي الحديث إلا بأخرة؛ بعد أن توفرت له من وسائل التمكين الصوتي ما لم يتح للشيخ.

ولسنا مبالغين إن قلنا: إن الشيخ – رحمه الله– قد قدم في دراسة تلك الظاهرة ما لم يلتفت إليه الصوتيون المحدثون، ولا سيما فيما يتعلق بالجانب الأدائي لتلك الظاهرة، وذلك لأن دراسته لقضايا الصوت كانت – في المقام الأول– لتجويد التلاوة وتحسين القراءة، الأمر الذي يحتم على المشتغلين بالأصوات من المحدثين إدامة النظر في كتب التجويد؛ حتى لا يحرم الدرس الصوتي العربي من مصدر غني وأصيل.

اللين

وقد قدم لها الشيخ – رحمه الله– تعريفا شافيا، فقال: " اللين: هو إخراج الحرف بعدم كلفة على اللسان، وهو صفة لازمة للواو والياء التحتية

(١) نهاية القول المفيد ص٧٧.

الساكنتين المفتوح ما قبلهما، نحو: خوف، وبيت، فهما حرفا لين بلا مد، فلا مد عليها وصلا، ويجوز مدهما وقفا"[١].

ويمكننا أن نستنبط من هذا النص بعض الحقائق المهمة عن تلك الظاهرة:

أولا: تختص تلك الخاصية الصوتية بصوتي الواو والياء؛ بشرط أن يكونا ساكنتين وقبلهما فتحة (وهما في تلك الحالة يعدان من الأصوات الصامتة، حيث تحيز مخرجهما).

ثانيا: علل الشيخ – رحمه الله– تلك الخاصية تعليلا فسيولوجيا، حيث رد السهولة واللين التي يتسم بهما صوتا الواو والياء إلى: عدم تكلف اللسان حال النطق بهما ما يتكلفه في نطق الصوامت الأخرى؛ سواء أكان ذلك بالتضييق أم بالغلق، وهو أمر أكدته الدراسات الصوتية الحديثة: " ففي تكون الياء، نلحظ أن اللسان يكون تقريبا في موضع النطق بصوت اللين (I)، غير أن الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى حين النطق بالياء يكون أضيق منه في حالة النطق بصوت اللين (I) ... لهذا اصطلح المحدثون على تسمية الياء بشبه صوت اللين. وكذلك الواو لا فرق بينها وبين الضمة (U) إلا في أن الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك في حالة النطق بالواو أضيق منه في حالة النطق بالضمة (U) ... فيمكن أن نعدها شبه صوت اللين (U). فالياء والواو هما المرحلة التي عندها يمكن أن ينتقل الصوت الساكن إلى صوت لين"[٢] .

(١) نهاية القول المفيد ص٧٨.

(٢) الأصوات اللغوية ص٤٥.

وبعبارة أخرى: " إن هذه الأصوات (الواو والياء في نحو: خَوْف وبَيْت) من حيث النطق الصرف تقترب من الحركات في صفاتها، ولكنها في التركيب الصوتي للغة تسلك مسلك الأصوات الصامتة، ومن هنا كان تسميتها بأنصاف الحركات"[١] .

ثالثا: أشرك الشيخ- رحمه الله- حروف المد الثلاثة (الألف والواو والياء المسبوقتين بحركة مجانسة) للواو والياء الصامتتين في خاصية اللين، قال: " ويكون وصف اللين فيهما (الواو والياء) أيضا عند مجانسة ما قبلهما لهما، كـ (هود) و " شيث"، وفي الألف كـ (موسى)"[٢] . فتحصل من هذا: أن أصوات العربية التي تتسم بتلك الخاصية تبلغ عدتها خمسة، تنقسمان إلى مجموعتين: أ- أصوات اللين، وهما حرفان. ب- أصوات المد واللين، وهم ثلاثة أحرف، ولعل من نافلة القول أن نقول: إن اللين في حروف المد واللين أتم منه في حروف اللين؛ حيث لا عائق إطلاقا، لا غلقا ولا تضييقا، بخلاف حروف اللين فإن فيها تضييقا طفيفا يسمع معه نوع ضعيف من الحفيف.

رابعا: فطن الشيخ – رحمه الله- إلى الربط بين تلك الخاصية وما ينشأ عنها من ملامح أدائية، فقال: " وتظهر فائدة ذلك عند لقائها (أصوات اللين كلها) الساكن بعدها؛ بسبب الوقف أو الإدغام، فتجري الأوجه الثلاثة: المد، والتوسط، والقصر"[٣]. وهو يقصد ما أسماه علماء الأداء القرآني بمد اللين،

(١) علم الأصوات ص١٦٧.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٨.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٨.

وجوزوا فيه ثلاث مراتب؛ وفقا لمذاهب القراء في الأداء، من: تحقيق، وترتيل، وتدوير، وحدر.

الانحراف

وقد عرفه لغة: " بالميل والعدول. واصطلاحا: ميل الحرف بعد خروجه إلى طرف اللسان"(١).

وقد جعله صفة لحرفين، هما: اللام والراء، وقد علل سبب التسمية بانحراف المخرج تارة، فقال: " لأنهما انحرفا عن مخرجهما حتى اتصلا بمخرج غيرهما؛ فاللام فيها انحراف؛ أي ميل إلى ناحية طرف اللسان، والراء – أيضا– فيها انحراف إلى ظهر اللسان، وميل قليل إلى جهة اللام"(٢).

وعللها تارة أخرى بانحراف الصفة، فقال: " وانحرفا عن صفتهما – أيضا– إلى صفة غيرهما؛ أما اللام فهو من الحروف الرخوة؛ لكن اللسان انحرف به مع الصوت إلى الشدة، فلم يعترض في منع خروج الصوت الاعتراض الشديد، ولا يخرج معه الصوت كخروجه مع الرخوة، فسمي منحرفا لانحرافه عن حكم الشديدة وعن حكم الرخوة، فهو بين الصفتين"(٣).

وهذه النصوص تثير في الذهن جملة من التساؤلات حول هذه الخاصية الصوتية، هل هي في اللام والراء معا – كما ذكر الشيخ– أو هل هي في

(١) نهاية القول المفيد ص٧٨.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٨.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٨.

اللام فقط كما ذكر سيبويه[١] الذي يعد أقدم من قدم تصورا لتلك الخاصية؟

وإذا أردنا أن نجيب عن هذا التساؤل، فإننا نقرر أن علماء العربية الأوائل[٢] لم يخصصوا تلك السمة الصوتية (الانحراف) إلا لصوت واحد (هو اللام) دون غيره من أصوات العربية. أما المحدثون فقد بقي هذا المصطلح الصوتي – الانحراف– مخصوصا عندهم بصوت واحد فقط، هو اللام، وأطلقوا عليه مصطلحا آخر هو الجانبي(Lateral)[٣].

أما التساؤل الثاني: هل الانحراف يكون في المخرج أم في الصفة أم فيهما معا – كما ذكر الشيخ؟ والإجابة على هذا التساؤل تزيدنا يقينا بصدق تصورنا عن أصوات تلك الخاصية، وبيان ذلك: أن المحدثين من علماء الأصوات ذكروا أن الانحراف لا يكون في المخرج، ولا في الصفة، وإنما هو وضع فسيولوجي خاص، يفسره أحدهم على هذا النحو: " تتكون الصوامت المنحرفة؛ بوضع عقبة في وسط المجرى الهوائي مع ترك منفذ للهواء عن طريق أحد جانبي العقبة، أو عن جانبيها، ومن هنا كانت تسميتها بالمنحرفة (أو الجانبية)، ومن أمثلتها: صوت اللام في العربية"[٤].

(١) الكتاب٤/٤٣٥.

(٢) الكتاب٤/٤٣٥، سر صناعة الإعراب١/٦٣.

(٣) الأصوات اللغوية ص٥٦، مناهج البحث في اللغة ص١٠٥، دروس في علم أصوات العربية ص٣٨،٧٨، أسس علم اللغة ص٨٦، علم الأصوات ص٩٤، المصطلح الصوتي ص١٧٩.

(٤) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص١٦٩.

ويعقب بعض المحدثين على هذا النص قائلا: " وهذا الوصف لا ينطبق على الراء، ولذلك لم يصف المحدثون الراء بالانحراف"(١). وقد فسر بعض المحدثين مصطلح الجانبية؛ بما يوضح كيفية أو طبيعة مرور الهواء حال النطق: " ومعنى الجانبية في نطق هذا الصوت: أن أحد جانبي اللسان أو كليهما، يدع الفرصة للهواء الرئوي؛ ليمر بينه وبين الأضراس، في الوقت الذي يمتنع فيه مروره على وسط اللسان؛ لحيلولة طرف اللسان المتصل باللثة دون ذلك"(٢).

وعلى هذا: " فوصف الراء بالانحراف غير سديد؛ وذلك لأن الانحراف وصف لطبيعة مرور الهواء في مخرج اللام، وهو لا ينطبق على الراء الذي يوصف بأنه مكرر؛ لأن مرور الهواء في مخرجه له صفة خاصة"(٣).

ومن ثم: فإن تعليل الشيخ – رحمه الله– لتلك الخاصية بالميل في المخرج يخالف الواقع الفسيولوجي، كما أن تعليله بالميل في الصفة غير مسلم أيضا، إذ لو سلمنا به فإنه يمكن أن ينسحب على بقية الحروف المتوسطة بين الشدة والرخاوة، مثل: الميم والنون، وهو ما لم يقل به أحد؛ لا قديما ولا حديثا. كما أن إدخاله الراء ضمن أصوات تللك الخاصية، أمر لا يثبت عند النقد والتحليل؛ إذ هو مخالف للواقع الفسيولوجي لصوت الراء.

التكرير

وقد عرفه لغة بقوله: " إعادة الشيء مرة أو أكثر. واصطلاحا: ارتعاد رأس اللسان عند النطق بالحرف، وهو صفة لازمة للراء"(٤). والظاهر أن الشيخ –

(١) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٢٧٦.

(٢) مناهج البحث في اللغة ص١٠٥، وقارن بـ الأصوات اللغوية ص٥٦.

(٣) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٢٧٥.

(٤) نهاية القول المفيد ص٧٩.

رحمه الله– في تحديده لتلك الخاصية؛ يركز على الوضع الفسيولوجي الذي لم يبتعد عما قاله المحدثون.

فقد وصف بعضهم صوت الراء في العربية بأنه مكرر (Rolled): " لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلي الثنايا العليا يتكرر في أثناء النطق بها، كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقا لينا يسيرا مرتين أو ثلاثا؛ لتتكون الراء العربية"(١). ووصفه آخر بأنه صوت تكراري، ووضح الحركات التقطيعية المولِّدة له على هذا النحو: " ينطق به بترك اللسان مسترخيا في طريق الهواء الخارج من الرئتين، فيرفرف اللسان، ويضرب طرفه في اللسان ضربات وهذا معنى التكرار في صفته"(٢).

وأطلق عليه المستشرقون مصطلح الصامت الترددي أو الراء المكرورة: " حيث يقوم طرف اللسان بمجموعة من الإغلاقات شديدة القصر، يفصل بينها عناصر حركية صغيرة ... ويكون طرف اللسان متقدما على تيار الهواء، وللسان مرونة يستطيع بفضلها أن يعود إلى وضعه الأول، وتتكرر الحركة ذاتها أربع أو خمس مرات متوالية؛ لإنتاج راء قوية"(٣).

وعلى هذا: فإن توصيف الشيخ – رحمه الله– لطبيعة العضو الناطق – وهو طرف اللسان– أثناء آداء تلك الخاصية؛ يقترب – إلى حد ما– مما توصل

(١) الأصوات اللغوية ص٥٧،٥٨، وقارن بـ علم اللغة ص١٧١.

(٢) مناهج البحث في اللغة ص١٠٤، وقارن بـ دراسة الصوت اللغوي ص٣١٧،٣٩٦.

(٣) علم الأصوات ص٩٦، وعبر كانتينو عن هذا الوضع الفسيولوجي تارة بقوله: " إن النطق بالراء، يتمثل في عدة نزات وارتعشات في طرف اللسان". دروس في علم أصوات العربية ص٣٨، وتارة أخرى بقوله: " راء مكررة: تنطق بقرع اللسان قرعات مكررة فويق مغارز الثنايا بقليل". السابق ص٧٤، وقارن بـ أسس علم اللغة ص٨٦.

إليه المحدثون شرقا وغربا. وكل الذي أضافه المحدثون؛ إنما هو مزيد بيان وإيضاح لطبيعة تلك العملية العضلية، والتي لا تؤثر – بأي حال- في صلب القضية، ولا تغض من قيمة ما قدمه الشيخ.

ومن الملامح الأدائية الخاصة بظاهرة التكرير للراء – والتي ناقشها الشيخ رحمه الله- ظاهرة إخفاء التكرير أو إظهاره. قال: " ومعنى وصفه (صوت الراء) بالتكرير: كونه قابلا له، فيجب التحرز عنه؛ لأن الغرض من هذه الصفة تركها"(١). وفي سبيل إعدام التكرير والتخلص منه كلية، وهو الوجه الأمثل – من وجهة نظر الشيخ- قال: " وطريق السلامة منه (التكرير) أن يُلصِق اللافظ به ظهر لسانه بأعلى حنكه لصقا محكما مرة واحدة، بحيث لا يرتعد؛ لأنه متى ارتعد حدث من كل مرة راء، فهذه الصفة يجب أن تعرف لتجتنب لا ليؤتى بها"(٢).

والحق – الذي لا مراء فيه- أن ما ذكره الشيخ – رحمه الله- يخالف طبيعة صوت الراء فسيولوجيا، لأن إعدام صفة التكرار بالكلية، يفضي إلى أن تكون الراء حرفا شديدا منحصرا، وهي من الحروف المتوسطة (البينية)؛ بإجماع القدماء والمحدثين. كما أن خاصية التكرير ذاتية لصوت الراء لا تنفك عنه بحال من الأحوال، وهي على حد تعبير الشيخ – رحمه الله- " صفة لازمة للراء"، والصفات اللازمة وجودية لا عدمية، فهي تذكر ليعمل بها لا لتترك وتجتنب، فكيف يمكن التخلي عنها والتخلص منها بالكلية؟!(٣).

---

(١) نهاية القول المفيد ص٧٩.

(٢) نهاية القول المفيد ص٧٩.

(٣) وقد عبر بعض المحدثين عن تلك الفكرة، فقال: " وشرط التكرار أن يتذبذب العضو أكثر من مرة. ويختلف عدد الذبذبات من لغة إلى لغة، ولكنه عادة يتراوح بين ذبذبتين وأربع، وقد ==

ومن ثم؛ فإن تجاهل تلك الحقيقة لصوت الراء – مخرجا وصفة– يفضي بصاحبه إلى عيب من العيوب القرآئية، وهو ما يسمى بـ (حصرمة الراء). وقد فطن إلى ذلك أحد أكابر هذا الفن: " فليس التجويد بتمضيغ اللسان، ولا بتقعير الفم ... ولا بحصرمة الراءات"(١).

وذهب ابن الجزري إلى أنه ليس المقصود بتكرير الراء ترعيد اللسان بها المرة بعد المرة، ولا بإخفائها عدم تكريرها، بل المقصود بذلك التوسط بين الأمرين: " وقد توهم بعض الناس أن حقيقة التكرير: ترعيد اللسان بها المرة بعد المرة، فأظهر ذلك حال تشديدها، كما ذهب إليه بعض الأندلسيين. والصواب: التحفظ من ذلك بإخفاء تكريرها، كما هو مذهب المحققين، وقد يبالغ قوم في إخفاء تكريرها مشددة، فيأتي بها محصرمة شبيهة بالطاء، وذلك خطأ لا يجوز، فيجب أن يلفظ بها مشددة تشديدا ينبو به اللسان نبوة واحدة وارتفاعا واحدا؛ من غير مبالغة في الحصر والعسر"(٢).

أو أن إخفاء التكرير – بعبارة أخرى– كما نقل الشيخ – رحمه الله– " معناه: تقوية ذلك اللصق (رأس اللسان باللثة)؛ بحيث لا يتبين التكرير والارتعاد في السمع، ولا يميز اللافظ ولا السامع بين المكررين"(٣).

أما المحدثون فلم يشيروا إلى قضية إخفاء التكرير وعدمه، وقصارى ما ذكره د. أنيس أن طرف اللسان يطرق حافة الحنك طرقا لينا يسيرا مرتين أو

==

يرتفع العدد إلى ست أو سبع مع النبر المتعمد. فإذا قصر الصوت المكرر على ذبذبة واحدة؛ فإنه لا يسمى حينئذ مكررا، ويستعمل له بدلا من ذلك مصطلح اللمسي أو الاستلالي (One tap trill (or) Flapped)". دراسة الصوت اللغوي ص١٢٢.

(١) النشر في القراءات العشر ١٦٩/١.

(٢) النشر في القراءات العشر ١٧٣/١.

(٣) نهاية القول المفيد ص٧٩.

ثلاثا؛ لتتكون الراء العربية، وقدر برتيل مالمبرج(Bertil Malmberg)[١] ذلك بأربع أو خمس ضربات متوالية. وقد أوضح أستاذنا الدكتور علام الطريقة المثلى لنطق الراء؛ بعيدا عن الانحراف واللحن: " ... لأن صوت التكرير وهو الراء؛ يقتضي نطقه السليم؛ أن ينعقف طرف اللسان، ثم يطرق مقدم الحنك، ثم يتكرر هذا التحرك التقطيعي مرتين أو ثلاثة؛ مع ملاحظة أن علماء التجويد والقراءات حذروا من تكرير الراءات"[٢].

ومن الملاحظات الدقيقة والتي تتعلق بالجانب الإدراكي (السمعي) لتلك الخاصية، أنها تتفاوت قوة وضعفا بحسب طبيعة الحرف، حيث تظهر في المشدد أكثر من غيره، ولذا فهي تتطلب مهارة وإتقانا في الأداء؛ حتى توفى رتبتها من غير إفراط ولا تفريط، فيجب على اللافظ ترك المبالغة في التشديد: " ... فواجب على القارئ أن يخفي تكريره ولا يظهره، ومتى أظهره فقد جعل من الحرف المشدد حروفا، ومن المخفف حرفين. والتكرير في الراء

(١) مستشرق سويدي، تخصص في الصوتيات والألسنية العامة، ولد في هلسنجبورج – مدينة جنوب السويد– في١٩١٣/٤/٢٢م، درس في لوند السويدية، وباريس الفرنسية، حصل على الدكتوراة من جامعة لوند١٩٤٠م، وعمل أستاذا للسانيات التطبيقية بجامعة السوربون، وأسس في ١٩٧٤م مجلة للسانيات، ومن كتبه: مدخل إلى اللسانيات، مدخل إلى علم الأصوات العام ... توفي في١٩٩٤/١٠/٨م. المستشرقون١/٢٣٥.

(٢) عن علم التجويد القرآني ص١٣٥، وقارن بـ علم الأصوات ص١١٩، قال مالمبرج: " غير أنه ينبغي عدم المبالغة في تكرير الراء، بحيث لا تزيد الضربات في الراء الساكنة عن ثلاث". وقد عده الشيخ – رحمه الله– من اللحن الخفي الذي لا يعرفه إلا العالم النحرير، ولا يسلم منه إلا القارئ المتقن الضابط، وأن معظم اللحن الخفي يأتي من الاتكاء على مخارج الحروف. نهاية القول المفيد ص٣٧.

المشددة أظهر وأحوج إلى الإخفاء منه في المخففة؛ ولذلك قال ابن الجزري في مقدمته: وأخف تكريرا إذا تشدد"(١).

وهذا الربط – في الواقع– بين الجانب النظري لصوتيات لغتنا العربية، وبين الجانب التطبيقي أو العملي؛ متمثلا في مراعاة تلك الملاحظات الصوتية أثناء الأداء القرآني، مما يضفي على ملاحظات الشيخ – رحمه الله– قيمة ونفاسة؛ تجعله يفوق غيره من الأصوتيين المحدثين.

التفشي

وقد عرفه لغة: الانتشار والانبثاث. وقيل معناه: الاتساع ... واصطلاحا: انتشار الريح في الفم عند النطق بالشين؛ حتى يتصل بمخرج الظاء المشالة. أو كثرة انتشار خروج الريح بين اللسان والحنك، وانبساطه في الخروج عند النطق بالحرف"(٢).

ويلاحظ أن هذا التعريف يركز على الجانب الفسيولوجي لتلك الظاهرة، والذي عبر عنه المحدثون، ولكن بألفاظ أخرى: " التفشي: وهو أن يشغل اللسان أثناء النطق بالصوت مساحة أكبر، ما بين الغار واللثة"(٣). وقال آخر: التفشي: هو خاصية حرف الشين؛ وذلك لأن اللسان يتفشى فعلا على الحنك؛ فيتكون في وسطه نوع من القناة، ينطلق من النفس"(٤). ولا شك أن انطلاق النفس من تلك القناة؛ مما يؤدي إلى كثرة انتشار خروج الريح.

---

(١) نهاية القول المفيد ص٧٩.

(٢) نهاية القول المفيد ص٨٠.

(٣) علم الأصوات ص١٢٠.

(٤) دروس في علم أصوات العربية ص٣٨، وقارن بـ دراسة الصوت اللغوي ص٣١٧.

وقد جعل التفشي(Husing) خاصية لصوت الشين، كما ذكر – عن بعض العلماء– أن في الفاء والضاد والصاد والسين والراء تفشيا(١). وقد جعل المحدثون التفشي خاصية لصوت الشين فحسب.

ويمكننا أن نوفق بين الاتجاهين فنقول: إن التفشي صفة ذاتية لا تنفك عنه، حيث يتميز صوت الشين – فسيولوجيا– بانتشار الهواء في الفم وزيادة في التصويت، مما امتنع معه إدغامه في الأصوات المقاربة له؛ حتى لا تذهب منه تلك الميزة. أما التفشي في بقية الأصوات المذكورة؛ فإنما هو لأسباب عارضة. وهناك تبرير آخر ذكره الشيخ – رحمه الله– نقلا عن المرعشي: " وبالجملة إن الحروف المذكورة مشتركة في كثرة انتشار خروج الريح، لكن ذلك الانتشار في الشين أكثر، ولذا اتفق على تفشيه، وفي البواقي المذكورة قليل بالنسبة إليه، ولذا لم يصفها أكثر العلماء بالتفشي"(٢).

الاستطالة

وقد عرفها بقوله: " لغة: الامتداد، وقيل: بُعد المسافتين. واصطلاحا: امتداد الصوت من أول حافة اللسان إلى آخرها. وهي صفة الضاد المعجمة"(٣).

ويلاحظ أن الشيخ – رحمه الله– يركز في تحديد تلك الخاصية على العملية العضلية، وما يحدث في المخرج أثناء نطق هذا الصوت، حيث يستطيل الصوت بسبب طول المخرج، وهو كما حدده الشيخ: " ما بين إحدى حافتي اللسان، وما يحاذيها من الأضراس العليا. وأول تلك الحافة مما يلي الحلق:

(١) نهاية القول المفيد ص٨٠.

(٢) نهاية القول المفيد ص٨٠.

(٣) نهاية القول المفيد ص٨٠.

ما يحاذي وسط اللسان بعيد مخرج الياء. وآخرها: ما يحاذي آخر الطواحن من جهة خارج الفم"[١].

وهذا النص يوضح أن الاستطالة في الضاد نشأت من طول الجزء المشترك من اللسان في نطقها، وهو من أول الحافة إلى آخرها. وهو بهذا يتفق مع الدراسات الصوتية الحديثة: " الاستطالة: وهي نتيجة طبيعية لامتداد اللسان من الأسنان إلى ما يداني الجدار الخلفي للحلق ... وهو يوجد في الضاد المصرية الحديثة"[٢]. وقد عبر عن هذا المعنى آخر: " ويمكن أن تستنتج أن المقصود بالاستطالة هو اتساع (وهو يقصد بالاتساع الطول) مخرج الحرف، أي أن ما يأخذه الحرف المستطيل من العضوين اللذين يشتركان في مخرجه؛ أكبر مما يأخذه الحرف غير المستطيل من ذينك العضوين"[٣].

وقد رجح الشيخ – رحمه الله– هذا التفسير الصوتي لخاصية الاستطالة على غيره، حيث قال معقبا بعد التعريف السابق: " وهذا التعريف أولى مما وقع في بعض الرسائل، الاستطالة: امتداد الصوت، وهي في الضاد؛ وذلك لأن امتداد الصوت لا يُخص بالضاد"[٤].

وهو تعليل صوتي دقيق؛ لأن امتداد الصوت سمة جوهرية لا تنفك – بحال من الأحوال– عن الأصوات الرخوة، وإن كانت أظهر في الضاد القديمة؛ بسبب طبيعة المخرج. كما تشارك أصوات المد الأصوات الرخوة في تلك

(١) نهاية القول المفيد ص٥٢.

(٢) مناهج البحث في اللغة ص٩٢.

(٣) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ص٢٧٤، وقد أيد تلك الحقيقة دراسو أصوات العربية من المستشرقين، ينظر: برتيل مالمبرج: علم الأصوات ص١٢٠.

(٤) نهاية القول المفيد ص٨٠.

الاستطالة الزمنية، وربما كانت تلك الاستطالة أوضح وأتم في أصوات المد، وقد أشار الشيخ – رحمه الله– إلى تلك الحقيقة الصوتية: " وتوضيح هذا الفرق: أن للمستطيل مخرجا له طول في جهة جريان الصوت؛ فجرى في مخرجه بقدر طوله ولم يتجاوزه، لما عرفت أن الحرف لا يتجاوز مخرجه المحقق، وليس للممدود مخرج، فلم يجرِ إلا في ذاته؛ إذ المخرج المقدر ليس بمخرج حقيقة، فلا ينقطع إلا بانقطاع الهواء"(١).

ويمكن التوفيق بين الوجهتين، بأن الاستطالة في صوت الضاد ناتجة من: استطالة مكانية (سببها: طول المخرج، وهو ما لا يتوافر لغيره من أصوات العربية + استطالة زمانية (ناشئة من رخاوتها من ناحية، ومن ناحية أخرى: من امتداد زمن إنتاجها في المخرج)، وهي بهذه الاستطالة الزمنية تفوق بقية الأصوات الرخوة، ولكنها لا تبلغ حد أصوات المد، فهي في مرتبة وسطى.

بقي أن نقول: إن هذا الذي قدمه الشيخ – رحمه الله– عن صفة الاستطالة؛ إنما ينطبق على الضاد العربية القديمة، أما الآن فقد تطور نطقها إلى أن صارت مفخم الدال، وفقدت كثيرا من خصائصها الفوناتيكية – مخرجا وصفة (ومنها: الاستطالة)–.

الخفاء

وقد عرفه بأنه: " في اللغة: الاستتار. وفي العرف: خفاء صوت الحرف. وحروفه أربعة: حروف المد الثلاثة، والهاء. أما حروف المد فلسعة مخرجها

(١) نهاية القول المفيد ص٨٠،٨١.

... وأخفاهن وأوسعهن مخرجا: الألف ثم الياء ثم الواو ... وأما خفاء الهاء؛ فلاجتماع صفات الضعف فيها"[١].

وهناك بعض الملاحظات التي تستحق المناقشة؛ فيما يتعلق برؤية الشيخ لتلك الخاصية وحروفها، نجمل القول فيها على النحو التالي:

أولا: يفهم من تعريف الشيخ – رحمه الله– أنه يقصد بالخفاء؛ مقدار الأثر الذي يتركه الصوت في السمع. وعلى هذا: فإن ما ذكره أستاذنا الدكتور علام؛ من أن علماء التجويد – وفيهم الشيخ– قد تصوروا أن الخفاء في تلك الأصوات؛ إنما هو خفاء أو ضعف عضلي، وليس خفاء أو ضعفا سمعيا[٢]. – أمر فيه نظر، إذ كيف نسلم بهذا؛ وقد عرف الخفاء لغة بأنه: الاستتار. واصطلاحا: خفاء صوت الحرف. وذلك كله مرتبط بالجانب الإدراكي (الوضوح السمعي). ولعل منشأ الوهم: أن الشيخ – رحمه الله– بنى ذلك (الخفاء) على أساس فسيولوجي، وبخاصة فيما يتعلق بحروف المد.

وأمر آخر يؤكد أن الخفاء إدراكي أو سمعي، وليس شيئا آخر، هو توجيه الشيخ – رحمه الله– أن يتحفظ القارئ من خفاء الهاء بوجوب بيانها حيث وقعت، وقد شرح مفهوم البيان وكيفيته بقوله: " معنى بيانها: تقوية صوتها (وهذا يدل على أن الخفاء سمعي) بتقوية ضغط مخرجها (وهذا مما نصحني به شيخي[٣] – جزاه الله عني خيرا الجزاء– أثناء إقرائي رواية

(١) نهاية القول المفيد ص٨١ وأيضا ص٦٥،٦٦.

(٢) عن علم التجويد القرآني ص١١٢.

(٣) الشيخ نبيل محمد محمد علي – شيخ مقرأة السيدة سكينة – رضي الله عنها– ومدرس القراءات بالأزهر الشريف.

حفص عن عاصم، حتى يبين الصوت في السمع، ولا سيما في نحو: عليهم – عهْد– اهْدنا؛ لأن السكون يضعف الحرف، ولا سبيل إلى إظهار صوت الهاء إلا بتكلف)؛ فلو لم يتحفظ على تقوية ضغط مخرجها لمال الطبع إلى توسيع مخرجها (لأنه من الأصوات الرخوة المهموسة)؛ لعسر تضييقه لبعده عن الفم (لأنه من الأصوات الحنجرية عند المحدثين، ومن أصوات أقصى الحلق عند القدماء)، فيكاد ينعدم في التلفظ (أي؛ لا يسمع أثر لصوت الهاء)"[١] .

ويقول مرة أخرى: " وإذا تكررت الهاء في كلمة أو كلمتين، كان البيان آكد لتكرُّر الخفاء، ولتاتِّي الإدغام في ذلك لاجتماع المثلين ... فلا بد من تفكيكهما وملاحظة بيانهما من غير عجلة تجحف بلفظهما، ولا تمطيط يزيد على المطلوب"[٢] .

وقد عبر بعض المحدثين عن تلك الفكرة بعبارة أخرى؛ حين قال: " ويعطي قراء القرآن في مصر عناية خاصة لجهر هذا الصوت (الهاء)؛ حتى ليبلغون به حد المبالغة أحيانا"[٣]. وهو لا يقصد بالجهر معناه الاصطلاحي عند أهل الفن، وإنما يقصد به معناه الوضعي (الإعلان والإظهار، ورفع الصوت).

ثانيا: تقودنا الملاحظة الأولى – في الواقع– إلى أخرى، وهي أن الشيخ – رحمه الله– قد علل هذا الخفاء في حروف المد تعليلا فسيولوجيا – انعدام

(١) نهاية القول المفيد ص٨١.

(٢) نهاية القول المفيد ص٩١.

(٣) مناهج البحث في اللغة ص١٠٣.

العائق كليا أو جزئيا- مما أدى إلى اتساع المخرج. أما الهاء: فلاجتماع صفات الضعف فيها.

وهذا التعليل لصفة الخفاء في أصوات المد يخالف ما توصلت إليه الأصواتيون المحدثون؛ وبيان ذلك: أنهم ذكروا أن درجة الوضوح السمعي أعلى ما تكون في الحركات (قصيرة أم طويلة)[١] ؛ أي أن الأذن تدرك الحركات على مسافة لا تدرك عندها الصوامت: " وهذا الوضوح السمعي العالي في الحركات راجع إلى التميز الفيزيائي؛ من كثرة الحزم الذبذبية والمكونات، وذلك راجع هو الاخر إلى التميز الفسيولوجي، وهو اتساع المخرج. فسعة المخرج هو العامل الأول في كثرة الذبذبات والمكونات، ثم في ارتفاع نسبة الوضوح السمعي الذي هو ضد الخفاء."[٢].

ومن ثم؛ فإن إثبات الشيخ – رحمه الله- صفة الخفاء لأصوات المد مخالف – تماما – لواقع هذه الأصوات فسيولوجيا وفيزيائيا.

أما الهاء: فإن خاصية الخفاء – بمعنى قلة الوضوح السمعي- تنطبق عليها؛ وذلك لأسباب: " ١- أن صوت الهاء من الصوامت، وليس من الحركات، والصوامت أقل في الوضوح السمعي من الحركات. ٢- أن صوت الهاء من الأصوات المهموسة، والمهموسة أقل في نسبة الوضوح السمعي من الأصوات المجهورة. ٣- أن صوت الهاء – إلى جانب كونه مهموسا- صوت رخو، وهذا يجعله أقل في نسبة الوضوح السمعي"[٣].

---

(١) علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي ص١٥٠، علم الأصوات ص٢١٧، دراسات في علم الأصوات اللغوية ص٩٥،٩٦، علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا ص٢٤١.

(٢) عن علم التجويد القرآني ص١١٤ بتصرف.

(٣) عن علم التجويد القرآني ص١١٥.

وقد أشار الشيخ – رحمه الله– إلى تلك الأسباب مجتمعة بعبارة وجيزة: " ... خصوصا الأحرف الضعيفة التي كثرت فيها صفات الضعف؛ كالهاء، فإن فيها همسا ورخاوة واستفالا وانفتاحا، وفيها صفة واحدة من صفات القوة، وهي الإصمات، فالأكثر غلب الأقل"(١).

ومن ثم؛ فإن تعليل الشيخ – رحمه الله– للخفاء المركب في جسم الهاء باجتماع صفات الضعف فيها (والأصواتيون المحدثون مجمعون على أن الهاء أضعف الحروف قاطبة(٢))؛ يضرب بسهم وافر في الصواب.

الغنة

وقد جعلها من الصفات اللازمة لصوتي الميم والنون، وحدها بقوله: " وهو صوت أغن مجهور مجهور شديد لا عمل للسان فيه ... والغنة صفة النون ولو تنوينا، والميم تحركتا أو سكنتا؛ ظاهرتين أو مخفاتين، أو مدغمتين"(٣) .

وهناك بعض الملاحظات الصوتية القيمة التي عالجها الشيخ – رحمه الله– والتي تنبئ عن فهم عميق ودقيق لطبيعة تلك الخاصية وخصائصها:

أولا: التفاته إلى الواقع الإدراكي لتلك الخاصية، حيث قرر – في دقة ووضوح– أن الغنة ليست على درجة واحدة في الوضوح السمعي، وإنما هي مراتب على النحو التالي: " وهي في الساكن أكمل من المتحرك، وفي الساكن المخفى أزيد من الساكن المظهر، وفي الساكن المدغم أوفى من

(١) نهاية القول المفيد ص٨٧.

(٢) وقد ذكر تلك الحقيقة ابن جني منذ أكثر من عشرة قرون، قال: " ومن الحروف المهتوت، وهو الهاء، وذلك لما فيه من الضعف والخفاء". سر صناعة الإعراب١/٦٤.

(٣) نهاية القول المفيد ص٨١.

الساكن المخفى"[١]. كما ينقل عن المرعشي تفريقه بين مراتب الغنة على مستوى النون والميم مخفاتين أو مشددتين، فيقول: " قال المرعشي: " أقوى الغنات غنة النون المشددة، فهي أكمل من غنة الميم المشددة، وغنة النون المخفاة أكمل من غنة الميم المخفاة"[٢]. ومن قبل ذلك رأيناه يقرر – أيضا – أن غنة النون أوفى من غنة الميم: " ثم اعلم أن النون أغن من الميم"[٣].

والمقصود بكل هذه المصطلحات (أكمل – أوفى – أزيد – أغن – أقوى): هو قوة الغنة، وكمال اعتمادها على الخيشوم ونقصه، أما من حيث الزمن: فالأمر لا يختلف.

---

(١) نهاية القول المفيد ص٨١.

(٢) نهاية القول المفيد ص٨٢.

(٣) نهاية القول المفيد ص٨٢. ولم يسلم أحد المحدثين بتلك الحقيقة الصوتية، حيث قال: " وقول القراء إن النون آصل في الغنة من الميم قول لا يبرره إلا كثرة شيوع الغنة مع النون وقلتها مع الميم. وليس معناه – كما فهم بعض القدماء– أن النون أقرب إلى الخيشوم من الميم. فعند النطق بكليهما يتخذ الهواء مجراه من الخيشوم فقط". د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٦٦. وربما كان ذلك من القراء؛ لأن الغنة مع النون تعطي نغمة موسيقية محببة إلى الأذن العربية، ولذلك يقع القراء – غالبا– في عيب يسمى بـ (تطنين النونات)، ويقصد به أهل الأداء: المبالغة في غنة النون، وتطويل زمنها أكثر مما جاء عن أئمة القراءة. من تعليقات المحقق على كتاب التمهيد في علم التجويد لابن الجزري ص٨٣، تحقيق: فرغلي سيد أحمد علي عرباوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى٢٠١٦م. وقد عده الشيخ – رحمه الله– من اللحن الخفي الذي لا يعرفه إلا العالم النحرير، ولا يسلم منه إلا المقرئ المتقن الضابط. نهاية القول المفيد ص٣٧. وقد حذر منه المرعشي: " لكن احذر من تطنين الغنة عند الوقف عليهما (الميم والنون)؛ لأن إظهار الغنة وإن احتاج إلى تمديد لكن المبالغة في التمديد لحن، وهو معنى التطنين، وهو في اللغة: صوت الطست عند ضربه". جهد المقل ص٣١٦.

ومما يحسب للشيخ – رحمه الله– أنه التفت إلى وجود صفة الأنفية (الغنة) في النون والميم المتحركتين؛ لأنها من الصفات الجوهرية لهما لأجل التوسط الذي فيهما، وإنما تتفات قوة وضعفا حسب طبيعة الحرف. وقد اشترط غيره وجوب سكونهن وعدم إظهارهن، وقد أشار إلى ذلك الشاطبي:

وغنة تنوين ونون وميم ان سكنَّ ولا إظهار في الأنف يجتلى(١).

ثانيا: عنايته بالجانب الأدائي لتلك الخاصية، ومن ثم؛ كانت وصيته لقارئ القرآن بوجوب المحافظة عليها، مع مراعاة الكم الزمني الصحيح الذي تستحقه تلك الظاهرة؛ وأن كونها في كلمة لا يختلف – أدائيا– عن كونها في كلمتين، قال: " فيجب المحافظة عليها (الغنة)، وعلى إظهارها أيضا من الميم والنون المشددتين مطلقا مقدار ألف؛ أي حركتين لا يزاد ولا ينقص عن ذلك؛ لأن ميزانها في النطق بها كميزان المد الطبيعي في النطق به، ثم التشديد (ويقصد به: إطالة الصوت الذي تقتضيه الغنة) فيهما (صوتا النون والميم) يشمل المدغمتين في كلمة أو كلمتين"(٢).

وهذه الملاحظة – والتي تسبقها– من الإشراقات الرائعة للشيخ – رحمه الله– والتي لم يولها الأصواتيون المحدثون(٣) كبير عناية، وقد نتجت من معايشتة لكتاب الله قراءة وإقراء، مما أضفي على رؤاه الصوتية قيمة ومكانة.

---

(١) القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي: متن الشاطبية المسمى حرز الأماني ووجه التهاني ص٩٢، رقم البيت:١١٥١، ضبطه وصححه وراجعه: محمد تميم الزعبي، مؤسسة ألف لام ميم للتقنية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة التاسعة١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

(٢) نهاية القول المفيد ص٨١،٨٢.

(٣) أطلق د. السعران على (النون والميم) اسم الصوامت الغناء، ولم يزد على ذلك سوى بيان ==

ثالثا: أما من الناحية الفوناتيكية، فقد وصف الشيخ – رحمه الله– الغنة بالجهر والشدة، وأما وصفها بالجهر فمسلم(١)، وقد أشار إلى تلك الحقيقة بعض المحدثين: " ويتم إنتاج الأصوات الأنفية (Nasals) في صحبة ذبذبات أو نغمات من الأوتار الصوتية، ولهذا لا يوجد أصوات مهموسة مقابلة لها"(٢).

==

الواقع الفسيولوجي المصاحب لتلك الأصوات. علم اللغة ص١٦٨،١٦٩. أما برتيل مالمبرج، فقد خلع عليها مصطلح الأصوات الأنفية (Nasal Sounds)، وكانت صفة الأنفية (Nasality– Nasalization) مقابلا لمصطلح الغنة، ولم يزد – أيضا– على توضيح ميكانيكية نطق تلك الأصوات. علم الأصوات ص٩٢، وقارن بـ مناهج البحث في اللغة ص١٠٥–١٠٧. وأطلق كانتينو عليها مصطلح النون الخيشومية. دروس في علم أصوات العربية ص٦٠. و أطلق عليها بعض المحدثين الأصوات الأنفمية، حيث يتخذ الهواء مجراه من طريقين معا، هما الفراغ الأنفي والفم. وربط بين الغنة وإطالة الصوت، وأن الهدف من تلك الإطالة: هو المحافظة على الصوت (النون والميم)؛ لئلا يفنى في غيره، وأنهما يصبحان في تلك الحالة أطول من أي صوت مشدد آخر. " وليست الغنة إلا إطالة لصوت النون. فالزمن الذي يستغرقه النطق بالغنة هي – في معظم الأحيان– أضعاف ما تحتاج إليه النون المظهرة. وليس هذا إلا للحيلولة بين النون والفناء في غيرها" د. أنيس: الأصوات اللغوية ص٦٢،٦٣،٦٦،٨٢، ٨٣.

(١) ولأجل هذا الوضوح السمعي (Sonority) الجهر، أطلق عليها بعض المحدثين مصطلح (أشباه الصوائت أو أشباه الحركات Vowel like Sounds). علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا ص٢٤١، وقارن بـ الأصوات اللغوية ص١٧٠، دراسة الصوت اللغوي ص١٢١. يقول د. أحمد مختار: " وقد ثبت أن الأنفيات تملك تركيب حزم (يقصد الحزم الذبذبية المسئولة فيزيائيا عن علو الصوت) مماثل لذلك الذي تملكه العلل، نتيجة الممر الحر للصوت خلال الأنف، وإن كانت الحزم مع الأنفيات أضعف؛ لوجود الغلق في الفم". دراسة الصوت اللغوي ص١١٥.

(٢) دراسة الصوت اللغوي ص١٢١.

أما وصفها بالشدة: فمخالف للواقع الفسيولوجي؛ حيث قرر القدماء والمحدثون أن النون والميم من الأصوات المتوسطة أو المائعة(Liquid Sounds)، على حد وصف المحدثين: " حيث يحبس الهواء حبسا تاما في موضع من الفم (الشفتان مع الميم، وطرف اللسان مع أصول الثنايا العليا مع النون)، ولكن يخفض الحنك اللين؛ فيتمكن الهواء من النفاذ عن طريق الأنف"(١).

وأمر آخر: هو أن الغنة يمكن استمرارها، بل يجب استمرارها قدر حركتين – كما ذكر الشيخ– والأصوات الشديدة لا يمكن استمرارها، فكيف توصف بالشدة.

المطلب الثالث

نظرية الأصوات القوية والضعيفة

يُعَدّ مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية من المفاهيم التي شغلت علماء الأصوات؛ لما تحمله تلك الأصوات من قوة أو ضعف بين أدائها العضلي(الجهد الذي تقوم به أعضاء النطق) والوضوح أو درجة الإسماع لهذه الأصوات، أي هي علاقة قائمة بين الداخل والخارج.

ولم يفت الشيخ – رحمه الله– أن يعرج على تلك النظرية، وكانت معالجته تتسم بالدقة والعمق وطول النفَس، مما يدل على نضوج تلك الفكرة واستوائها في ذهنه(٢)، وسوف نجمل تصور الشيخ وخواطره حول تلك النظرية في المحاور التالية:

(١) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي ص١٦٨، وقارن بـ الأصوات اللغوية ص٥٨.

(٢) عقد فصلا مستقلا سماه " في بيان الصفات القوية والضعيفة" أتى فيه على ملامح تلك ==

أولا: قسم الشيخ – رحمه الله– صفات الأصوات – مزدوجة أم غير مزدوجة– إلى صفات قوية (وجملتها: اثنتا عشرة صفة)، وأخرى ضعيفة (وجملتها: ثماني صفات). وحدد صفات القوة على هذا النحو: " أما صفات القوة فهي: الجهر، والشدة، والاستعلاء، والإطباق، والإصمات، والصفير، والقلقلة، والانحراف، والتكرير، والتفشي، والاستطالة، والغنة"(١).

أما الصفات الموسومة بالضعف؛ فكانت – عنده– على هذا النحو: " وأما الصفات الضعيفة فهي: الهمس، والرخاوة، والبينية، والاستفال، والانفتاح، والذلاقة، واللين، والخفاء"(٢).

ثانيا: قسم الشيخ – رحمه الله– أصوات العربية باعتبار مفهوم القوة والضعف – من وجهة نظره– إلى خمسة أقسام: قوي، وأقوى، وضعيف، وأضعف، ومتوسط، وعين حروف كل قسم، قال: " (فالقوي): حروف ستة: وهي الجيم، والدال والصاد المهملتان، والغين المعجمة، والراء، والزاي. (والأقوى) حروفه أربعة: الطاء المهملة، والضاد والظاء المعجمتان، والقاف. (والمتوسط) حروفه ثمانية: الهمزة، والألف، والباء الموحدة، والتاء المثناة فوق، والخاء والذال المعجمتان، والعين المهملة، والكاف. (والضعيف) حروفه خمسة: السين، والشين، واللام، والواو، والياء التحتية. (والأضعف) حروفه ستة: الثاء المثلثة، والحاء المهملة، والنون، والميم، والفاء، والهاء"(٣).

==

النظرية. نهاية القول المفيد ص٨٥–٨٧.

(١) نهاية القول المفيد ص٨٥.

(٢) نهاية القول المفيد ص٨٥.

(٣) نهاية القول المفيد ص٨٦.

ثالثا: حدد الشيخ – رحمه الله– المعيار الذي يُحكَم به على الصوت بالقوة والضعف، قال: " ثم اعلم أن الحرف إذا كثرت فيه صفات القوة، وقلت منه صفات الضعف كان قويا، ويتفرع منه الأقوى، وكذلك إذا كثرت فيه صفات الضعف وقلت منه صفات القوة كان ضعيفا ويتفرع منه الأضعف، فإذا استوى فيه الأمران كان متوسطا"(١). ويقول في موضع آخر: " ... فعلى قدر ما في الحرف من الصفات القوية تكون قوته، وعلى قدر ما فيه من الصفات الضعيفة يكون ضعفه"(٢).

ولم يقف الشيخ – رحمه الله– عند حدود التأصيل النظري لتلك الفكرة، بل دعم تلك الرؤية بتطبيقات وموازنات بين أصوات العربية، شملت الأقسام الخمسة التي ذكرها(٣):

١– قدم نموذجا للصوت الأقوى (وهو الطاء)، فقال: " فالطاء المهملة أقوى الحروف؛ لأنه قد اجتمع فيها من صفات القوة ما لم يجتمع في غيرها من الحروف؛ فإنها مجهورة، شديدة، مستعلية، مطبقة، مصمتة، مقلقلة"

٢– قدم نموذجا للصوت القوي (وهو الصاد)، فقال: " والصاد المهملة من الأحرف القوية؛ لأنه قد اجتمع فيها من صفات القوة: الاستعلاء، والإطباق، والإصمات، والصفير، ومن صفات الضعف: الهمس والرخاوة، فهي دون الطاء في القوة؛ إذ عدمت الجهر والشدة".

٣– قدم نموذجا للصوت الضعيف (وهو السين)، فقال: " والسين المهملة من الحروف الضعيفة؛ بما اجتمع فيها من صفات الضعف؛ فإن فيها

(١) نهاية القول المفيد ص٨٥.

(٢) نهاية القول المفيد ص٨٦.

(٣) ينظر أمثلة هذه الأقسام الخمسة، نهاية القول المفيد ص٨٦.

الاستفال، والانفتاح، والهمس، والرخاوة. وفيها من صفات القوة: الإصمات والصفير. فهي دون الصاد في القوة؛ إذ عدمت الاستعلاء والإطباق".

٤- قدم نموذجا للصوت الأضعف (وهو الثاء)، فقال: " والثاء المثلثة من أضعف الحروف؛ أي بما اجتمع فيها من صفات الضعف؛ فإن فيها الاستفال، والانفتاح، والهمس، والرخاوة. وفيها من صفات القوة: الإصمات، فهي أضعف من السين المهملة؛ إذ عدمت الصفير".

٥- قدم نموذجا للصوت المتوسط (وهو الباء)، فقال: " والباء الموحدة من الحرف المتوسطة في القوة والضعف؛ لأن فيها الجهر، والشدة، والقلقلة من صفات القوة. وفيها الاستفال، والانفتاح، والإذلاق من صفات الضعف".

رابعا: ربط الشيخ – رحمه الله، كما هي عادته- بين مفهوم القوة والضعف وبين الجانب الأدائي، حيث بيَّن أن الغاية من معرفة القوي والضعيف من الأصوات – هو مراعاة ذلك أثناء الأداء والتلاوة، بتوفية الحروف رتبتها، وإعطائها حقها ومستحقها: " ... فافهم هذا لتعطي كل حرف حقه في قراءتك من القوة، وتتحفظ على بيان الضعيف في قراءتك"[١].

خامسا: أقام الشيخ – رحمه الله- مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية على ركيزتين؛ إحداهما: تتعلق بالواقع الفسيولوجي التي تقوم به أعضاء النطق، والجهد المبذول أثناء نطق المجموعات الصوتية للصفات، وهي وجهة نظر تتفق مع ما توصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة، يقول د.

(١) نهاية القول المفيد ص٨٦.

تمام: " ومعنى القوة والضعف مرتبط ارتباطا تاما بتوتر أعضاء النطق، أو تراخيها أثناء عملية النطق"(١).

وقد أرجع الدكتور خليل العطية مقياس القوة والضعف في الأصوات المجهورة والمهموسة إلى توتر الأوتار الصوتية وعدمها، وأشار إلى ذلك في معرض حديثه عن علماء العربية، ومعرفتهم بالأوتار الصوتية من أنهم:" في تحديد صفتي الجهر والهمس لم يكونوا على جهل بأهم ظاهرة في الصوت المجهور وهي صفة التمكن والقوة التي تتأتى من توترهما عند التقائهما، واستشعارهم هذا دليل واضح على معرفتهم بالظاهرة"(٢).

كما أرجع د. فوزي الشايب معيار القوة والضعف في الأصوات إلى قوة الصوت النطقية، ونظر إلى بعض الصفات من تلك الزاوية: " فالصوت المطبق هو الأقوى؛ لأن الإطباق ما هو إلا حركة عضوية إضافية تصاحب نطق بعض الأصوات الأسنانية اللثوية، فكأن الإطباق – والحالة هذه– بمثابة مخرج ثان للمطبق ... فالإطباق– كطاقة إضافية– يمنح الصوت المطبق قوة نطقية تجعله الأقوى بالنسبة لمقاربه غير المطبق ... فالإطباق – إذا– هو أحد معايير القوة؛ التي تحدد قوة الصوت بالنسبة لغيره"(٣).

ويقول في موضع آخر معللا للقوة في بعض الصفات المحسنة: " يشكل الصفير جزءا مهما من الصوت؛ فهو قوة إضافية وإطالة للصوت نفسه،

(١) مناهج البحث في اللغة ص١٥٣.

(٢) في البحث الصوتي عند العرب ص٤٢.

(٣) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة ص٧١.

مثله في ذلك مثل الإطباق في الأصوات المطبقة، والتكرير في الراء، والتفشي في الشين"[١].

فالصوت المجهور – من وجهة نظر الشيخ– قوي؛ حيث قَوِي الاعتماد على مخرجه، وهو جهد عضلي زائد بإزاء ضعف الاعتماد في الصوت المهموس. والصوت الشديد قوي؛ لانغلاق الممر انغلاقا محكما لا يسمح فيه للهواء بالمرور، وهذا أمر أصعب– عضليا وفسيولوجيا– من مجرد التضييق الذي يحدث مع الأصوت الرخوة، والصوت المتوسط يجمع بين الحالتين (الغلق + التضييق)، لذا فهو في منزلة متوسطة، وذلك كله ناتج عن التحركات التقطيعية لأعضاء النطق للحالات الثلاثة.

" وأيضا؛ فإن ارتفاع مؤخر اللسان في أثناء نطق الصوت اللغوي؛ يعد جهدا عضليا زائدا على كون مؤخر اللسان باقيا في وضعه العادي دون أن يرتفع؛ لذا كان الارتفاع صفة من صفات القوة، وعدمه من صفات الضعف ... وكذلك أصوات الإطباق؛ فإنها تتطلب أمرين: الأول: ارتفاع مؤخر اللسان، كما في أصوات الاستعلاء. والثاني: تقعر وسط اللسان؛ نتيجة لارتفاع جوانبه، حتى تلتصق بالحنك الأعلى، فينحصر الصوت بينهما. ومن هنا فإن أصوات الإطباق التي تتطلب جهدا عضليا مضاعفا أقوى من أصوات الاستعلاء من جهة، ومن جهة أخرى: أقوى من أصوات الانفتاح... وكذلك الذلاقة أقل جهدا من الإصمات؛ حيث إن أصوات الذلاقة تنطق بيسر وسهولة، على حين أن أصوات الإصمات أقل يسرا وسهولة، وأصعب نسبيا.

(١) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة ص٧٢.

ومن هنا كانت أصوات الإصمات – التي هي أصعب في النطق نسبيا– أقوى، وكانت أصوات الذلاقة – التي هي أخف وأيسر– أضعف"[١].

والأمر نفسه ينطبق على الصفات المحسنة التي عدها الشيخ – رحمه الله– من صفات القوة (الصفير– القلقلة– الانحراف– التكرير– التفشي– الاستطالة– الغنة)، فكلها تتطلب جهدا عضليا زائدا عن نظائرها التي خلت من تلك الصفات[٢].

وتأسيسا على هذا المعيار؛ رأينا الشيخ – رحمه الله– يحكم على أصوات الإطباق (ط– ض– ص– ظ)، وأصوات القلقلة (قطب جد) بأنها أقوى الأصوات، وما ذلك إلا " لا متلاكها أكبر عدد من الصفات القوية؛ التي تكلف جهاز النطق جهدا كبيرا لتعدد الكيفيات والأحوال التي يتخذها معها، لا عتراض الهواء الخارج من الرئتين في مواضع متعددة من المجرى الصوتي"[٣] .

والركيزة الثانية التي بنى عليها الشيخ – رحمه الله– مفهوم القوة والضعف: تتعلق بالجانب الإدراكي (السمعي)، وهي – في الحقيقة– ثمرة أو نتيجة للركيزة الأولى، حيث يؤدي الجهد العضلي الزائد – غالبا– إلى علو الصوت ووضوحه سمعيا في أذن المتلقي. يقول: " وهذه الحروف (المجهورة) لقوتها

(١) عن علم التجويد القرآني ص١٣٢ بتصرف واختصار.

(٢) وقد بنى أستاذنا الدكتور علام– أيضا– نظرية القوة والضعف الصوتية على الواقع الفسيولوجي لأعضاء النطق حال التلفظ، وتناول الصفات الواحدة تلو الأخرى، بما لا يدع زيادة لمستزيد، ولا يستغني عنه باحث أو قارئ. لمزيد من التفصيل والشرح، ينظر: عن علم التجويد القرآني ص١٣١–١٣٩، وأيضا ص١٤١–١٥١.

(٣) د. محمد يحيي الجبوري: مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية ص٥٢،٥٣، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

في نفسها، وقوة الاعتماد عليها في موضع خروجها، لا تخرج إلا بصوت قوي شديد..."[١] .

وهذا يكشف أن الصوت كلما كان قويا في اعتماده، كان قويا في سمعه. فالقوة النطقية تنتج صوتا مرتفعا. وفي ضوء الوضوح السمعي ذهب بعض المحدثين إلى أنّ الأصوات المجهورة لا يتم نطقها الصحيح إلاّ بارتفاع الصوت فـ: " الدال والزاي – مثلا– لا يمكن نطقها الواضح المتميز بصوت خفيض، فإذا حاول الإنسان نطق الدال (من الأصوات المجهورة) بصوت خفيض، فإنه لا يستطيع نطقها دالا، بل هي تاء. وعلى العكس من هذا: فهناك أصوات تنطق بأية درجة في الصوت، حتى إنها تنطق – أيضا– بخفض الصوت دون أن يحدث لها أي تغيير، مثل: التاء والسين (من الأصوات المجهورة)"[٢] .

والصوت الصفيري أوضح في السمع من نظيره غير الصفيري. والصوت المكرر أوضح من شقيقه غير المكرر، والمتفشي أقوى من غيره ... وهكذا بقية الصفات القوية.

وتأسيسا على هذا: رأينا الشيخ – رحمه الله– يؤسس سلما لدرجات الجهر، فأصوات الجهر ليست كلها على درجة واحدة في الوضوح السمعي. وكذلك الواقع السمعي لصفة القلقلة، ليس درجة واحدة، وإنما هو درجات: أعلى، وهو في الطاء، وأوسط، وهو في الجيم، وأدنى، وهو في الثلاثة الباقية، وكذلك أصوات الإطباق ليست مستوية، بل بعضها أقوى من بعض ...إلخ.

(١) نهاية القول المفيد ص٦٥.

(٢) مدخل إلى علم اللغة ص٥٢.

وقد التفت سيبويه إلى تلك الفكرة – من قبل– حين قال: " والمُطْبَقُ أفشى في السمع"(١). وقال

أيضا: " ... لأنهن حروف الصفير، وهن أندى في السمع"(٢). ومن قبله الخليل حين يقول: " ... ولكن العين والقاف لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه، لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرسا"(٣).

ورجح المحدثون أن المراد بقوة الحرف وضعفه متعلق – أيضا– بقوة وَقْع الصوت ووضوحه في السمع(٤). وذكروا تعليلات صوتية تتسق مع هذا التفسير، نذكر منها ما يلي:

" المجهور – عند القدماء– أقوى من المهموس؛ لأن الجهر الناشئ عن تذبذب الأوتار الصوتية يمنح الصوت قوة ووضوحا في السمع أكثر من المهموس، فالوضوح في السمع هو محك القوة في المجهور، وهو الذي يجعله الأقوى عند مجاورته لمقاربه في المخرج والمهموس"(٥). ويقول أيضا: " وهذا التكرير يزيد الراء قوة ووضوحا في السمع ... ولهذا كانت الراء أقوى الصوامت – بعد أشباه الحركات– إسماعا على الإطلاق"(٦).

(١) الكتاب ٤/٤٦٠.
(٢) الكتاب ٤/٤٦٤.
(٣) الكتاب ٤/٤٦٤.
(٤) العين ١/٥٢.
(٥) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة ص٧٢.
(٦) أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة ص٧٣،٧٤.

ويقول د. علام: " وهكذا بنى القدماء فكرة القوة والضعف في الأصوات اللغوية على أساس فسيولوجي، ما عدا صفة الغنة، فإنها – وإن كان سببها فسيولوجيا– إلا أن إحساسها وتذوقها يتم إدراكيا في المقام الأول"(١).

ويرى البحث: أن فكرة القوة والضعف مبنية على الاعتبارين (فسيولوجي+ إدراكي) معا، وأن الثاني منهما نتيجة حتمية للآخر. وهما احتمالان طرحهما د. أنيس في تفسير المراد بالحرف الأقوى عند ابن جني، فقال – بعد أن ذكر أن ابن جني لم يحدثنا حديثا واضحا عن معنى الحرف الأقوى– : " وربما أراد ابن جني بالحرف الأقوى: الأكثر وضوحا في السمع، والذي يحتاج إلى جهد عضلي أكثر"(٢).

ونخلص من ذلك إلى: أن تعلق القوة والضعف – من وجهة نظر الشيخ– مرتبط بصفات الأصوات لما يعترض الهواء الخارج من الرئتين من تضييق وحبس وضغط، ولما تتخذه آلة النطق من ارتفاع وانخفاض وتقعر ونحو ذلك (الواقع الفسيولوجي)، وكذا ما يرتبط به من وضوح أو ارتفاع أو انخفاض في السمع (البعد الإدراكي)، فتارة نجد القوة والضعف في عملية أعضاء النطق، وأخرى في الوضوح أو الارتفاع والانخفاض السمعي. وبعبارة أخرى يمكن أن نقول: إن هناك متلازمة بين القوة النطقية (الجهد والكلفة العضلية) والقوة السمعية (الوضوح وعلو الصوت). وهي رؤية تتسم بالدقة والعمق والشمول.

---

(١) عن علم التجويد القرآني ص١٤٠، وأيضا ص١٤٦.

(٢) د. إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر ص٢١، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية١٩٥٢م.

وفي الختام؛ أود ان ألفت نظر القارئ إلى أن: " هذه النتيجة ليست هي الكلمة الأخيرة في هذه القضية الكبرى، وهي قوة الأصوات وضعفها؛ لأن قوة الصوت وضعفه لا تكمن في الجهد العضلي والتحركات التقطيعية فقط، فقد يكون الصوت قويا من الناحية الفسيولوجية، ويكون ضعيفا من الناحية الفيزيائية، أو منها ومن الناحية الإدراكية معا. قلكي يكون الحكم دقيقا، وتكون النتيجة سليمة، فلا بد من الاعتماد في هذه الدراسة أيضا على الأساس الفيزيائي؛ وذلك لقوة الترابط والتلازم بين الأسس الثلاثة، ولأن هذه الأبعاد الثلاثة (الفسيولوجي، والفيزيائي، والإدراكي) تمثل مراحل عملية التخاطب كاملة"[١] .

أضف إلى أن المحدثين قد أضافوا عناصر أخرى في الحكم على الأصوات بالقوة والضعف، منها: " قوة الموقع، واستقرار الصوت وامتداده الزمني (طول الصوت، فضلا عن الوحدات فوق المقطعية؛ كالنبر والتنغيم؛ لارتباطها بارتفاع الصوت وانخفاضه في مقاطع الكلمة، أو سياق الجمل؛ لأغراض تمييزية (وظيفية)"[٢] .

وقد ختم الشيخ – رحمه الله– رؤيته وإشراقاته حول صفات أصوات العربية بتجميع الصفات الصوتية للأصوات مرتبة على حسب مخارجها، حيث عقد فصلا كاملا بعنوان: " في توزيع الصفات على موصوفاتها؛ مرتبة على ترتيب مخارجها، وفي ذكر ما يتعلق بكل حرف من التجويد". استهله بقوله:

(١) عن علم التجويد القرآني ص١٦٥،١٦٦، بتصرف واختصار.

(٢) مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية ص٥٧.

" اعلم أن أول مخارج الحروف الجوف، وهو مخرج لحروف المد الثلاثة: وصفاتها خمسة ..."[١] .

•حروف المد الثلاثة، وصفاتها خمسة: الجهر، والرخاوة، والانفتاح، والإصمات، والاستفال، وقد اعتبرها – من قبل– أصواتا خفية، وأثبتنا بالدليل أنها أوضح الحروف سمعا[٢] ، فتصير جملة صفاتها ستة .

•وأما الهمزة، ولها من الصفات خمس: الجهر (وعند المحدثين صوت لا هو بالمجهور ولا بالمهموس)، والشدة، والإصمات، والانفتاح، والاستفال. وهي من الحروف المتوسطة عند الشيخ.

•وأما الهاء، ولها خمس صفات: الهمس، والرخاوة، والاستفال، والانفتاح، والإصمات، وقد اعتبرها – من قبل– صوتا خفيا، فتصير جملة صفاتها ستة . وهي أضعف الحروف على الإطلاق.

•وأما العين، ولها خمس صفات: الجهر، والبينية (وقد أثبتنا – من قبل– أنها صوت رخو[٣])، والاستفال، والانفتاح، والإصمات. وهي من الحروف المتوسطة عند الشيخ.

•وأما الحاء، ولها خمس صفات: الهمس، والرخاوة، والاستفال، والانفتاح، والإصمات. وهي من الحروف الأضعف عند الشيخ.

---

(١) بلغ عدد صفحاته خمسا وثلاثين صفحة، نهاية القول المفيد ص٨٧–١٢١. وقد لخصت صفات كل صوت، وموقفه من القوة والضعف؛ على النحو المبين أعلاه في صفحات البحث.

(٢) يراجع مبحث المخارج من صفحات هذا البحث.

(٣) يراجع مبحث المخارج من صفحات هذا البحث.

•وأما الغين المعجمة، وصفاتها خمس: الجهر، والاستعلاء، والانفتاح، والرخاوة، والإصمات. وهي من الحروف القوية عند الشيخ.

•وأما الخاء المعجمة، وصفاتها خمس: الهمس، والرخاوة، والاستعلاء، والانفتاح، والإصمات. وهي من الحروف المتوسطة عند الشيخ.

• وأما القاف (القديمة الفصيحة)، ولها ست صفات: الجهر، والشدة، والاستعلاء، والقلقلة، والانفتاح، والإصمات. وهي من الحروف الأقوى عند الشيخ.

•وأما الكاف، وصفاتها خمس: الهمس، والشدة، والانفتاح، والإصمات، والاستفال. وهي من الحروف المتوسطة عند الشيخ.

•وأما الجيم، وهي: شديدة، مجهورة، منفتحة، مستفلة، مصمتة، مقلقلة. وهي من الحروف القوية عند الشيخ.

•وأما الشين، وهي: مهموسة، رخوة، مستفلة، منفتحة، مصمتة، متفشية. وهي من الحروف الضعيفة عند الشيخ.

•وأما الياء، وهي: مجهورة، رخوة، منفتحة، مستفلة جدا، مصمتة. وهي من الحروف الضعيفة عند الشيخ.

•وأما الضاد (القديمة الفصيحة)، ولها ست صفات: الجهر، والرخاوة، والإطباق، والاستعلاء، والإصمات، والاستطالة. وهي من الحروف الأقوى عند الشيخ.

•وأما اللام، ولها ست صفات: الجهر، وبين الشدة والرخاوة، والانفتاح، والاستفال، والإذلاق، والانحراف. وهي من الحروف الضعيفة عند الشيخ.

•وأما النون، وهي: مجهورة، متوسطة (بين الشدة والرخاوة)، منفتحة، مستفلة، مذلقة، وقد اعتبرها – من قبل– صوتا خفيا، فتصير جملة صفاتها ستة. وهي من الحروف الأضعف عند الشيخ.

•وأما الراء، وهي: مجهورة، بينية، منفتحة، مستفلة، مذلقة، منحرفة، مكررة. وهي من الحروف القوية عند الشيخ.

•وأما الطاء المهملة (القديمة الفصيحة)، فهي حرف: مجهور، شديد، مطبق، مستعل، مقلقل، مصمت. وهي أقوى الحروف على الإطلاق.

•وأما الدال المهملة، وهي حرف: مجهورة، شديد، مقلقل، مصمت، منفتح، مستفل. وهي من الحروف القوية عند الشيخ.

•وأما التاء المثناة الفوقية، ولها خمس صفات: الشدة، والهمس، والاستفال، والانفتاح، والإصمات. وهي من الحروف المتوسطة عند الشيخ.

•وأما الصاد المهملة، ولها ست صفات: الاستعلاء، والإطباق، والإصمات، والصفير، والهمس، والرخاوة. وهي من الحروف القوية عند الشيخ.

•وأما السين المهملة، ولها ست صفات: الهمس، والرخاوة، والانفتاح، والاستفال، والإصمات، والصفير. وهي من الحروف الضعيفة عند الشيخ.

•وأما الزاي، ولها ست صفات: الجهر، والرخاوة، والانفتاح، والاستفال، والإصمات، والصفير . وهي من الحروف القوية عند الشيخ.

•وأما الظاء المعجمة، ولها خمس صفات: الجهر، والإطباق، والاستعلاء، والإصمات، والرخاوة . وهي من الحروف الأقوى عند الشيخ.

•وأما الذال المعجمة، ولها خمس صفات: الجهر، والانفتاح، والاستفال، والرخاوة، والإصمات. وهي من الحروف المتوسطة عند الشيخ.

•وأما الثاء المثلثة، ولها خمس صفات: الهمس، الرخاوة، الاستفال، الانفتاح، الإصمات. وهي من الحروف الأضعف عند الشيخ.

•وأما الفاء، ولها خمس صفات: الجهر، والانفتاح، والاستفال، والرخاوة، والإصمات. وهي من الحروف الأضعف عند الشيخ.

•وأما الواو، ولها ست صفات: الجهر، والاستفال، والانفتاح، والإصمات، والرخاوة، اللين. وهي من الحروف الضعيفة عند الشيخ.

•وأما الباء الموحدة، ولها ست صفات: القلقلة، والجهر، والشدة، والاستفال، والانفتاح، والإذلاق. وهي من الحروف المتوسطة عند الشيخ.

•وأما الميم، ولها خمس صفات: الجهر، والتوسط أي؛ بين الشدو والرخاوة، والاستفال، والانفتاح، والإذلاق، وقد اعتبرها – من قبل– صوتا أغن، فتصير جملة صفاتها ستة. وهي من الحروف الأضعف عند الشيخ.

وبعد هذه الرحلة في رحاب صفات الأصوات عند الشيخ – رحمه الله– فإننا لا نملك – إذا استثنينا بعض الهنات الهينات – إلا أن نقول: إن ما توصل إليه من نتائج يستحق الإشادة والتقدير، ولاسيما إذا وضعنا في الاعتبار أن ما توصل إليه من حقائق علمية اعتمدت على الملاحظة الذاتية، فبل أن تظهر الدراسة الآلية للأصوات، وقبل أن يستعين الدراسون بأجهزة المختبرات والمعامل الصوتية، وغيرها من وسائل التمكين الصوتي.

ومن ناحية أخرى؛ كانت نتائجه ودراساته مدعمة بالأمثلة التطبيقية الحية من القرآن الكريم، وكثيرا ما يربط أبعاد النظرية الصوتية (فسيولوجيا – وإدراكيا) بالجانب الأدائي لألفاظ القرآن الكريم.

ولا شك أن الأداء يمثل الهدف الأسمى والغاية الكبرى لعلم الصوتيات، حيث " يهدف علم الصوتيات – من خلال دراسته لأصوات اللغة من كل جوانبها– إلى تقنين أداء اللغة وفق النظام العام لهذه اللغة ... حتى يتحقق للعربية سلامتها من اللحن والخطأ، فتعبر عن المعاني تعبيرا دقيقا غير منقوص"(١).

كما يمكننا أن نقول – مطمئنين– إن الشيخ – رحمه الله– في تناوله لأصوات العربية سار بمنهجية دقيقة ومتقنة، وخطى ثابتة في تتابع وتسلسل منطقي، لا تقبل الخطأ ولا تحتمل الزلل. ومن ثم؛ كان انطلاقه في تحديد النطق الأمثل لكل صوت، والنمط الذي يجب أن يستقر في ذهن قارئه، ليقيس عليه، ويفرع عنه، ويميز به – يبدأ من وصفه فسيولوجيا، وتوصيف مخرجه توصيفا دقيقا – حسب الإمكانيات المتاحة– ثم تحديد صفاته؛ والتي يتم – بناء عليها– تحديد درجته من القوة والضعف، ولا يدع القارئ هكذا حتى يجمع صفات كل صوت على حدة، تيسيرا على الطالب، وتسهيلا على القارئ.

وفي أثناء ذلك يعرض مع كل صوت الأصوات الأخرى التي تشاركه في المخرج أو في الصفة، والتي يحتمل التباسها به، وهنا يركز على أوجه الافتراق والتمايز ؛ والتي تجعل من كل صوت وحدة لغوية مستقلة. ثم يردف

(١) عن علم التجويد القرآني ص٢٢.

ذلك ببعض التنبيهات التي يجب أن يتبعها القارئ، والتحذيرات التي يجب أن يجتنبها القارئ؛ حتى يخرج الصوت مستوفيا حقه ومستحقه(١).

وكأن الشيخ – رحمه الله– بصنيعه هذا، يهدف إلى الوصول إلى الهدف الأسمى والغاية الكبرى التي من أجلها نذر حياته، ووضع كتابه، ألا وهو: القراءة الجيدة الخالية من اللحن، والتلاوة الصحيحة المستقيمة لكتاب الله، والمحافظة على ذلك المستوى الأدائي غضا طريا كما توارثته الأمة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– عن أمين الوحي جبريل – رضي الله عنه– عن حضرة رب العالمين – جل وعز.

وفي سبيل تلك الغاية – وما أجلها، وما أسعد صاحبها– رأيناه يعالج مباحث الصوت على هذا النحو من العمق والدقة، وبهذه الطريقة من التفصيل والتفسير، والتحليل والتعليل؛ إيمانا منه – وهو على حق– " بأن قراءة القرآن الكريم وتلاوته، والوصول إلى كثير من دقائقه وأسراره، وحكمه وإعجازه، وأحرفه ورواياته، لا يمكن أن يتم دون التعمق في دراسة أصوات لغته، والتعرف الكامل على تلك الحروف"(٢).

(١) تراجع تلك التنبيهات والتحذيرات في تهاية مكي ص٨٨–١٢١.

(٢) أصوات العربية والقرآن الكريم ص٢٢٨.

الخاتمة

وبعد .. فلقد أرخيت العنان للقول حتى بلغ؛ في رحاب الجهود الصوتية عند محمد مكي نصر على مستوى الصوت المفرد، ولقد آن الأوان لأن أعود إلى النقطة التي كان منها الانطلاق، ثم أتابع السير في المجال الذي ارتاده هذا البحث؛ لأتبين أهم النتائج التي تمخضت عنها الدراسة؛ فأقول:

١- وقف الشيخ- رحمه الله- على حقيقة الصوت وطبعيته، وأبعاده الثلاثة، وكيفية إنتاجه وقوانينه، وجهاز النطق عند الإنسان- وقفة المتدبر المتأمل- بما ينسجم مع رؤية المحدثين؛ وما ينم عن فكر صوتي رائد.

٢- بنى الشيخ – رحمه الله- نظريته الصوتية القرآنية؛ على محورين لايمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر: الأول: المعرفة النظرية العميقة، والثقافة العلمية الدقيقة. والثاني: القدرة على التطبيق المتقن، والمران الجيد. ولن تكون الثمرة المتوخاة من هذا العلم دانية القطاف إلا بمراعاة البُعدين.

٣- ربط الجريسي في معالجاته وتحليلاته لقضايا الصوت، بين المدخل الفسيولوجي والمدخل الإدراكي، وقد ظهر ذلك في أوضح مجاليه عند حديثه عن الصفات، ولا سيما عند حديثه عن الصفير والقلقلة، وكذلك عند تنميطها إلى قوية وضعيفة، أما الجانب الفيزيائي: فلم يلق كبير عناية من الشيخ – رحمه الله- اللهم إلا إشارات قليلة تتعلق بالتموجات.

٤- بذل الشيخ – رحمه الله- جهدا متميزا ومتقدما في تحديد مخارج الحروف، وكان موفقا – إلى حد كبير- إذا أخذنا في الاعتبار أنه كان يعتمد على الملاحظات الذاتية والتجارب الشخصية، في الوقت الذي توافرت فيه المعامل والمختبرات للأصواتيين المحدثين.

٥- حاز الجانب الأدائي لألفاظ القرآن الكريم على عناية بالغة ودقيقة من نهاية مكي، ومن ثم رأيناه يقدم تحليلاته التأصيلية، مشفوعة بشيء غير

قليل من التنبيهات النطقية والتحذيرات الأدائية التي تضمن السلامة في الأداء والبراءة من اللحن، وكثيرا ما يلفت انتباه القارئ إلى ترك المبالغة في تحقيق المخرج أو الصفة؛ حتى لا يخرج الأمر عن حده، أو ينقلب الصوت إلى ضده.

٦- قدم الشيخ – رحمه الله- بعض المباكرات الصوتية التي كانت إيذانا بميلاد بعض النظريات الصوتية الكبرى في عصرنا الحديث، وبيان ذلك: كان حديثه – ومن قبله علماء العربية والتجويد- عن الحروف الفرعية ومعيار الحكم عليها، ومعالجته المتسمة بالعمق والدقة؛ أساسا لميلاد أكبر النظريات الرائدة في ميدان الصوتيات الحديثة، ألا وهي: نظرية الفونيم. كما كان تقسيمه لأصوات العربية – مراعيا الجانبين: الفسيولوجي والإدراكي- إلى قوية وضعيفة وما بينهما، ومن قبل تنميطه الصفات إلى قوية وضعيفة، إرهاصا بظهور نظرية القوة والضعف في أصوات العربية، واستوائها على سوقها علي يد الأصواتيين المحدثين.

توصيات

١- نهيب بمعلمي العربية، والمشتغلين بدراسة الفصحى؛ أن يلتفتوا إلى أهمية علم التجويد في تأصيل النطق العربي الصحيح الفصيح لدى المبتدئين والناطقين بغير العربية. وأن يصطحبوا نتائج هذا الفن ومخرجاته في رحلتهم لخدمة فصحانا: درسا ونطقا، تأصيلا وتطبيقا.

٢- كما نستجيش همم الباحثين والدراسين لأصوات العربية؛ وندعوهم إلى ضرورة إدامة النظر، ومتابعة البحث في كتب التجويد في العصور المتأخرة – وأنا واثق كل الثقة أن في هذه الكتب أشياء نافعة نحتاج إليها اليوم- وألا يقف ذلك عند حدود المتقدمين؛ حتى لا يحرم الدرس الصوتي من مصدر غني وأصيل.

٣- كما نستنهض عزائم الباحثين الجادة؛ إلى ضرورة الربط – في دراساتهم وأبحاثهم- بين أبعاد الحقيقة الصوتية – فسيولوجيا، فيزيائيا، إدراكيا- حيث ترتبط الملامح الثلاثة ارتباطا وثيقا في تشكيل الصوت اللغوي، حتى تتسع النظرة، فتتضح الرؤية، وتكتمل الصورة.

٤- نستحث خطى القائمين على تدريس مادة التجويد والأصوات في كليات اللغة اللغة العربية بجامعة الأزهر المعمور؛ على ضرورة تأسيس معمل للصوتيات على غرار الموجود في الكليات المناظرة، حتى تتعانق الدراسة المعملية التجريبية مع الدراسة العلمية النظرية؛ أملا في الوصول إلى مستوى الإحاطة والشمول والدقة في تحقيق النتائج والغايات المرجوة.

٥- وأخيرا؛ إن فهمنا لكثير من حقائق صوتيات لغتنا – وبخاصة ما توصل إليه القدماء من نتائج – تحتاج إلى مراجعة نظر ومزيد استجلاء؛ في ظل ما توصلت إليه الدراسات الحديثة، التي اعتمدت على الآلات الدقيقة التي لا يعدلها في الدقة الاعتماد على التأمل الشخصي- وهو ما اصطلح عليه القدماء بذوق الحروف- مهما بلغت دقة التأمل الشخصي.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

حرف الهمزة

إبراهيم أنيس (دكتور)

الأصوات اللغوية، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، بدون تاريخ. وطبعة أخرى: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الخامسة١٩٧٥م.

موسيقى الشعر، مطبعة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية١٩٥٢م.

أحمد مختار عمر (دكتور)

البحث اللغوي عند العرب – مع دراسة لقضية التأثير والتأثر– عالم الكتب، القاهرة، الطبعة السادسة١٩٨٨م.

دراسة الصوت اللغوي، عالم الكتب، القاهرة١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

أحمد طه سلطان، صلاح الدين محمد قناوي (دكتوران)

دراسات في علم الأصوات اللغوية، الطبعة الثانية١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

إدوارد كرنيليوس فانديك

اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، صححه وزاد عليه: السيد محمد علي الببلاوي، مطبعة الهلال، مصر١٣١٣هـ/١٩٨٦م.

اسماعيل باشا بن محمد بن مير سليم البغدادي

إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف الدين، رفعت بليكة الكليسي، مؤسسة التاريخ العربي، بدون تاريخ.

هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، مؤسسة التاريخ الإسلامي، بدون تاريخ.

أمجد يوسف الجنابي (دكتور)

آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية، مطبوعات مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، الطبعة الثانية١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

حرف الباء

أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه (الإمام)

الكتاب، تحقيق: الأستاذ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

حرف التاء

تمام حسان (دكتور)

اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الرابعة١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

مناهج البحث في اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

حرف الجيم

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (الإمام الحافظ)

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية١٣٣٩هـ/١٩٧٩م.

حرف الحاء

حاجي خليفة (الأديب مصطفى بن عبد الله)

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ .

حسام سعيد النعيمي (دكتور)

الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية١٩٨٠م.

الحسن بن قاسم المرادي (الإمام)

المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد، تحقيق: جمال السيد رفاعي، تصحيح وتقديم: الشيخ: محمود حافظ برانق، د.حامد بن خير الله، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، القاهرة، بدون تاريخ.

الحسن بن محمد البوريني

تراجم الأعيان من أبناء الزمان، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، دمشق١٩٥٩م.

حرف الخاء

خليل إبراهيم العطية (دكتور)

في البحث الصوتي عند العرب، منشورات دار الجاحظ، الجمهورية العراقية١٩٨٣م.

خير الدين الزركلي

الأعلام (قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر٢٠٠٢م.

أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (الإمام الحافظ)

التمهيد في علم التجويد: تحقيق: فرغلي سيد أحمد علي عرباوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى٢٠١٦م.

غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره: برجشتراسر١٩٣٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

النشر في القراءات العشر، تقديم: الشيخ علي محمد الضباع، تخريج: الشيخ زكريا عميرات، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

حرف الراء

رمضان عبد التواب (دكتور)

المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

حرف السين

سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد المصري الشهير بـ (ابن الملقن):

طبقات الأولياء، تحقيق: نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة

الثانية١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

سلمان حسن العاني (دكتور)

التشكيل الصوتي في اللغة العربية- فونولوجيا العربية، ترجمة: ياسر الملاح، مراجعة: د. محمد محمود غالي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، الطبعة الأولى١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

سمير شريف استيتية (دكتور)

الأصوات اللغوية – رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى٢٠٠٣م.

حرف الشين

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (الإمام الحافظ)

معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق: د. طيار آلتي قولاج، استانبول١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (الشيخ الإمام)

معجم البلدان، دار صادر، بيروت١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (المؤرخ الناقد)

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ.

حرف العين

عبد الرحمن بدوي (دكتور)

موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة١٩٩٣م.

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (الإمام)

كتاب العين، تحقيق: د. إبراهيم المخزومي، د. فاضل السامرائي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

مقدمة ابن خلدون، تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي، طبعة خاصة بمكتبة الأسرة٢٠٠٦م.

عبد العزيز سعيد الصيغ (دكتور)

المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر، دمشق، الإعادة الأولى١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م.

عبد العزيز علام، عبد الله ربيع (دكتوران)

علم الصوتيات، مكتبة الرشد ناشرون، المملكة العربية السعودية، الرياض الطبعة الثالثة١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م،

عبد العزيز علام (دكتور)

عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، الطبعة الأولى، القاهرة، بدون تاريخ.

في علم اللغة، بدون بيانات.

عبد الغفار حامد هلال (دكتور)

أصوات اللغة العربية، مطبعة الجبلاوي، القاهرة، الطبعة الثانية١٤٠٨هـ/١٩٨٨.

عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي (الشيخ)

هداية القاري في تجويد كلام الباري، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

عبد القادر مرعي العلي الخليل (دكتور)

المصطلح الصوتي عند علماء العربية القدماء في ضوء علم اللغة الحديث، منشورات جامعة مؤتة، عمان، الطبعة الأولى١٩٩٣م.

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسي

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

عبد المنعم الناصر (دكتور)

شرح صوتيات سيبويه- دراسة حديثة في النظام الصوتي للعربية من خلال نصوص كتاب سيبويه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى٢٠١٢م.

عبد الوهاب الشعراني (الإمام العارف بالله)

الطبقات الكبرى: تحقيق: د. أحمد عبد الرحيم السايح، المستشار. توفيق علي وهبة، مكتبةالثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

عصام نور الدين (دكتور)

علم الأصوات اللغوية – الفونتيكا- دار الفكر اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى١٩٩٢م.

علي باشا مبارك

الخطط التوفيقية، المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق، القاهرة، الطبعة الأولى١٣٠٥هـ/١٨٨٨م.

عماد الدين اسماعيل بن كثير (الإمام الحافظ)

طبقات الفقهاء الشافعيين: تحقيق: د. أحمد عمر هاشم، د. محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

عمر رضا كحالة

معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني

التحديد في الإتقان والتجويد، دراسة وتحقيق: د. غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى١٤٢١هـ،٢٠٠٠م.

حرف الغين

غانم قدوري الحمد (دكتور)

أبحاث في علم التجويد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة

الأولى١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

المدخل إلى علم أصوات العربية، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

حرف الفاء

أبو الفتح عثمان بن جني (إمام العربية)

سر صناعة الإعراب، دراسة وتحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

فوزي الشايب (دكتور)

أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، عالم الكتب الحديث، الأردن، الطبعة الأولى١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م

فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية، جمعه ورتبه مغيرو الكتب العربية بالكتبخانة الخديوية، طبعة ثانية بمصر١٣١٠هـ.

فهرس الخزانة التيمورية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.

حرف القاف

القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي (الحافظ المقرئ)

متن الشاطبية المسمى حرز الأماني ووجه التهاني، ضبطه وصححه وراجعه: محمد تميم الزعبي، مؤسسة ألف لام ميم للتقنية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة التاسعة١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

حرف الكاف

كمال محمد بشر (دكتور)

علم الأصوات، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة٢٠٠٠م.

حرف الميم

محمد بن أبي بكر المرعشي الملقب بساجقلي زاده (الشيخ)

جهد المقل، تحقيق ودراسة: د. سالم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الثانية١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

محمد حسن حسن جبل (دكتور)

المختصر في أصوات اللغة العربية – دراسة نظرية وتطبيقية، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الثامنة١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.

محمد سعيد العريان

حياة الرافعي، المكتبة التجارية بمصر، الطبعة الثالثة١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

محمد فؤاد عبد الباقي

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، دار الحديث، القاهرة، مصورة من طبعة دار الكتب المصرية١٣٦٤هـ.

أبو محمد مكي بن أبي طالب (الإمام العلامة)

الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، تحقيق: د. أحمد حسن فرحات، دار عمار، عمان، الطبعة الثالثة١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

محمد مكي نصر الجريسي (الشيخ)

نهاية القول المفيد في علم تجويد القرآن المجيد، تصحيح ومراجعة: الشيخ علي محمد الضباع، تدقيق وضبط: أحمد علي حسن، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الرابعة١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

محمد يحيي الجبوري (دكتور)

مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

محمود السعران (دكتور)

علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي– دار النهضة العربية، بيروت، بدون تاريخ.

محمود فهمي حجازي (دكتور)

مدخل إلى علم اللغة، دار قباء، القاهرة، بدون تاريخ.

مصطفى صادق الرافعي

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة التاسعة١٣٣٩هـ/١٩٧٣م.

منصور بن محمد الغامدي (دكتور)

الصوتيات العربية، دار التوبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

حرف النون

نجم الدين محمد بن محمد الغزي (الشيخ)

الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

نجيب العقيقي

المستشرقون (موسوعة في تراث العرب، مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه)، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة١٩٦٤م.

حرف الياء

يوسف إليان سركيس

معجم المطبوعات العربية والمعربة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، بدون تاريخ.

الكتب المترجمة

برتيل مالمبرج (مستشرق سويدي)

علم الأصوات، تعريب: د. عبد الصبور شاهين، مكتبة الشباب، القاهرة١٩٨٤م.

برجشتراسر (مستشرق ألماني)

التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلق عليه: د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

جان كانتينو (مستشرق فرنسي)

دروس في علم أصوات العربية، نقله إلى العربية: صالح القرمادي، نشريات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية١٩٦٦م.

رودي بارت (مستشرق ألماني)

الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة: مصطفى ماهر، من إصدارات المركز القومي للترجمة، القاهرة، سلسلة ميراث الترجمة، العدد١٧٨٤ لعام٢٠١١م.

فؤاد سزكين (دكتور)

تاريخ التراث العربي، ترجمة: د. محمود فهمي حجازي، مراجعة: د.عرفة مصطفى، د. سعيد عبد الرحيم، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، ١٤٤١هـ/١٩٩١م.

ماريوباي (مستشرق إيطالي أمريكي)

أسس علم اللغة، ترجمة: د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الثامنة١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

الرسائل الجامعية

أبو السعود الفخراني (دكتور)

التجويد القرآني في ضوء علم الصوتيات الحديث، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم: ٢٣٣٩/أصول لغة ، إشراف: أ.د. عبد الله ربيع محمود، العام الجامعي١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

إيمان طه صميدة(مدرس مساعد بكلية دراسات إسلامية وعربية- بنات – بني سويف)

عبد الله ربيع لغويا، رسالة ماجستير مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم: ٧٢٣٤/أصول لغة، إشراف: أ.د. أمين محمد فاخر، أ.د. أبو السعود الفخراني، العام الجامعي ١٨٣٨هـ/٢٠١٧م.

المجلات والدريات

أبو الحسن علي بن جعفر بن محمد الرازي السعيدي

التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي: الكتاب منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد السادس والثلاثون، الجزء الثاني، لعام١٩٨٥م، دراسة وتحقيق: د. غانم قدوري الحمد.

صبيح حمود التميمي (دكتور)

علم الأصوات عند سيبويه للمستشرق الألماني أرتور شاده – محاضرة برؤية استشراقية، ومراجعة حديثة، بحث منشور بمجلة آداب الرافدين، كلية آداب الموصل، العراق، العدد٥٨، ١٤٣٢هـ/٢٠١٠م.

عبد الله ربيع (دكتور)

أصوات العربية والقرآن الكريم: منهج دراستها وتعليمها عند مكي بن أبي طالب المتوفى سنة٤٣٧هـ. بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالرياض، العدد العاشر، عام١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

علي إبراهيم (دكتور)

من أعلام الأزهر – الأستاذ الدكتور عبد الله ربيع محمود، بحث منشور في الجزء الأول من " علماؤها الخالدون، برعاية كلية اللغة العربية بالقاهرة، مطبعة الأقصى، القاهرة، الطبعة الأولى٢٠١١م.

المراجع الأجنبية

1- Ferguson, Charles: The emphatic L in Arabic, language, Vol. 32, No. 3 (Jul. - Sep., 1956), America.

2- Semaan, Khalil: Tajwīd as a Source in Phonetic Research, Wiener Zeitschrift, Vol. 58 (1962), Vienna .

المواقع الإلكترونية

https://en.wikipedia.org/wiki/Mario_Pei

https://www.britannica.com/biography/Mario-Andrew-Pei

http://safita.reefnet.sy/index.php?option=com_content&view=article&id=295:2017-11-05-10-37-33&catid=2:2008-12-18-20-18-23&Itemid=55

https://sites.google.com/site/alfkhran/alsyrte-aldhatyte

فهرس الموضوعات

عنوان البحث
ملخص باللغة العربية
ملخص باللغة الإنجليزية
المقدمة
التمهيد: : التعريف بمحمد مكي نصر، وهدفه من دراسته، وأهميتها في الدراسة الصوتية
المطلب الأول: محمد مكي نصر: حياته، كتابه، وفاته
المطلب الثاني: علم التجويد وعلم الأصوات – الطبيعة، والعلاقة، والمنهج–
المطلب الثالث: الدافع إلى دراسة الأصوات اللغوية عند محمد مكي نصر
الفصل الأول: العملية النطقية عند محمد مكي نصر
المبحث الأول: الجهاز النطقي
المبحث الثاني: إنتاج الصوت اللغوي
الفصل الثاني: الصوت اللغوي مفردا – تأصيل وتحليل –
المبحث الأول: مخارج الحروف
المبحث الثاني: صفات الحروف
المطلب الأول: الصفات المتضادة
المطلب الثاني: الصفات غير المتضادة

المطلب الثالث: نظرية الأصوات القوية والضعيفة
الخاتمة
التوصيات
قائمة المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات